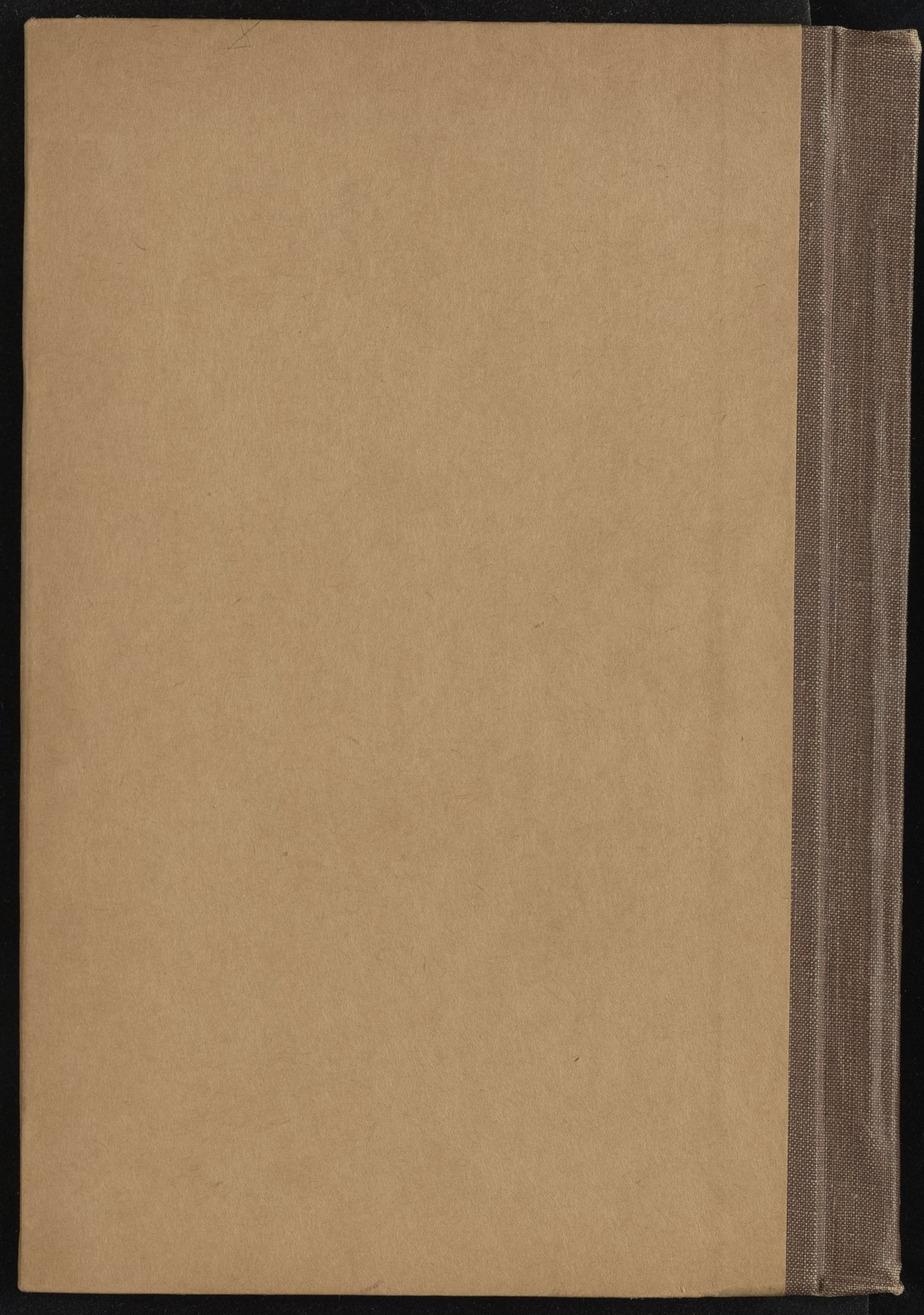
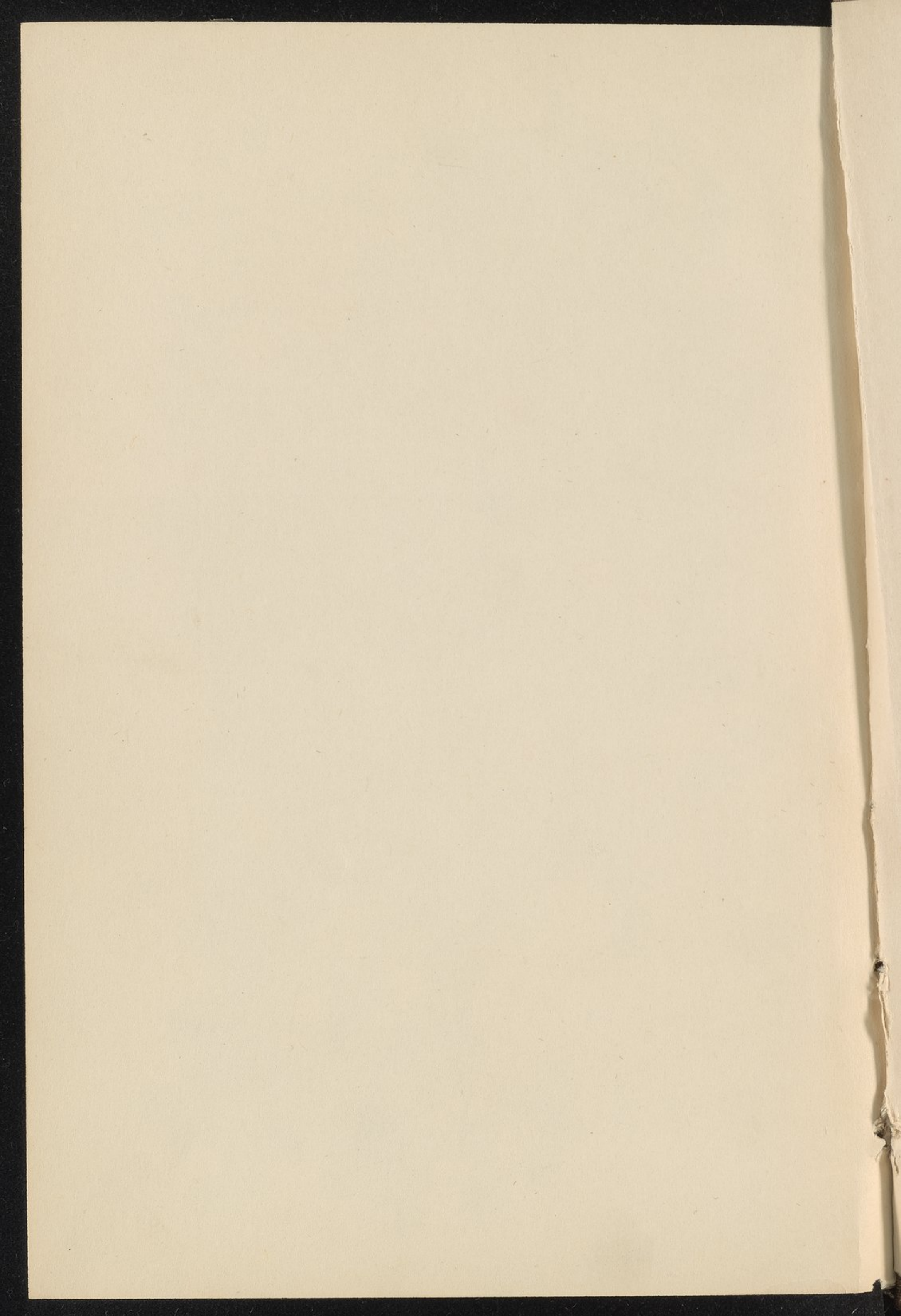
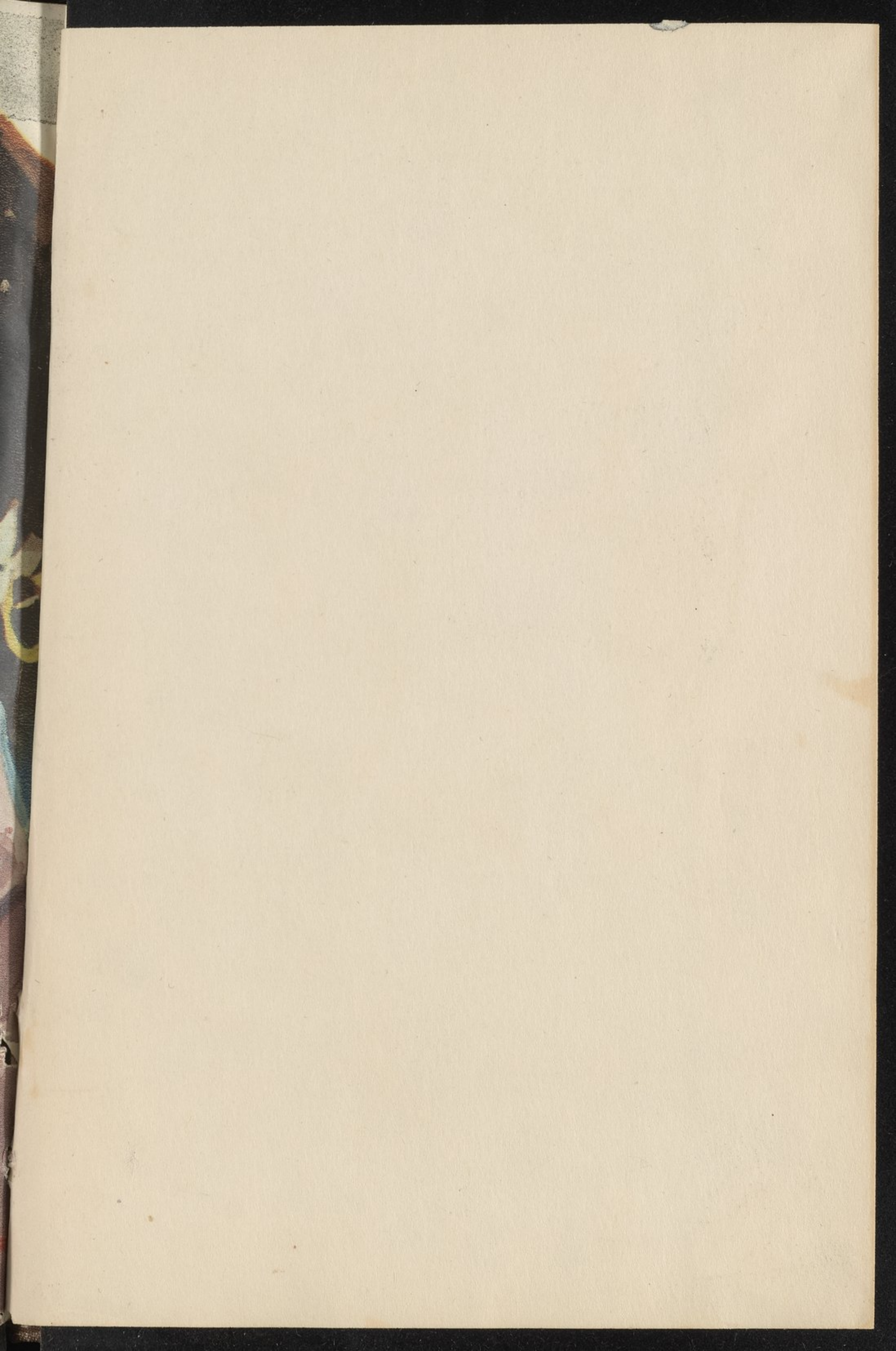


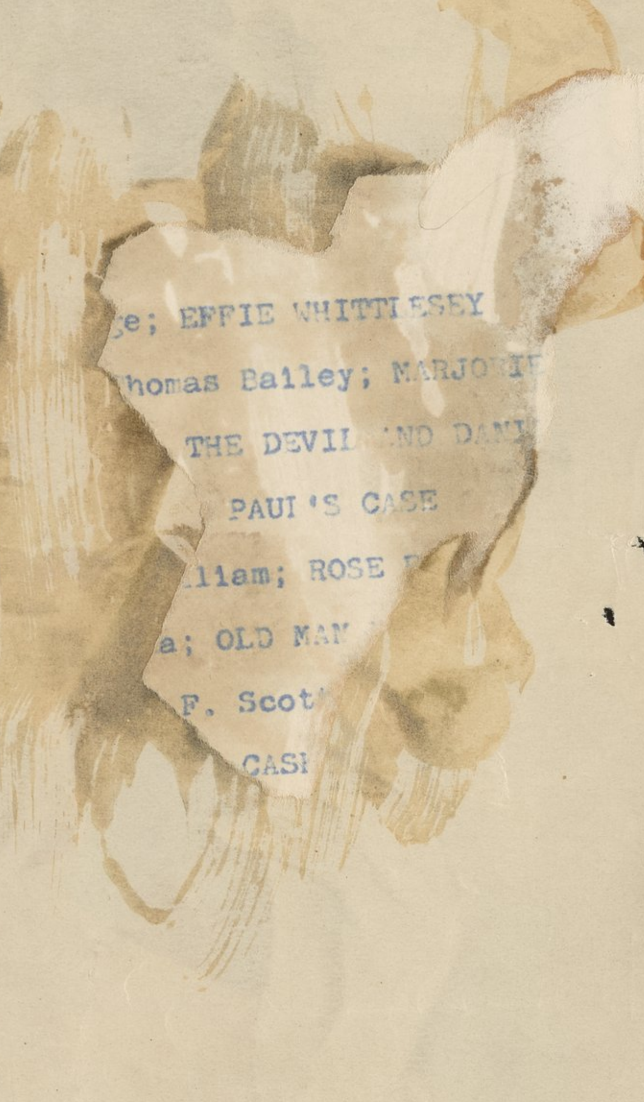




ألوان من
القصة القصيرة

٨
قروش

قصة اليوم



ge; EFFIE WHITTLESEY

Thomas Bailey; MARJORIE

THE DEVIL AND DANI

PAUL'S CASE

lliam; ROSE

a; OLD MAN

F. Scot

CASE

ألوان من القصة القصيرة

في

الأدب الأمريكي

نقد ونماذج مترجمة من أدب القصة

للكاتب الكبير

عباس محمود العقاد

نشر بالاشتراك
مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
بالقاهرة ونيويورك
هذه الترجمة مرخص بها
وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
بشراء حقوق الترجمة من أصحاب هذه الحقوق
ونزلت عنها لدار « أخبار اليوم »

نشرت فى هذه المجموعة القصص التالية :

IRVING (Washington) : Rip Van Winkle
POE (Edgard Allan) : The Purloined Letter
The Cask of Amontillado
TWAIN (Mark) : The Celebrated Jumping Frog

ونشكر أصحاب الحقوق فى القصص التالية :

ALDRICH (Thomas) : Marjorie Daw
ADE (George) : Effie Whittlesey
CATHER (Willa) : Paul's Case.
FERBER EDNA : Old Man Minick
BENET (Stephen V.) : The Devil and Daniel Webster.
FITZGERALD (Francis Scott) : Babylon revisited
FAULKNER (William) : Rose for Emily.
STEINBECK (William) : Leader of the People.

الادب الامريكى

كلام المؤرخين عن **طبائع الامم** قديم ، ومثله فى القدم كلامهم عن العلاقة بين طبائعها وآثارها الادبية والثقافية ، وقد كثر الكلام فى هذه العلاقة ، بعد ظهور المباحث النفسية ، واستفاضة النظر فى علم النفس الاجتماعى وأطوار الجماعات على التعميم .
وقد يكثر الخطأ كلما كثر الكلام فى هذا الصدد ، ولا مقياس لتحقيق الخطأ والصواب كالمقياس الذى نحقق به صحة المسائل الحسابية أو صحة الفروض الرياضية . ولكن غيبة المقياس لاتقضى ببطلان البحث ولا بالعدول عنه ، فهو مسلك مطروق غير موصد ، ولن يوصده اليوم ولا فى الغد كثرة الخلاف عليه .

والنقاد يذهبون تارة من فهم طبائع الامم الى فهم آدابها وثقافتها ، ويذهبون تارة أخرى من فهم آدابها وثقافتها الى فهم طبائعها ، ويطيلون من أجل ذلك فى بحث عناصر الاجناس ، أو بحث الامزجة القومية ، على ضوء العقائد الموروثة ، وعلى ضوء المقررات العلمية الحديثة . ومهما يكن من توفيقهم فى ذلك أو اخفاقهم فيه ، فهم متفقون على صعوبة التطبيق حيث تتعدد العناصر وتمتزج فى البيئة الواحدة . وأصعب ما يكون ذلك تطبيقا فى بيئة **كالولايات المتحدة** ، تنتمى الى عناصر شتى من السكسون واللاتين وأمم الشمال وأمم الجنوب ، ويذكر فيها الذاكرون بين أجدادهم أناسا من الانجليز والسكندنافيين والهولنديين والاسبان والفرنسيين والايطاليين . فلو كانت هذه الاصول أنهارا وجداول تجرى على انفراد ، ثم تمتزج فى الطريق ثم تخلص من الملتقى الى ملتقى آخر ، تطرد عليه أمدا ، وتنحرف عنه أمدا آخر ، لكان من العسير تخليص أمواهها ،

وتحليل مقاديرها ، ونسبة الامتزاج والانفصال بين أجزائها ، فكيف بعناصر الفكر والشعوروهى قد تخفى على صاحبها فى الوقت الواحد وتخفى عليه من باب أولى فى معظم الاوقات .. ؟

أقرب من البحث فى العناصر وامتزاجها ـ على مانعتقد ـ أن نبحث فى البواعث التى اشتركت فيها **الافواج المهاجرة** الى القارة الامريكية ، فهى بواعث محدودة معروفة ، وآثارها ليست من الخفاء واللبس بحيث تختلط فيها الآراء ، كما تختلط فى امتزاج الطبائع والاقوام .

كانت بواعث **الهجرة الاولى** تنحصر ، أو تكاد فى التماس النجاة من الضغط على الحرية الدينية ، والتماس البيئة التى يتسع فيها الميدان لاقامة « **الطوبى** » الروحانية على مشيئة المهاجرين . وكان طلاب النجاة فريقين من **المتطهرين** وممن يسمونهم **بالحجاج** ، والاولون متدينون محافظون متشددون ، والآخرون متدينون محافظون يتصرفون فى شئون التقاليد بالرأى والتجديد .

واقترنت هذه الهجرة الدينية بهجرة دنيوية يقودها الطموح وبعد الهمة والاعتداد بالنفس والجرأة على أقتحام المورد المجهول ، ولم تكن الهجرة الدينية خلوا من عامل الطموح وبعد الهمة ، فمن كان ضعيف السعى ، هيابة للمجهول ، لايلتمس النجاة بعقيدته ولا المغامرة فى سبيل دنياه .

ولما وجد **المهاجرون الاولون** أنفسهم فى المجاهل الامريكية ، كان موقفهم من سكانها الاصلاء موقف من يؤمن أنه يستخلص لله أرضا فى حوزة الشيطان ، فكان شعور الجهاد للسماء مقترنا بشعور الجهاد للارض ، وكان السعى عندهم فى طلب الرزق كالغزوة فى طلب النجاة من الشيطان والغلبة عليه .

ان المهاجرين الذين حفزتهم هذه البواعث يتشابهون على اختلاف العناصر والاقوام ، وربما كان الهولندى الذى يحرص على ايمانه ، وتستنهضه همته الى ترك الديار والتغرب فى مجاهل الارض ، أقرب الى الانجليزى أو السويدى او الاسبانى الذى يشبهه فى بواعث نفسه ، من أبناء الوطن الواحد الذين لاتشابه

بينهم فى الغيرة على ذخائر الروح ، أو الغيرة على ذخائر الارض والحطام . فهذه أخلاق متمكنة فى الطبائع تتوارثها الاجيال ، ويتشابه فيها الابناء والآباء ، ولا يصعب على المؤرخ أن يتتبع فعلها فى تكوين المجتمع وحوادث التاريخ .

ومن ثم غلبت على **المجتمع الامريكى** خصلتان ظاهرتان : احداهما سيادة السنة العامة فى شئون العقائد والاخلاق ، والاخرى خصلة التجربة العملية والاعتداد بالذات فى شق طريق الحياة ومواجهة المجهول .

خصلتان قد تتوافقان أحسن وفاق ، وقد تتنازعان أشد نزاع ، فتجرى رعاية السنة العامة مع الاعتداد بالذات فى اتجاه واحد ، أو يختلف الاتجاه مع تجارب الواقع ، فذلك هو الصراع العنيف ، ونحسبه محور الصراع الاكبر فى مشكلات الادب ومعضلات النفس البشرية ، بين النجاح العملى الواقعى ، ورعاية المبادىء والاصول كما تتمثل فى الآداب الامريكية الحديثة ، قصة كانت ، أو مسرحية ، أو مذهبا من مذاهب الفلسفة ، أو رأيا من آراء السلوك والاخلاق .

ولا نذكر «**البرجمية**: **Pragmatism**» ودلالتها ، فهى أبرز من أن تحتاج الى ابراز ، ولكننا ندع القراء يذكرون ما يشاءون من القصص الكبار أو الصغار ، فلن يعدموا فى واحدة منها مشكلة تنجم من الاعتداد بالذات والمغامرة فى مواجهة المجهول كائنا ما كان هذا المجهول . وهاهنا **مجموعة** من القصص نرى فيها المراهن على الغيب ، والشيخ المنفرد بمسكنه بعد السبعين ، والمريض الذى يقلقه العلاج الطويل ، فيعشق على السماع ، ويهجم على بلد المعشوقة التى لم يرها قط ، ولم يكن لها وجود ، والخابط فى الارض على غير قصد ، حتى يلتقى على رؤوس الجبال بأرواح الحراس من الرواد الاقدمين ، والمؤمن الساذج الذى تنهار حياته حتى يدعمها فى مجاهل أفريقية بايمان جديد ، والخطيب الذى يناضل الشيطان بالحصافة الدنيوية كما يناضله بالعقيدة القوية ، والفتى الذى يركب رأسه شوقا الى التجربة الحسية ، فيهجم من متعة الحياة الى الموت ، والاب الذى يلهو فترده

تجارب اللهو بهدى العاطفة الابوية الى الرصانة والاعتدال . . .
وهكذا كل « **شخصية** » فى كل **قصة** تختارها جزافا أوتختارها بقصد وتمييز ، فلن تعدم فيهاجميعا عنصر التجربة الذاتية أو الصراع بين المبدأ والواقع أو الاقدام على المجهول ، ولن يشق عليك أن ترجع الى أصول ذلك قبل جيلين أو بضعة أجيال ، من طريق أوجز وأوثق من تلك الطرق التى تتعقب العناصر وطبائع الاقوام .

***

قرأت فى كتاب « **الفكرة الادبية فى أمريكا** »

Literary Opinion in America

فصلا للكاتب الناقد چيمس جبون هنكر **Hunker** يقول فيه أثناء الكلام على الرواية الامريكية الكبيرة ، « أما آداب **التطهر** فى روايتنا الحاضرة فمما يجترىء المرء على أن يجبه المتدين الناشىء قائلا له انها ليس لها وجود » .

وبعد صفحتين اثنتين يقول الكاتب نفسه أن الروايات تفيض بالعظات الملتهبة ، للاقناع بهذا المذهب أو ذاك ، من مذاهب السياسة أو الاخلاق ..

وقد كان خليقا بالكاتب الناقد أن يفطن للتناقض الواضح بين موت « **التطهر** » والولع بالوعظ ، والاقناع بأية دعوة من الدعوات . فانهما فى الباطن من معدن واحد ، وان جنحت الدعوة الى التمرد على العرف والسنن المرعية ، فليست الحماسة هنا الا من مادة الحماسة للمعتقد كيفما كان .

ويكاد يجمع النقاد المحدثون على أن **صبغة التجربة** **Experience** أغلب الصبغات على الادب الامريكى المعاصر ، وهم على صواب فى هذا الاجماع ، فان محاولات التجربة نفسها تدل على الحصلتين فى وقت واحد : تدل على الاعتداد بالذات ، وعلى قوة العرف والتقليد ، ولامعنى لتغليب التجربة أن لم تكن هنالك مغالبة أومحاولة للتوفيق بين ما يكشفه الانسان لنفسه ومايفرضه العرف عليه .

وتكاد هذه الصبغة تكون ملازمة للمصنفات الامريكية من

أقدم عهودها ، قبل الاستقلال وبعد الاستقلال ، وانما كانت صبغة الدينات أعم وأشيع فى القرن السابع عشر ، ثم عمت وشاعت بعده صبغة السياسيات فى دور النزاع بين سكان البلاد وحكامها ، ثم ظهرت الثقافة الادبية — اول ظهورها — مستقلة مصطبغة بزمانها ومكانها ودواعيها .. ولم تكن مهملة قبل عهد الاستقلال الا لانها كانت مهملة فى الحياة العامة ، ولم تكن هى التى تمثل الاخلاق والمقاصد والطباع .

وتنقسم **عهود الادب الامريكى** بفواصل من الزمن مرسومة متفق عليها بين مؤرخى الآداب . فهناك فاصل الثورة على الحاكم المستعمر ، وفاصل الحرب الاهلية ، وفاصل الخروج من العزلة بعد الحرب العالمية الاولى ، وكلها فواصل بينة صحيحة ، تؤرخ الانتقال من عهد الى عهد ، ومن اتجاه الى اتجاه ، ولكننا نود أن نقرن بها فاصلا يذكر أحيانا ولا يعطى حقه من الشأن والاثر ، وهو معادل فى اعتقادنا لفواصل الثورات والحروب . ذلك الفاصل هو **عهد الصور المتحركة** ، ويلحق به فاصل **الاذاعة** . فان أثر الصور المتحركة لعظيم فى اختيار الموضوع ، عظيم فى تنويع الاسلوب ، عظيم فى تنسيق القصة والحوار .. وسيرى القراء فى القصص التالية هذا الفارق بينا ، لاخفاء به ، فيما كتب منذ شيوع الصور الناطقة على اللوحة البيضاء ، فان الكاتب ليشغل قلمه فيها كما يشغل انتباهه بعوارض حسية لا دخل لها فى لباب الموضوع ، لولا أنه يكتب ويحسب حساب المخرج الذى يتولى كتابة « **الوصفة المنظرية** » أو السنار . فما دخل النمل ، وقياس المرتفعات ، وألوان الاشجار ، والمسافات بينها ، وأطوالها أو غزارة أوراقها ونزارتها ، فى قصة **شتينبك** عن الشيخ الهرم زعيم الهجرة ، ورحلات التغريب .. ؟

ان هذا وأشباهه مما أدخلته الصور المتحركة على أسلوب الكتابة ، وقد أثبتنا بعضه على سبيل المثال ، وتعمدنا أن نضع هذه القصص بعضها الى جانب بعض كما تتفق ، بغير

تمييز مقصود ، لاننا نعتقد أن الدلالة على هذا النحو أصدق من دلالة التمييز والانتقاء .

أما طريقتنا فى الترجمة ، فهى مراعاة الاصل غاية المراعاة ، مالم يكن حشوا لا محل له من لباب المعنى ومن الوجهة الفنية، ففى هذه الحالة نكتفى بالمفيد ،ولا نلتزم الحشو ، وهو لايزيد فى الكتاب كله على بضعة سطور... وقد أردنا ترجمة صادقة فى نقل العبارة بمعانيها وظلالها ، ولم نرد نسخا كنسخ الوراقين CoPyism من لغة الى أخرى ، فمن سمى ذلك نسخا أو مسخا، فقد أصاب التسمية !! ونرجو أن تكون دقة الاداء وتلخيص التراجم وشواهد التمثيل على المختار من كل أديب ، صورة صادقة لتطور **القصة الصغيرة** فى الآداب الامريكية منذ وجدت على عهد « **أرفنج** » الى هذه الايام .

عباس محمود العقاد

القصة الصغيرة

ان الكتابة القصصية أنواع كثيرة فى العصر الحاضر ، منها **الرواية** وهى التى تقابل كلمة نوفيل Novel فى اللغات الاجنبية ، ومنها **الرواية الصغيرة** ، وهى التى تقابل كلمة نوفليت Novelette ومنها **القصة أو الحكاية** وهى التى تقابل كلمة « استورى » story ، ومنها **الحكاية القصيرة** أو النادرة وهى التى تقابل كلمة « شورت أستورى » وترجمتها الحرفية على حسب أصل الكلمة : تاريخ قصير .

ومن البديهى أن الفوارق بين هذه الانواع لا ترجع الى الطول والقصر ، ولا الى الاسهاب والايجاز ، ولا الى العناية بالاسلوب الادبى وقلة العناية بذلك الاسلوب ، ولا الى خطر الموضوع أو تفاهته . فكل أولئك صفات قدتتشابه فيها جميع هذه الانواع ، فتكبر الحكاية المطولة حتى تلتقى بالقصة الصغيرة فى عدد الكلمات ، أو تتناول الحكاية موضوعا من أجل الموضوعات ، ولا تتناول القصة الكبيرة الا موضوعا هينا من مسائل المجتمع أو مسائل الاحوال النفسية .

انما يرجع الاختلاف بينها الى فارق أصيل من باب التغليب والترجيح ، على الاقل ، أن لم يكن من باب الحسم والشمول . ولم نعرف تفرقة بينها أصح وأصدق من التفرقة التى أجملتها الكاتبة « **اديث هوارتون** » حين قالت : « ان الموقف هو الموضوع الغالب على القصة الصغيرة ، وان رسم الشخصية هو الموضوع الغالب على الرواية .. »

ويمكن أن نضيف الى الموقف موضوعا آخر يصلح للقصة الصغيرة أو الحكاية ، وهو **الايحاء** ولفت النظر ، أو هو ما يقابل ـ حرفيا ـ كلمة « **الاقتراح** «Suggestion

ولابد أن نحسب حساب الاصطلاح والتخصيص فى هذه التفرقة الاخيرة ، فانها لم تكن كذلك منذ نشأت الحكاية أو القصة الصغيرة فى القدم ، وكثيرا ماكانت هذه الموضوعات تتلاقى وتتشابه ولا يلحظ بينها فاصل حاسم غير الطول والسعة ، ولكنها تفرقة لم تزل تلتزم شيئا فشيئا مع تقدم الفن وجنوح الكتابة الحديثة الى التخصيص وتوزيع الاغراض والمناسبات .

فالقصة الصغيرة ، أو الحكاية ، لا تتسع لرسم شخصية كاملة أو عدة شخصيات كاملة من جميع جوانبها ، ولا تتسع كذلك للحوادث الكثيرة ولا للحادثة الواحدة التى لا تتم الا مع التشعب والاستيفاء والاحاطة بأحوال جملة من الناس فى مختلف المواقف والاحوال ، ولكنها قد تعطينا لونا من ألوان الشخصية كما تتمثل فى موقف من المواقف، فنفهمها بالايحاء والاستنتاج ، وقد تعرض لنا موضعا نفسيا أو موضعا اجتماعيا ، ينفرد بنظرة عابرة ويؤخذ على حدة ، فيدل كما تقدم دلالة الموقف والايحاء .

من هنا كانت **القصة الصغيرة** لونا من الكتابة مناسبا كل المناسبة للأدب الامريكى ، منذ استقل هذا الادب بأقلامه وموضوعاته وعرف له رسالة قائمة بذاتها غير المحاكاة والتقليد .

فالمواقف أكثر ما تكون فى بلاد الاقاليم والاجناس ، وبلاد التاريخ المذكور الذى تلتقى فيه الوقائع الحاضرة بالذكريات القريبة ، وتصطبغ فيه هذه الذكريات بصبغة الخبر تارة وصبغة الاسطورة تارة أخرى ، على حسب النظرة اليها ، وعلى حسب « الزاوية » التى ينظر منها المقيم فى هذا الاقليم أو ذلك الاقليم .

وليست الاقاليم هنا حدودا جغرافية تختلف بالمواقع والابعاد وكفى ، ولكنها ثروة زاخرة بتعدد الاجناس والامزجة والمصالح والاعمال . وقد قيل مثلا أنك فى الجنوب لاتستطيع أن ترمى بحجر دون أن تصيب **شاعرا** ... فكان هذا فارقا من فوارق الاقاليم فى مزاج التخيل والشعور، ولكنه فارق يرتبط فى الواقع

بالتاريخ وشواغل الحياة ، كما يرتبط بالموقع واصول النازلين فيه .

ومن مادة الفكاهة الخالدة التى تصلح لمواقف القصص الصغيرة ، حياة الريف وعادات أهله ، وحرب النكات بين الاجناس والاقوام ، وكلها مادة لاتنفد فى مصنفات **أمراء الفكاهة** المعروفين ، وكلها يتسع لها المجال فى الاقاليم الامريكية التى تمتزج فيها الاجناس والاقوام ، ويكثر فيها التنادر بطرائف الامم وغرائب الاطوار والتقاليد فى مجتمع واحد ، ويعيش فيها الريفى بعاداته ومأثوراته ، الى جانب الطوارىء والبدع المتجددة فى الحواضر والعواصم ، فلا ينضب معين الفكاهة أو الملاحظة السريعة التى تتمثل فى المواقف الخفيفة وتدور عليها القصة الصغيرة فى باب النقد الاجتماعى وما اليه ، ثم تأتى **الصحافة المحلية** فتعتمد على النادرة التى تبدأ وتنتهى فى نشرة واحدة ، وتضمن المدمن هذه النوادر اذا فاتها الخبر الواقع المتجدد فى جميع النشرات ، وتأتى بعد ذلك شرائط **الصور المتحركة** ومسارح الاقاليم الجوالة فتضع المواقف فى موضعها المحسوس من التصوير والتمثيل ، وتستطيع أن تخلق من القصة الصغيرة مناظر تشغل النظر ساعة او ساعات، حيث ينتهى القارىء من مطالعة القصة الصغيرة فى دقائق معدودات .

هذه كلها مادة للقصة الصغيرة تتوافر للادب الامريكى أو يزداد نصيبه منها على نصيب الآداب فى الامم الاخرى ، فلا جرم كانت هذه القصة لونا من ألوان الادب الامريكى يكاد يغلب عليه ، وكانت نماذجه منها قدوة يقتدى بها الكتاب كأنها مصدر « **الازياء الفنية** » فى هذا الباب !!

وقد اتفق فى وقت واحد أن هذه القصة تخصصت بالموقف والايحاء ، وأن الفن كله يتجه الى تمثيل الحالات وعرض الصور وينفر قليلا قليلا من تعمد التسلية ، بمجرد سرد الحوادث ، وتعليق الانفاس بالمفاجآت ومثيرات الشعور ، فربما أنف الكاتب فى العصر الحديث أن يقال عنه أنه يكتب للتسلية والتشويق ،

ويختلق العظائم والقوارع لتنبيه القارىء والاستيلاء على شعوره وخياله ، فحسبه أنه بدير نظر القـارىء الي موقف نفسانى او موقف اجتماعى ، ليكون قد أبلغ وأدى ما عليه ، وحسبه أن يوحى الى القـارىء بمـا يتخيله ويرتب عليه أفكاره ، مسـتقلا بالتخيل والتفكير ، ليكون كاتبه وأديبه وشريكه أو مشركه معه فى المشاهدة والملاحظة ، وبهذا تتفق قصـة الموقف ورسالة الفن العصرى من اوجهة العـامة ، فيصبح تصـوير الموقف غرضا شاملا يغنى عن اعتساف الحوادث والبحث عن « غير المعتاد » للتنبيه والاستيلاء على الشعور . ولاشك أن التحـول من بطولات الامراء والنبلاء والسروات قد كان له دخل كبير فى هذه الخصلة الفنية التى جاء بهـا العصر الحـديث ، فلا ضرورة «لغير المعتاد» فى تصوير الابطال والحوادث اذا كان العرف قانعا بتصوير كل انسان وكل موقف غير مقصور على الانسان الخاص أو على الحادث الخاص ، متسعا شاملا بالتعميم على سـنة العصر فى جميع الامور .

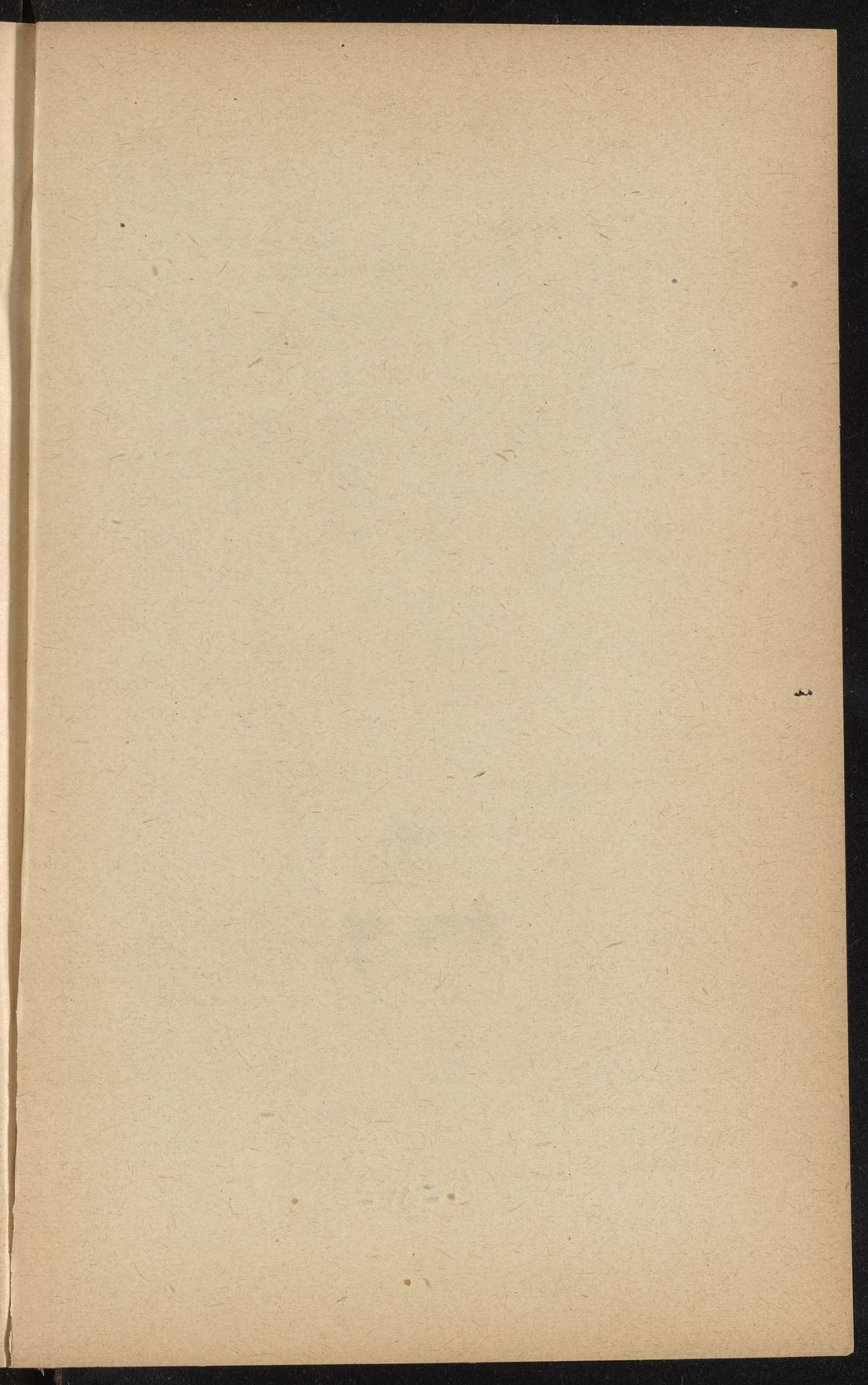
وسيرى القـراء فى مجموعة القصص التـالية مذاهب المؤلفين فى اختيار المواقف خلال القرن الاخير ، فقد كان الموقف وحده لا يكفى لكتابة القصـة قبل سبعين أو ثمانين سنة ، بل كان من الواجب أن يكون الموقف رائعا أو كافيا لاستغراق الحواس وغمر النفوس بالعاطفة ، فلم يزل هذا الموقف يتطور مع الزمن حتى أصبح « الموقف » جديرا بالتسـجيل كلمـا كان فيـه موضع للملاحظة القريبة ، أو للمقارنة العاجلة ، أو للتأمل الذى ينبعث فيه القارىء مع نوازعه وأهوائه، غير متقيد بالـكاتب فى نزعته أو هواه .

فى العصر الحاضر أصبح الكتاب من طراز **فولكنر أو همنجواى أو شتينبك** يكتبون القصـة لموقف واحد لاينتهى الى قارعـة ، ولايتبعه الـكاتب أو القارىء الى نتيجة مقصودة ، فمن مواقف أقاصيصهم موقف رجل يدخل الى بيته فتنبئه زوجته أنهـا عثرت بخادمة موافقـة ، فاذا بالخادمة «لا توافق» لان الرجل يعلم بعـد أن يراها أنهـا كانت زميلته فى الدراسـة ، ولا تزال هى وهو يتناديان بالاسماء دون الالقاب . ومن مواقفهـا موقف

مصارع يأتمر به منافسوه ليقتلوه ، فيتلقى الخبر ولايتبعه بعمل، لان حكم الموقف يأبى عليه الهرب كما يأبى عليه ابلاغ ولاة الامور .. ومن مواقفها موقف شيخ من الجيل الماضى يستئم السامعين المحدثين بأخبار الطواف الى الغرب ، ثم التمادى فى الطواف ، فلا يطيق المحدثون سماع هذه «الاعاجيب» التى كانت فى يوم من الايام تهز المشاعر وتكفى وحدها للتغريب ثم التغريب من غير قصد الى مكان معلوم ، وانما هو كشف آخر من جانب البر بعد الكشوف الاولى من جوانب البحار ، ولا محل له من السمر او الكلام بعد أن كشف المحدثون كل بقعة من بقاع الغرب ، ونسوا انه كان غيبا مجهولا قبل جيل .

هذه القصص تختار لهذه الدلالة ، وتفيد فى اختيارها الى جانب القصص التى سبق اليها المؤلفون قبل جيل واحد ، فهى القصة الصغيرة فى معرض الاجيال على حسب اختلاف المواقف والاحوال ، ولهذا توضع المجاميع المختارة من ألوان الفن وضروب الكتابة ، ولعل هذه المجموعة أن تكون لها رسالتها الكافية بين المجاميع .



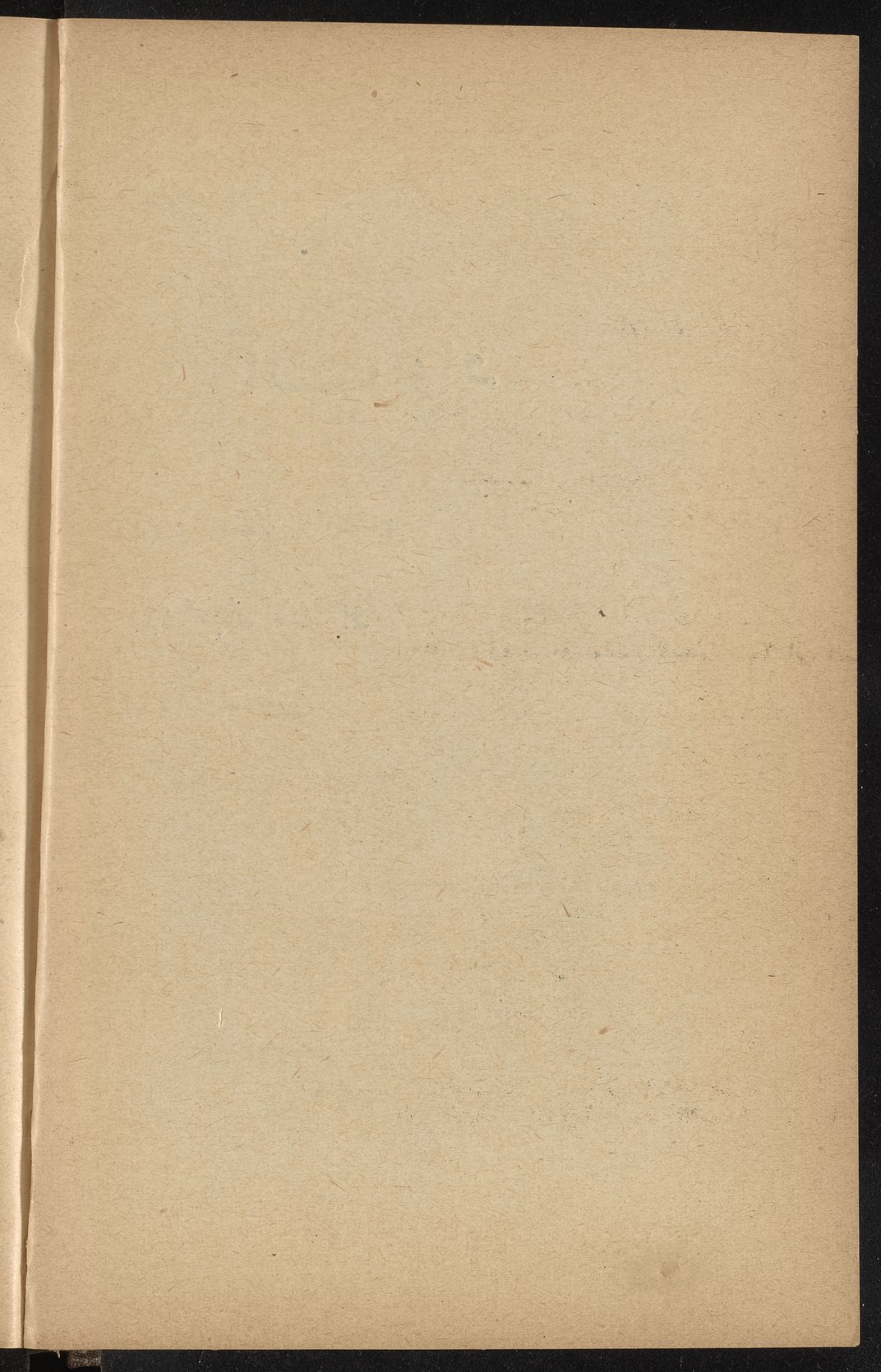


الرواد

(١) واشنطون أرفنج

(٢) ادجار ألان بو

(٣) مارك توين



واشنطون أرفنج

١٧٨٣ - ١٨٥٩

يلقب « **أرفنج** » بسفير أمريكا الادبى الى القارة الاوروبية. وبلقب أحيانا بأبى الادب الامـريكى ، وهو جدير بكلا اللقبين ، يسـتحقهما بمزايا متعددة ، أكبـرها وأظهرها أنه رجـل لم تستغرقه بيئة قط ، سواء كانت بيئة الزمن أو بيئة المكان • أو بيئة الفكر والثقافة ••

يكتب عن الاقاليم المحلية ، ويـكتب عن أقاليم الولايات من شرقها الى غربها ، ويصف شؤون العـالم الجـديد ولايقصر فى وصف شـؤون العالم القديم ،وبتتبع مسـائل عصره ، ويتتبع كذلك مسائل التاريخ القريب والبعيـد ، ويعنى بالشرق ، كما يعنى بالغرب فى عالميه الجديد والقديم ••فمن مؤلفاته كتاب عن **النبى محمد** عليه السلام ، وكتاب عن **خلفائه** ، وآخر عن فتح **غرناطة** ، وآخر عن خواطر يوحيهـا **قصر الحمراء** !! وثقافته تلم بأطراف متباعدة ، فمنها الترجمة والقصة والمقالةوالرسائل التى لا تخلو جميعا من أسلوبهالغالب عليه ، وهو أسلوب النقد الاجتماعى فى قالب الفكاهة الرضية ، التى لاتنطوى عـلى عداء لاحد أو لجماعة من الناس •• وتتعدد **بيئته** فى تراجمه كماتتعدد بيئاته فى سائر موضوعاته ،فهو يترجم كما تقدم **للنبى محمد** عليه السلام ، ويترجم **لكولمبس ولواشنطون** ، ويترجم للأديب الانجليزى **أوليفر جولد سمث** ،وتظهر سجيته كلهـا فى أعجابه بهذا الاديب ، لان جولد سمث قد اشتهر بكتابه عن « **المواطن العالمى** » ، وهو فيلسوف صينى يطوف فى العالم ، ويعلق على

مشاهداته وتجـاربه بنظرة شرقية تتجلى فيها غرائب النقائض والمفارقات .

وقد رشحته لهذه السماحة الثقافية أحوانه جميعا ، ما كان منها عاما يرجع الى عصره ومنشئه ، وماكان منها خاصا يرجع الى أسرته ومزاجه وتربيته . فانه ولد فى عصر الاسـتقلال ، وحضر خلافات الحرب الاهلية ،ونشأ من أسرة موسرة لها أعمال فى **نيويورك وليفربول** ، وقد عاش فى هذه المدينة بضع عشرة سنة وكيلا عن أسرته فى أشـغالها التجارية ، وترعرع بعـد أن عبرت الثقافة الامريكية بأطوارهاالثلاثة :وهىطور الكتابة الدينية فى القرن السابع عشر ، وطور **الكتابة السياسية** فىالقرن الثامن عشر ، وطور **الكتابة الادبية** فى عصر الاستقلال ! واذا نظرناالى لباب فكاهته رأينا لها محورا عاما منالبيئة الزراعية التىأخذت تتحول الى بيئة التجارة والصناعة ، ومن البيئة المختلطة التى أخذت تتحول الى الوحدة القوميةالشـاملة ! ولهذا نرى لفكاهته هدفين تنصبهما له تلك المرحلة من تاريـخ بلاده : أحدهمـا السذاجة الريفية ،والآخرغرائب الاجناس التى يبرزها التقـابل بين الامم فى وطن واحد .

أما ملكته الفكاهية فى جملتها ، فمصدرها القـدرة على النظر الى الامور جميعا من زاويتين لا من زاوية واحدة ، وكثـيرا ما كتب عن شؤون وطنه كمـا تبدولعـين الطـارىء المختلف كل الاختلاف عن جميع بنيه ، ومن ذاك رسائل التركى المنفىالذى تخيله مهاجرا الى الديار الامريكية ، يكتب الرسـائل عنهـا ، ويصف منها فيما يصف **نظـام الحكومة والدولة** ، فيقول : ان الولايات المتحدة تحكم على نظام يسـميه نظام حـكم الـكلام « **لوجوقراطى** » ، وانها الآن فى حرب أهلية لاختيار « الباشا » الحاكم عليها ، وليس للمتقاتلين فى هذه الحرب سلاح غيرسلاح الخطب والمقالات .

***

ولد **بنيويورك** (٣ ابريل سنة ١٧٨٣) ، ومال بطبعـه الى دراسة القانون ومطالعة الآداب ، فلم يتابع تعليمه الجامعى ،

ثم سافر الى **القارة الاوروبية** وهو فى الحادية والعشرين ، مستشفيا ، وعاد الى **السياحة** فيها مستطلعا منقبا وهو يناهز الاربعين ، فالتقى بكبار أدبائها ، وشهد مسارحها ، وتنقل بين **انجلترا وفرنسا وألمانيا واسبانيا** ، واختير بعد ذلك لوظيفة فى المفوضية الامريكية **بمدريد** ، ونقل منها الى المفوضية الامريكية **بلندن** ، ثم ارتقى وزيرا مفوضا لبلاده فى **أسبانيا** ، واختاره معهدها الملكى لدراسة التاريخ عضوا فيه ، فكان من أبرز أعضائه ، وخيل الى الناشرين فى وطنه ، أثناء غيابه أنه قد نسى ، وخلفه على زعامة الادب كتاب جيل بعد جيله ، فأعرضوا عن طبع كتبه بعد نفادها ، ولكن واحدا منهم - وهو **بتنام** - كان يطوف فى البلاد الانجليزية لشئون تتعلق بصناعته، - عرض عليه بعد عودته أن ينقده ألفى ريال فى السنة مع حصة فى الارباح لطبع كتبه القديمة ،وما عسى أن يصدره من مؤلفاته الجديدة ، فتبين للناشرين والنقاد معا أن مكانته فى بلاده وغير بلاده ترتفع ولا تهبط ، وأن تعبيره عن القومية الامريكية « العالمية » كان أصدق التعبيرات فى تلك المرحلة من مراحل الثقافة والتكوين الاجتماعى والصلات الخارجية ..

ومما يؤثر عن نزعته القومية ان هذا النظر « **العالمى** » فيه لم يضعف غيرته الوطنية ، ففى الوقت الذى كان الناشرون يعرضون فيه عن كتبه ، وكان الاديب الانجليزى **مورى** محرر المجلة الربعية Quarterly Review يجزيه أحسن الجزاء عن طبع مؤلفاته ونشرها ، اقترح عليه هذا الاديب أن يكتب للمجلة مقالا أدبيا ، وعرض عليه مائة جنيه أجرا للمقال ، فرفض مقترحه وقال فى كتابه اليه ان هذه المجلة طالما نددت بقضية وطنه على صفحاتها ، فهو لا يرضى أن تظهر مقالاته على تلك الصفحات .

ولم تكن **السياحة** هى العامل الوحيد فى تعدد الجوانب الثقافية التى اشتهر بها **أرفنج** ، فقد كانت مطالعاته لاتقل عن سياحاته ، ويمكن أن يشار الى بعض أساتذته الادبيين ، ولايمكن حصرهم جميعا ، فمنهم **مونتسكيو وسكوت واديسون وجولد**

سمث ، ومنهم كتاب القرن الثامن‌عشر عامة فى **انجلترا وفرنسا والمانيا** ، ويندر أن يشار الى أديب من أدباء السلف اليونان او اللاتين لم يطلع عليه .

وأسلوبه سهل رشيق ، خلومن اللهجة التعليمية التى كانت نشيع بين أساليب القرن الثامن‌عشر ، ويلاحظ عليه أنه يتجنب العواطف القوية وينفر من الفواجع والسورات‌النفسية ، ولكنه يحسن تصوير الملامح الشخصية بغير تكلف ، ويعطى « اللون المحلى » حقه من‌العطف‌والفكاهة‌الرضية .

وقل أن يطلع القارىء على أثر لهذا الكاتب النابغ ، الا وجد فيه خصائصه جميعا ، ممثلة عفوا بغير مجهود ٠٠ وتتخذ المثل من القصة التى احتوتها هذه‌المجموعة وهى قصة **«ريب فان ونكل»** ، فانها قصة رجل ساذج لم يحصره جيل واحد ، وفيها دعابته المعهودة عن سذاجة الريفى وعادات الهولنديين فى أيام الهجرة الاولى ، وفيها كذلك‌لمحة الى قصة **« أهل الكهف »** والى طرائف **عصر الانتقال** بين‌أيام الاستعمار وايام الاستقلال. وليس اوضح من صورة بطل‌القصة وصورة المجتمع البسيط الذى عاش فيه منذ شبابه الى‌شيخوخته المضاعفة ، تلك الشيخوخة التى‌صاحبت جيلين‌من الشبان والشيوخ ٠٠



ريب ڤان ونكل

« وحق أودين رب السكسون ، الذى ينسب اليه يوم أودين أو الاربعاء ، ليكونن الحق لزاما أحرص عليه الى اليوم الذى أتوارى فيه الى الضريح .. »

كل من ألقى به المسير الى **هدسون** يذكر ولا ريب جبال كاتسكل : فرع الاسرة الجبلية التى تعرف **بالابالاشية** ، وترى على غرب النهر من بعيد ، مرتفعة الى علو نبيل ، مشرفة على ماحولها من الارضين ، يطرأ عليها فى كل موسم أو جو تغير ، بل فى كل ساعة من ساعات النهار ، طارىء من الألوان الساحرة التى تغشى أشكالها وملامحها ، ويحسبها ربات البيوت فى تلك الجيرة مقياسا من أدق مقاييس الجو والهواء . فاذا اعتدل الجو واستقر تسربلت بالزرقة والاحمرار ، وارتسمت صورتها الفخمة على أفق الغروب ، ويتفق أحيانا حين يصحو الافق من حولها أن تتجمع فوق رأسها كمة من الابخرة المرحة تطيف بقمتها ، فتلمع فى أشعة الشفق الاخيرة كأنها تاج العظمة والفخار .

وربما تراءى للمسافر تحت أقدام تلك **الجبال السحرية** دخان يتلوى ، وهو صاعد من سقوف القرية القرميدية التى تلمع بين الاشجار حيث تلتقى الزرقة من أعالى الارض بخضرة البطحاء النضرة . وهى **قرية** صغيرة معرقة فى القدم ، أسسها بعض المستعمرين من الهولنديين منذ أوائل أيام الاقليم ، حوالى

عهد الحاكم الطيب « **بيترستوفيزان** » طيب الله ثراه ، ولم تزل هناك بقايا من بيوت السكان الاوائل ، تخلفت الى سنوات قريبة ، بنوها بالحجارة الصفر الصغار التى جلبوها من هولندة ، وفتحوا فيها الشبابيك تحت سقوفها الحدباء ، يعلوها « **أبو رياح** » (١) .

فى هذه القرية ، وبين جدران بيت من هذه البيوت التى أبلاها الزمن ، وران عليها طول العهد بتقلب الاجواء ، كان يعيش من زمن بعيد – أيام كانت القرية ولاية بريطانية – رجل طيب ساذج يسمى **ريب فان ونكل** ، ينحدر من سلالة **فان ونك** الذى ذاعت شهرته فى تلك الايام ، أيام البطولة والفروسية فى عهد الحاكم **بيتر ستوفيزان** ، وقد صحبه حين ذهب الى حصار قلعة **كرستيا** ؛ ولكن **ريب** لم يرث الا القليل من خلائق أجداده الحربية ، فهو رجل سمح بسيط حسن العشرة لجيرانه ، مستسلم **لزوجته** التى لا تفتأ تنهره وتسىء اليه . ولعل هذا الخلق الاخير هو الذى أورثه تلك الهوادة التى تحبب صاحبها الى الناس ، وتلازم خارج الدار كل من ابتلى داخلها بالخضوع للزوجات السليطات . اذ تراض أمزجتهم ولا ريب بالمطرقة والكير فى نيران الخلاف المحتدم ، حيث تغنى الخطبة الواحدة عن عظات المنابر فى العالم كله . وهى تحاول أن تعلم الناس فضائل الصبر والاحتمال ، ومن ثم تحسب الزوجة الصاخبة فى عداد النعم المرضية ، ويقال عن **ريب فان ونكل** بحق أنه مثلث البركات !!

والواقع أنه كان على حظوة عظيمة عند زوجات القرية الصالحات ، وهن على عادة الجنس اللطيف يعطفن عليه فى كل مشكلة بيتية ، ولا يفوتهن فى سويعات السمر أن يلقين اللوم كله على السيدة فان ونكل ، كلما قلبن شجون الحديث . . وقد تعود الاطفال أن يتلقوه بصيحة الفرح كلما طلع عليهم ، فيساعدهم فى اللعب ، ويصنع لهم ألاعيبهم ، ويعلمهم كيف يرسلون الطيارات فى الهواء ، وكيف يصيبون المرمى ، ويقص عليهم أقاصيص

---

(١) صورة على شكل الديك تتقلب مع الريح وتدل على احوال الجو

العفاريت والساحرات والهنود. وحيثما ذهب يدلف فى أزقة القرية أحاط به جيش منهم يتعلق بأذياله ويصعد على ظهره ويداعبونه بغير احتشام ، ولا تسمع كلبا واحدا ينبحه بذلك الجوار !!

وآفة ريب الكبرى كراهته العصية لكل عمل نافع ، وليس ذلك لقصور منه عن الدأب والمثابرة ، فانه قد يجلس النهار كله وفى يده صنارة أثقل من رمح التترى ، يصطاد بها السمك ، ثم لا يسأم الجلوس وان لم يسعده الحظ بانتفاضة واحدة من الخيط تبعث فيه الامل ، وربما حمل بندقية الصيد ساعات ، بين الغابات والمستنقعات ، وفوق التلول ، وتحت الاودية ، عسى أن يظفر ببعض السنجاب أو الحمام ، ولم يرفض قط أن يمد يد المعونة لجار يدعوه الى أشق الاعمال ، ولم يزل فى الطليعة فى كل مهرجة من مهارج الحصاد ، أو فى كل حشد يتلاقى لاقامة الحواجز والحدود . وقد تعود النساء كذلك أن يبعثن به فى رسائلهن ، وان يندبنه لتلك المهام التى لا يتقبل الازواج منهن أن يستجيبوهن اليها ! فكان بعبارة أخرى على استعداد لان يقوم بكل عمل غير عمله .. أما المستحيل عنده فهو أن يعنى بحقله ، أو شئون داره ، وكل ما له فيه منفعة أو صلاح !

وواقع الامر أنه كان يقول ان العمل فى مزرعته عناء ضائع ، فانها كانت ألعن قطعة من الارض فى الاقليم كله ، وليس فيها الا ماهو غلط ينتهى الى غلط على الرغم منه . فحواجزها لا تزال تتساقط وحدها ، وبقرته تضل الطريق أو تجوس خلال الكرنب ، والعشب فيها كأنما أقسم ليسبقن فى نموه وتكاثره كل عشب مثله فى المزارع الاخرى ، وكذلك كان المطر على عهد أن ينهمر كلما اتفق له عمل خارج داره ، ومن ثم فنيت مزرعته الموروثة فدانا فى اثر فدان ، ولم يبق منها غير رقعة صغيرة يزرع فيها الحبوب والبطاطس ، وهى أسوأ المزارع حالا على الاطلاق .

وكان أطفاله كذلك شعثا غبرا ، كأنهم شرداء لا ينتسبون لاحد ، ومنهم ابنه ريب الذى نشأ على صورته ، تنم مخايله على أنه سيخلف أباه فى عاداته وأطواره ، كلما شوهد بملابس

أبيه البالية . وكان كالعجـل الصـغير يقفو آثار أمه حيث سارت ، ملتفا بسراويل أبيه ،وقد طوى فضولها بيده ، فعل السيدات الرشيقات اذ يأخذن أذيالهن بأيديهن فى الهـواء العاصف .

على ان **ريب ڤان ونكل** كان من أولئك السعداء الذين رزقوا ذلك المزاج الرضى الأبله ، الذى يتلقى الدنيا على علاتها فى يسر وقلة اكتراث .. يأكل الخبز ابيض أو أسمر حسبما يتفق ، ويؤثر أن يعيش جوعان بدرهم على أن يعيش بالعمل والمشقة على دينار . ولو أنه ترك وشأنه لصفر للحياة طويها فى غير اكتراث ، ولكنها هى امرأته التى لاتنى تطن فى أذنيه مؤنبة له على كسله وتراخيه ، وعلى الخراب الذى يسوقه الى أهله ، وتدأب على ذلك صبحا وظهرا ومسيا ، فلا يهدأ لها لسان . ومهما يقل فهو على يقين أن كلمة منه يتبعها لامحالة فيض من تلك البلاغة المنزلية ، حيلته الوحيدة حياله أن يصبر عليه ، وأن يهز كتفيه وينفض رأسه ، ويمط شفتيه ،ويرسل بصره أمامه ، ولاينبس بحرف .. وتلك على الدوام مناسبة جديدة لانطلاق **زوجته** فى طوفان آخر من التأنيب والتبكيت ، فلا يسعه الا أن يشد عزمه ويفارق المنزل الى الخلاء ، وهو المكان الوحيد الذى يملكه الزوج المغلوب !

وكان أليفه الوحيد فى الدار **كلبه وولف** ، الذى كان حظه من مدام **ريب** كحظ صاحبه ! كلاهما رفيق بطالة وكسل ، وربما لحظته السيدة بعين السخط لاتهامها اياه باغراء الرجل والتواطؤ معه على الكسل والتشرد .. والحق أن **وولف** كان كما ينبغى لكل كلب شجاع مثلا للكلاب ، لايسبقه سابق فى مطافه بالغاب . ولكن ماجدوى ذلك كله أمام لسان امرأة سليط .. فما هو الا أن يدخل المنزل ،حتى يهبط صدره ، ويتدلى ذنبه ، أو ينطوى بين رجليه ،ويتسلل فى خجل ورهبة ، ملقيا بالنظر من هنا و ثم الى **مدام ريب** ، متأهبا للفرار كلما لمح من بعيد شبح المكنسة فى يديها .. !

وساء الزمن عاما بعد عام مع **ريب ڤان ونكل** ، فى حياته

الزوجية ، فليس من شأن السن أن تداوى طبيعة النكد .. ومن شأنها دائما أن تزيد مرانة اللسان وتشحذه بكثرة الاستعمال!

وطالما عزى نفسه كلما برح المنزل بالتردد على **نادى الحكماء** وذوى الحنكة والخبرة وزملائه فى الكسل والهوادة ، حيث كان المجلس ينعقد على كنبة عند باب خان ، تعلوه صورة صاحب الجلالة **جورج الثالث** ، وتأوى اليها الزمرة ، فتقضى نهار الصيف فى الظل ، وتتحدث هنالك بفضول الغيبة القروية أو بلا شىء ، ولكن الاصغاء اليهم فى بعض ثرثرتهم متعة تساوى دراهم السياسى الاريب ، اذ يجيلون النظر فى صحيفة من الصحف القديمة ، يلتقطونها من مسافر عابر ، ويصغون سكوتا الى الاستاذ العلامة دريك **ڤان بومل** ، وهو يتنقل بين موضوعاتها، ولا تخيفه منها أضخم كلمة من كلمات المعجمات الغامضات ، ثم يتبادلون الرأى فى أصداء من الحوادث العامة مضت عليها بضعة شهور ..!

وكان المسيطر التام على آراء هذه النخبة شيخ القرية وصاحب خانها **نيقولا فيدار** ، وعلى بابه يقضى النهار من الصباح الى المساء ، لا يتحرك الا ريثما يتقى الشمس فى ظل شجرة كبيرة ، يستطيع من يراه على مقعده وراءها أن يعرف الساعة كما يعرفها من علامة المزولة ! .. نعم انه كان كثير الصمت ، كثير التدخين ، قلما تنفرج شفتاه ، الا أن مريديه - ولكل عظيم مريدون - كانوا قد عرفوه وعرفوا كيف يستشفون رأيه من ملامح وجهه ، فاذا سمع كلاما لا يعجبه فآية ذلك أن ينفخ الدخان نفخة الغضب والاستياء ! أما اذا وافق الكلام هواه ، فآية ذلك أن يطيل النفس ثم يرسله سحبا هينة خفيفة ، أو ينحى البيبة عن فمه ، ويطلق منه الدخان المتموج ليهز رأسه هزة التأمين والاستحسان !

وحتى هذا المعقل الامين قد طورد فيه **ريب ڤان ونكل** آخر الامر ، ولاحقته عنده زوجته اللجوج ، حيث كانت تفاجىء الجمع بصيحاتها ، وتصف كل عضو من أعضائه بصفاته عندها، فلا يعتصم منها حتى تلك الشخصية الموقرة ، شخصية **نيقولا فيدار** ، ولا يأمن أن يسمع من ذلك اللسان الصاخب تهمة التحريض على البطالة يغرى بها قرينها المسكين ..!

وران اليأس بعد طول الصبر على المسكين **ريب** ، ولم يكن له منجى من هذه المطاردة ومن متاعب الحقل ، الا أن يحمل بندقيته ويأبق الى الغابات ، ويستريح الى جذر شجرة ، يشاطره فى ملجئه منها كلبه وولف الامين ، وهو قسيمه أيضا فى البلاء والاضطهاد !

وربما التفت الى **وولف** حينا بعد حين ، يناجيه بكلمات العزاء والمواساة :

« آه يا **وولف** العزيز . ان سيدتك تسومك سوم الكلاب . فلا تأس ولا تحزن . انك لن تعدم مادمت بقيد الحياة **صديقا** يقف الى جانبك ويواسيك ! »

ويقابل **وولف** هذا العزاء ناظرا الى وجه مولاه مبصبصا بذنبه ، وما من شك أنه كان يجاوبه من أعماق قلبه ، ويفصح له عن كامل عطفه ، لو يقدر كلب أعجم على الافصاح !

وفى احدى هذه الرحلات ، يوما من أيام الخريف ، صعد **ريب** على غير قصد منه الى قمة من أعلى قمم التلال ، يتشاغل بملهاته المحببة — صيد السنجاب — ويستمتع بالسكينة حيث تتجاوب أصداء بندقيته كرة بعد كرة ، ثم ألقى بنفسه وقد أجهده التعب عند الاصيل على ربوة خضراء ، تجللها الاعشاب الجبلية على حافة الهاوية ، ولاحت له من فرجة الغصون **غابات** الوادى التى تمتد تحته ميلا بعد ميل ، وعلى مد البصر منظر **النهر** الفخم فى مجراه الصامت تنعكس عليه سحابة حمراء أو شراع زورق يتهادى هنا وهناك ، ثم يتوارى فى زرقة القلال . والى الجانب الآخر وهدة عميقة فى عزلة موحشة يمتلىء قاعها بفتات الهضاب المطلة عليها ، وقلما يبلغ اليها شعاع الشمس الغاربة ..

وراح **ريب** يسرح البصر فى هذه المشاهد هنيهة ، والليل يقبل بأكنافه ، والظلال تتطاول من حوله ، فبدا له أن الظلام ملق سدوله ولا شك قبل أن ينتهى الى القرية ، لو أنه أزمع الهبوط اليها ، وتنهد طويلا حين جال بخاطره ماسيلقاه من أهوال السيدة **فان ونكل** وزماجر غضبها ! ..

وانه ليهم بالنزول فاذا **بهاتف** يصيح به : **ريب ڤان ونكل** . . ريب ڤان ونكل . . ويلتفت فلايرى أحدا هنالك ، **اللهم الا** غرابا على جناحيه خلال التلال ، فيخيل اليه أن سمعه قد خدعه، ويستدير لينحدر فيعاوده الصوت : ريب **ڤان ونكل** . . . ريب ڤان ونكل ، كما سمعه أول مرة . . واذا **بوولف** يقوس ظهره ويعوى عواء عاليا، ويزحف الى جانب مولاه ، وفى عينيه نظرات الخوف ، وهو يطل على الوهدة ، فيخامر الخوف جوانح ريب ، وينظر حيث رأى كلبه يطيل النظر ، فيلمح **ثمة انسانا** يدلف مصعدا فى الجبل بين تلك التلال المهجورة ، وعلى ظهره حمل ينوء به ويثقله . . فأدهشه أن يلقى أحدا هناك ، وخطر له لعله أن يكون جارا من جيرانه فى حاجة الى العون ، فأسرع منحدرا اليه . .

وتضاعفت دهشته حين اقترب منه لغرابة مرآه ، اذ كان قصيرا ، ممتلئا ، مربع القامة ، كث اللحية ، يلبس ملابس أهل هولندة ، وحول حقويه صدار يستدير عليهما فوق سراويله القصار التى ترصعها الازرار على الجنبين وفوق الركبتين ، وكان يحمل على كتفه برميلا يبدو عليه أنه مترع بالشراب ، ويومىء الى **ريب** ملتمسا منه المساعدة .

فبادر **ريب** الى نجدته كعادته، وان ساورته خاطرة من الاستغراب والتهيب ، وتعاونا معا على الصعود بالحمل الى مثعبة جفت فى طريق السيل ،وكان ريب يسمع كلما ارتقيا مصعدين قصفا كقصف الرعود البعيدة ، يخيل اليه أنه آت من بعض الشقوق بين الجبال حيث يتجهان ، فتمهل قليلا ، ثم خطر له أنها قد تكون نوبة من نوبات الرعود المعهودة فى تلك الذرى . فتقدم ، وطفق يتقدم هو وصاحبه ، حتى أفضيا الى فجوة كالمدرج تحيط بها مزالق الوهاد ، وتعلوها الاشجار التى تشابكت فروعها ، فلا تبدو من خلالها غير رقعة هنا ورقعة هناك ، من قبة السماء الزرقاء وسحائب المساء اللامعة . . . وكان **ريب** وصاحبه يرزحان بحملهما صامتين ، لانه ــ وان عجب لهذا الحمل يصعد به صاحبه الى تلك الذروة ــ كان يحس حول

الرجل الغريب شيئا من الغموض يحول دون الالفة ورفع التكليف بينهما ..!

واعتراه طارق جديد من الغرابة حين انتهيا الى الفجوة المدرجة ، اذ نظر ثمة فلمح طائفة من الشخوص الغريبة تلعب لعبة الاوتاد التسعة ، وعليهم تلك الاكسية العجيبة من السراويل والصدائر قد تعلقت من نطاقها الخناجر ، وفى لباسهم مشابهة لملابس دليله ، وعلى سماتهم عجب عجاب . اذ كان فيهم الضخم الدماغ العريض الوجه ، الذى تحكى عيناه أعين الخنازير ، ومنهم من يبدو عليه كأنما ركب وجهه من أنف ولا شيء ، وعلى رؤوسهم قلانس يتدلى الريش فوق أقفيتها ، وكلهم من ذوى اللحى التى اختلفت ألوانها وأشكالها ، يرأسهم واحد منهم قصير القامة فى لون بشرته سفعة من تقلب الاجواء ، وعلى صدره عنترى مطرز الحوافى ، وفوق رأسه قبعة يعلوها الريش ، وفى قدميه حذاء مرتفع الكعبين تزينه وردتان .. ومنظرهم جميعا يخيل الى **ريب** أنه ينظر الى **الصورة الفلمنكية** التى كان يراها فى حجرة **القس قان شيك** معلقة هناك منذ أيام الهجرة الاولى ..!

والذى أدهش **ريب** بصفة خاصة أن هؤلاء السادة كانوا فى تسليتهم ولعبهم يتشحون بوشاح الرهبة والوقار ، ويلتزمون الصمت الخفى ، ويلوحون للعين كأغرب ما وقعت عليه من محفل أناس يلعبون ويتلهون ، ولا يتخلل صمتهم غير ما كان يسمعه حين يلقون بكراتهم من دوى كدوى الرعود ..!

فلما اقترب منهم **ريب** وصاحبه ، أمسكوا عن اللعب ، ونظروا اليهما فأطالوا النظر ، كأنهم التماثيل الجوامد ، وتراءت على ملامحهم صرامة أفزعته ، فسقط قلبه ، واختلجت ركبتاه ، وعمد **صاحبه** الى البرميل فأفرغه فى بواط واسعة ، وأومأ اليه أن يدور بها على **الرفاق** ، فلبى الامر وهو يرتجف من الرعب . ورآهم يجرعون الشراب فى صمت عميق ثم يعودون الى اللعب ..

وسكن روعه رويدا رويدا ،وبلغ من طمأنينته أنه اجترأ على ذلك الشراب يتذوق منـــه ، فاستعذب مذاقه كأطيب ماتكون الاشربة الهولندية . وكان من دأبه اللهفة على الشراب حيث وجده ، فعـــاود الكرة وأغرته لحسة بلحســـة ، وأكثر من معاودة البواطى لحظة بعد لحظة حتى غام حسه ، وغامت عيناه ، ومال رأسه ، واستغرق فى نوم عميق !

فلما تنبه ألفى نفســـه على الربوة الخضراء حيث التـقى بصاحبه ، ومسح عينيه ونظر ، فاذا الصـــباح مشرق وضىء ، واذا الطـــير تقفز وتغـرد بين الغصون ، والنسر محلق باسط جناحيه يستقبل النسيم صافيا على قنن الجبال . وهجس فى نفسه :

أترانى قضيت الليل كله هاهنا ؟ ثم راح يستعيد ماحـدث قبل استغراقه فى النوم ، ويذكر ذلك الرجل **الغريب** صـــاحب برميل الشراب ، وفجوة المدرج ، وتلك الرفقة العبوس اللاهيـــة بلعبة الدبوس ، وتلك الباطيـــة الخبيثة . يالها من باطية خبيثة حقا ! فــكيف يكون اعتــذاره **للسيدة ڤان ونكل** ياترى ؟

والتفت الى جانبه ينظر بندقيته ، فلم يجد فى موضعها غير هنة رثة أكل الصدأ حديدها ، فخطر له أن تلك الرفقة العبوس قد عبثت به وأسكرته لتختلس منه بندقيته . واختفى **وولف** أيضا .. فهل تراه انطلق وراء حجلة او سنجابة ؟ انه ليصفر له ويناديه ولا من سميع . انما يجيبه الصدى بمثل صـــفيره ونداثه ، ولا كلب هناك .

واعتزم أن يعود الى مـــكان **الرفقة** يسألهم حيث وجـدهم عن كلبه وبندقيته ، فما هو الآن هم بالحـــركة حتى أحس فى مفاصله بيبوسة ، وعجـــز عن الحركة على غير عهـــده بنشاطه ! فقال لنفســـه : ان هـــذه المراقد الجبليـــة لاتوافقنى ، وياله من وقت ممتع أقضـــيه بين يدى **الســـيدة ڤان ونكل** لو لزمت الدار بداء المفاصل والعياذ بالله !

لقد وصل الى الوهدة بمشقة ، ورأى الهضبة التى ارتقـــاها مع صاحبه ، ولكنه لفرط دهشـــته وجد عندها جدولا يتـــدفق من

صخرة الى صخرة ، ويملأ الجبل بأصداء خريره ، فعالج أن يتخطاه ، وسلك طريقه فى جهد ومشقة بين ألفاف الشجر وهى تعترضه كالشباك فى الطريق ، وبلغ آخر الامر الى حيث الفجوة المدرجة ، ولكنه لم يجد هناك ثغرتها التى كان يذكرها ، ووجد الصخر قائما أمامه كالسد المنيع يهوى عليه الماء ، كأنه الدخان مندفعا الى حوض غائر قد اسود فى ظلال الغاب التى احاطت بجهاته .. واضطر ريب المسكين أن يقف فى ذلك الموضع ، فعاود الصفير والنداء على كلبه ، ولم يستمع من جواب غير النعيب من سرب غربان تحوم كسلى من فوق شجرة يابسة على الهاوية وتنظر دونها آمنة فى فضائها ، كأنما تسخر من ذلك الآدمى المسكين فى حيرته ..!

ماذا تراه يصنع ؟ ان الصباح يمضى وهو يتضور جوعا ، وتلعجه لوعة الحزن على كلبه وبندقيته ، ويكربه لقاء زوجته المنتظر ، ولكنه لا يقدر على البقاء حيث يهلك جوعا فى مكانه ، فهز رأسه وحمل بقايا بندقيته وتحول وهو مثقل الفؤاد بالغم والقلق الى ناحية داره ..

راح يقترب من القرية ، فيلقى عندها طوائف من الناس لا يعرف منهم أحدا ، ويدهشه أن ينكرهم جميعا ، وهو يحسب أنه على معرفة تامة بكل فرد فى أفراد المكان وما حوله ، ويلاحظ أن ملابسهم تخالف الزى الذى يعلمه ، وانهم ينظرون اليه بدهشة كدهشته ، ويتأملونه طويلا ثم يحكون ذقونهم . فلما مد يمينه يصنع مثل صنيعهم ، اذا بلحيته قد طالت نحو قبضتين أو تزيد !

وكان قد دنا من ظاهر القرية ، فلحقت به زمرة من الصغار تهلل فى أعقابه وتشير الى لحيته البيضاء ، ونبحته الكلاب التى لم يكن كلب منها ينبحه من قبل ، فنظر اليها فلم يعرف أحدا منها . وتبدلت القرية كلها ، فهى أكبر وأحفل بسكانها ، ولا أثر فيها لمزاراته التى كان يألفها ، وعلى الابواب أسماء غريبة ، وفى النوافذ وجوه غريبة ، وكل شىء يراه غريب غريب !!

خانه عقله ، وداخلته الشكوك ، ولاح له أنه يمشى مسحورا فى عالم مسحور ! فلا ريب أنها قريته التى فارقها بالامس ،

وهذه جبال كاتسكل ، مافى ذلك ريب ، وهنالك نهر **الهدسون** المفضض على مسافته حيث كان، وهنالك كل هضبة ووهدة حيث كانت من قديم .. : فيالشراب الخبيث .. انه قد بلبل رأسى أيما بلبال !!

ولم يعرف طريق بيته الا بعد لأى .. فجعل يمشى اليه متهيبا متوجسا ، يترقب فى كل لحظة أن يسمع صيحة امرأته مجلجلة فى أذنيه . فاذا **بالدار** قد تداعت، والسقف قد تهدم ، والنوافذ قد تهشمت ، والابواب قد تفككت من مفاصلها ، ولديها كلب يحوم حولها يوشك أن يهلك من هزال الجوع ، كأنه صاحبه **وولف** .. فناداه باسمه فكشر له عن أنيابه .. ياله من جحود .. : **كلبى** ينسانى فيمابين ليلة ونهار ؟!

ودخل **المنزل** . ولا نكران أن **السيدة فان ونكل** تدأب على تنظيمه وتنظيفه . فوجده خلاء خواء ، يلوح عليه أنه مهجور ومتروك . وغلبت وحشته على خوفه ، فنادى زوجته وأطفاله، فرن صوته هنيهة فى الحجرات الخالية ، ثم ران عليها السكوت!

وهرول الى **الخان** مزاره المعهود . ولكنه ذهب .. أما المكان فقد قام فيه ، فى موضع الخان ، بناء من خشب متخاذل، مفغور النوافذ ، مرقع الثغرات هنالك بالقبعات والسراويل ، وعلى بابه نقشة تقول : « فندق الاتحاد » لصاحبه **يوناتان ديلتل** .. وعاين بدلا من الشجرة الكبيرة التى تظل الخان عمودا فوقه شىء كالقلنسوة الحمراء عليه خطوط ونجوم : كل ماهنالك غريب غريب !!

وتعرف هنالك على صورة **الملك جورج** التى دخن تحتها كم من **بيبة** مشتهاة . ولكنها ـ حتى هذه الاخرى ـ قد تبدلت، وحلت فى محل الكسوة الحمراء أخرى زرقاء ، وسيف فى اليمين بدل الصولجان ، وقبعة فى مكان التاج ، وتحت ذلك كله حروف تقول : « **جنرال واشنطون** » ! وكان على الباب زحام ، لكنه غير الزحام الذى ألفه **ريب** .. تغيرت منهم حتى حركاتهم وخلائقهم وعاداتهم ، فحلت الجلبة محل السكينة التى تعودها فى زمرة **الحكيم نقولا فدار** .

وتطلع مليا عسى أن يرى الحكيم نقولا قدار بوجهه العريض ، وذقنه المزدوجة ، وبيبته الطويلة المليحة تلفظ الدخان بدلا من سقط الكلام . ولكن على غير جدوى ، أو عسى أن يرى الاستاذ **قان بوميل** ينثر ما احتوته احدى الصحف القديمة .. ، أو سائر تلك الرفقة ، ولا من حس لهم أو خبر ، وانما يشغل مكانهم **مخلوق نحيل صفراوى ،** مفعم الجيوب بالاعلانات ، يهدر بما يسميه حقوق المواطنين ، والانتخابات ، وأعضاء المؤتمر ، والحرية ، وتل بنكر ، وأبطال سنة ست وسبعين ، وما شابه ذلك من رطانة كأنها أخلاط **برج بابل** فى سمع **قان ونكل** الحائر المشدوه ..!

ولم يلبث مطلع **ريب** ، بلحيته الطويلة البيضاء ، وبندقيته الصدئة ، وملابسه المشعثة ، وفى ذيله جيش من النسوة والصبية ، أن لفت أنظار ساسة الخان اليه ، فتكوفوا حوله يرمقونه من رأسه الى قدمه مستطلعين ، وأسرع اليه الخطيب فانتحى به جانبا يسأله : فى أى جانب **ينتخب** ؟ .. فحملق **ريب** وأتأر النظر اليه فى غير فهم وبغير معنى ! وجاءه شخص آخر قصير ملهوج ، فجذبه من ذراعه وسأله : آتحادى أنت أم ديمقراطى ، فذهل ريب ، ماذا يعنى هذا السائل ؟ .. وانه لفى ذهوله لما يفق ، اذا بشخص بادى الخطر ، مزهو السمات ، تنحرف قبعته المستقرة على رأسه ، يدفع الجمع يمنة ويسرة ، ويثنى احدى ذراعيه على خاصرته ، ويستند بالاخرى الى عصاه ، وينظر اليه نظرة نافذة فاحصة عن دخيلة ضميره ، ثم يسأله فى جد وصرامة : كيف سولت له نفسه أن يحضر الى **مجتمع الانتخاب** مسلحا ببندقيته قائدا وراءه ذلك الجيش من النسوة والصبية ؟ أتراه ينوى أن يثير الشغب فى القرية ؟ ..

قال **ريب** : معذرة ياحضرة **السيد** .. اننى رجل هادىء فقير من أبناء الوطن ، ومن رعايا **الملك** الموالين **لجلالته** .. حفظه الله وأسبغ بركاته عليه ..

فانفجرت من الجمع صرخة عاتية وهتفوا به : **محافظ** .. محافظ .. **جاسوس** .. هارب .. أطردوه .. أقذفوا به الى بعيد ..

ولأيا ماإستطاع **الرجل** المزهوالخطير أن يعيد السكينة الى المكان ! واتخذ وجهه من سمات الجد والصرامة عشرة أضعاف ما كان عليه ، وعاد يسأل **المتهم** :ماباله قد حضر الى ذلك المكان، وعمن يبحث فيه ؟ فأكد له المسكين انه لا يضمر شرا ، وانه لم يقصد الا السؤال عن بعض جيرانه من أصحاب الخان ..

قال **الرجل** المزهو الخطير :حسنا . من هم ؟ أخبرنا عن أسمائهم ؟

ففكر **ريب** لحظة ، ثم قال متسائلا : أين **نقولا قدار** ؟ وأتبع سؤاله صمت وجيز ،وارتفع صوت كصفير الغاب من قبل شيخ كبير مرددا ماسمع :**نقولا قدار** ! .. انه مات منذ ثماني عشرة سنة ، وهنالك فى مقبرة **الكنيسة** شاهد على قبره ينبىء عنه ، ولكنه كذلك قد فنى منذ حين ..

قال **ريب** : وأين **بروم** الهولندى ؟

فأجيب : انه ذهب الى الحرب عند نشوبها ، وقيل انه مات فى الهجمة على «**أستونى بونيت**» .. وقيل غير ذلك انه غرق بجوار **انتونى نوز** .. ولا ندرى فانه لم يعد قط منذ رحل عن هذا المكان !

قال **ريب** : وأين الاستاذ **قان بوميل** ؟

فأجيب : انه ذهب أيضا الى الحرب ، وأصبح من قادتها الكبار ، وهو الآن فى المؤتمر « **الكونجرس** » ..

وانقبض قلب **ريب** وهو يستمع الى أنباء هذه الغير والاحداث فى **موطنه** وبين أصحابه ، وبدا له أنه فى الدنيا غريب منفرد يحيره الجواب عن كل سؤال ، كما يحيره التحدث عن تلك الفترات من الزمن ،وتلك الكلمات التى لا يفقه لها معنى : **الحرب . المؤتمر .استونى بونيت** .. فلم يلق فى نفسه الجرأة على المزيد من الاسئلة ، وصاح يائسا : أليس فى هذا المكان أحد يعرف **ريب قان ونكل** ؟

فأجابه اثنان أو ثلاثة : **ريب قان ونكل** ؟ .. آه .. انه هناك مستند الى تلك الشجرة ..

فالتفت **ريب** فلمح نسـخة أخرى منه كما كان يوم أصعدفى الجبل .. ورآه مثله فى أسماله، وفيما يبدو عليه من الكسل .. فتمت دهشة المسكين ، وشك فى ذاته ، ولم يدر أهو هـو أم ذاك انسان سواه فى جلده !.

وانه لفى هذا البحران ، اذ سأله الرجل المزهو الخطير : من عسى أن تكون ؟ وما اسمك ؟

قال : يعـلم **الله** اننى لست « **أنا** » .. ! اننى كائن آخر .! فهذا أنا هنـاك .. ! كلا ! بل ذلك انسان آخر دخل فى حذائى !

.. وقد كنت **أنا** بعينى ليـلة أمس ، ثم أخذتنى سـنة فوق **الجبل** ، فغيروا **بندقيتى** ، وتغير كل شيء .. وتغيرت أنا .. ولا أحسبنى أعرف ما اسـمى ولامن أكون ..!!

وتبـادل الواقفون النظرات والغمـزات والاشـارات ذات المغزى ، وراحوا يضربون جباههم بأصابعهم ، ويفكرون فى انتزاع البندقية من الرجل ، والاحتماء من أذاه ان أراد شرا .. وتراجع **الرجل** المزهو الخطير على عجل، وتقدمت فى تلك اللحظة الحرجة **امرأة أنيقة** تتأمل الرجل الاشيب، وكان على ذراعها طفل سمين راعه منظره فانطلق يبكى ... فصاحت به : صه . صه **ياريب** لا تكن أحمق ، فان الرجـل الاشيب لن يمسك بأذى ..

وأعاد اسم الطفل وهيئـة المرأة ونبرة صوتها طائفـة من الذكريات الى ذهنه ، فسألها :

ــ ما اسمك أيتها المرأة المباركة ؟

قالت : اسمى **چـوديت جاردنير**

قال : واسم أبيك ؟

قالت : آه . ياللمسكين .. كان اسمـه ريب **فان ونكل** ! .. ولكنه منذ عشرين سـنة ترك البيت **ببندقيته** ولم يسمع عنه خبر .. وعاد **كلبه** وحيدا .. ولكننا لانعلم هل بخع نفسـه أو اختطفه الهنود ؟ .. وانما كنت طفلة صغيرة يومذاك ..

لم يبق على لسـان **ريب** غير سؤال واحد سـأله وهـو مرتجف ، فقال : وأين **أمك** ؟

فتنهدت وقالت : انهـا ماتت بعده بقليل ، وكانت تساوم بائعا

متجولا من « **نيوانجلاند** » فأخذتها سورة غضب وانفجر لها شريان فقضى عليها ...

خبر فيه أخيرا شيء من الراحة، فلم يطق الرجل أن يملك نفسه، بل راح يعانق بنتـــه وطفلها ،وبقول لها . أنا أبـوك .. **أنا** الفتى **ريب** بالامس ، وأنا **الشيخ ريب** اليوم .. أليس هاهنا من يعرف **ريب فان ونكل** المسكين ؟!

فوجموا جميعا ، ودرجت اليه **عجوز** من الزحام ، فرفعت كفهـا الى جبينها ، ونظرت اليه من تحتها هنيهة ، ثم صاحت :

ـ هو هو لاريب بعينه .مرحبا بك فى جوارك عائدا اليه بعد حين، أيها الجار الكريم . أين كنت طوال هذه السنين العشرين ؟

وعرفت قصة **ريب** على الاثر، فما كانت السنون العشرون لديه الا كليلة واحدة ، وفتح الجيران حماليقهم حين سمعوها ، وجعـل بعضهم يغمز لبعض ، ويديرون ألسنتهم فى أشداقهم. **أما الرجل** الخطير المزهو الذى عاد الى المكان عقب هدوء الحال وانفثاء الروع، فقد زم فاه وهز رأسه ، وتبعه الجمع فهزوا رؤوسهم مقتدين به.

وعولوا بعد عـلى الرجوع الى **بيتر فاندردونك** الذى شوهد تلك الساعة مصعدا فى الشارع ،وكان سليل المؤرخ المعروف بهذا الاسم، وأقدم سكان القرية ، وله المام واف بعجائبها ونوادر أنبائهـا ..
عرف ريب لساعته ،فأول لهم قصته على أحسن الوجوه ، مؤكدا **لهـم** بالرواية عن سلف المؤرخ أن جبال **كاتسكل** كانت على الدوام مزار الغريب من الاطياف والاشباح ،وان **هنريك هدسون** العظيم أول من كشف النهر الذى سمى باسمه كان يغبها للحراســة كل عشرين سنة مع النواتية من ســفينة الهلال، فتهيأت له الفرصة لغشيان ميدان مساعيه الاولى ، وتعهــد **النهر** الكبير برعايته ، وان والده قد بصر بتلك الاطياف فى أكسيتهم الهولندية ، يلعبون لعبتهــم الى جانب فجوة الجبل،وانه هو نفسه قد سمع دوى كراتهم وهى كالرعد المجلجل من بعيد ..

والخلاصة الوجيزة أن **الجمع** قد انفض وعاد الى ماهو أجـد وأجدى من شـواغل الانتخاب ،وأخذت **بنت ريب** أباها ليعيش معها فى كنهـا الانيق حيث تقيم وزوجها الفلاح المرح القوى ،وقد

تذكره **ريب** اذ كان واحـــدا من أولئك الاطفال الذين عودهم أن يتسنموا ظهره . أما وريثه وابنه الذى شوهد مستندا الى الشجرة وكان نسـخة منه ، فقـد كلفوه العمل فى المزرعة ، فجرى على دأب أبيه وطفق يولى عنايته كل شيء الا عمله ...

وقد عاد ريب الى جولاته وعاداته ، ولم يلبث أن عثر بطائفة من صحابته الاقدمين ، الا انهم قد أبلاهم الزمن وجارت عليهم السن ، فآثر صحبة الجيل الناشيء على صحبتهم ، ولم ينقض غير قليل حتى ظفر بالحظوة بين أبناء هذا الجيل الجديد

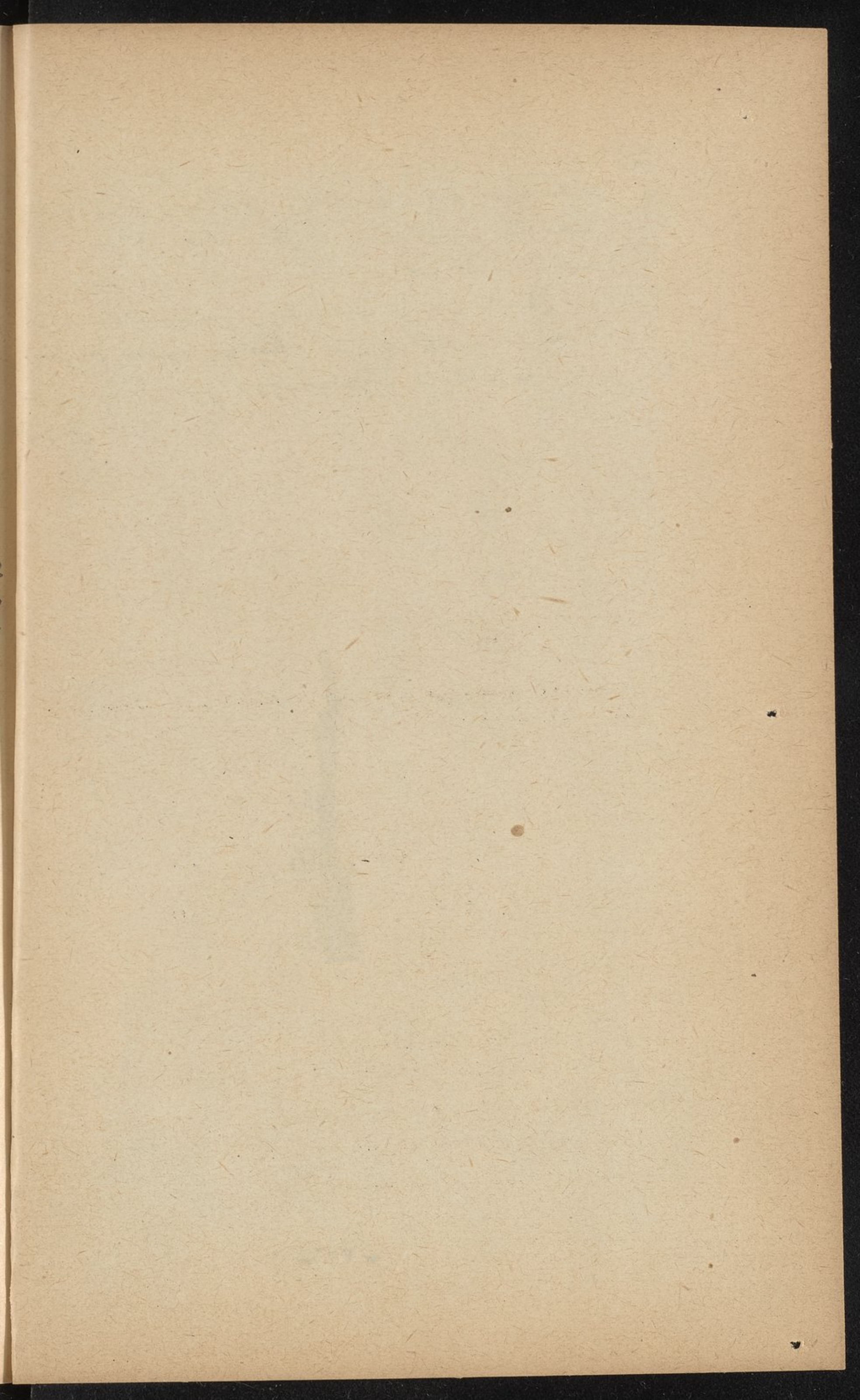
ولما كان خلوا من الشواغل فى البيت ، وكان قد بلغ السن التى تبيح لصاحبها أن يركن الى الكسل غير ملوم ، فقد اتخذ مكانه مرة أخرى الى جوار **الخان** ، وأحيط هنالك بالتوقير والاجلال على اعتباره شيخا من شيوخ القرية الاجلاء ، وسجلا لاخبارها قبل أيام الحرب ، وظل برهة ريثما اســـتطاع أن يتابع الاحاديث عن تلك الوقائع التى غبرت فى سنوات رقاده !! فعلم كيف ثارت البلاد على انجلترا وخلعت نيرها ، وكيف أنه أصبح **مواطنا حـــرا** من أبناء الولايات المتحدة ، ولم يعد رعية خاضعـا لصاحب الجلالة **جورج الثالث** ..

وواقع الامر أن **ريب** لم يكن من أهل **السـياسة** ، ولـم يـكن تبدل الدول والعروش مما يعنيه ، وانما كان هنالك **سلطان** مطلق ظل يشكوه ويئن من طغيانه عليه ، وذلك هو سلطان **المرأة** ، ولكنه قد نجا منه بحمد الله وخلص عنقه من نير الحياة الزوجية ، وأصبح قادرا على الطواف حيث شاء ، غير متهيب لسطوة **السيدة فان ونكل!** على أنه كان اذا سمع اسمها حرك رأسه ، وهز كتفيـه ، وأرخى بصره ، ولا يدرى من يراه : أذاك منه علامة استسلام لقدره أو علامة اغتباط بخلاصه ؟

وراح يروى قصته لكل طارىء على خان مستر « **دولتل** » ... ولوحظ عليه انه يتصرف فى سرد بعض الاخبار كل مرة ، لعله كان متأثرا بقرب عهده بالسبات ، ثم صقلها أخيرا على صيغة واحدة هى هذه الصيغة التى نرويها ، فلم يبق رجل أو امرأة أو طفل فى

الجيرة الا وقد حفظها واستظهرها،، وكان منهم من يبدى شكوكه فيها ويحسب أن **ريب** مخامر فى عقله ، وان هذه القصة احدى فلتاته . . ! الا أن السكان الهولنديين الاقدمين، كانوا مجمعين على تصديقها والثقة بصحتها ،ولم يزالوا حتى اليوم كلما سمعوا قصف الرعود أصيل يوم من أيام الصيف على جبال **كاتسكل** قالوا: ذاك **هنريك هدسون ونواتيته** ،يلعبون لعبة الاوتاد التسعة ... ويتمنى منهم كل مبتلى **بزوجة سليطة** لو تتاح له جرعة من باطية **فان ونكل .. !**





ادجار ألان پو

١٨٠٩ ـ ١٨٤٩

شاعر . ناقد . قاص .

يتفق **النقاد** على ملكاته الشعرية والنقدية والقصصية ، ولكنهم يختلفون فى ترتيب نصيبه منها، فيحسبه بعضهم شاعرا قبل كل شىء ، ويحسبه الآخرون ناقداقبل كل شىء ، والاكثرون على أنه أستاذ فى القصة الصغيرة ، وان أثره فيهاأكبر الآثار، والمعترفون له بهذه المزية معظمهم من الفرنسيين ذوى الشهرة العالمية .

ترجم **بودلير** نثره وسماه الرائد الاول فى القارة الاوربية . وترجم **مالرميه** شعره ونشر آراءه ومقاييسه فى صناعة النقد وفى الادب عامة ، وقال **فاليرى** عنه انه « **خلاق صور** » وعدد من الصور الادبية التى خلقها :صورة القصة البوليسية ، وصورة القصة العلمية ، وصورة الشعر الكونى الحديث ، يعنى بذلك ملحمته التى نظمها بعنوان « **وجدتها** » .

ومن خصائص فنه حب الغريب أو حب **الاغراب** ، ومن ذلك ولعه **بالشرق** ، واختياره العناوين الاسلامية لقصائده ، كعنوان اسرافيل والاعراف ، ونظمه فى سيرة تيمور لنك، ولهجه بالصوفية الشرقية على الاجمال .

والى جانب الولع بالاغراب ،ولع **بالمزعجات والنوافر** ، والحاح على نوازع النقمة أو الانتقام ..ويلاحظ فى قصتيه المترجمتين هنا أن **النقمة** هى المحور المهم الذى تدوران عليه دون الاشارة الى الاساءة أو الترة التى أوجبتها، كأنها تعبر عن شعور ناقم بمعزل عن الحوادث والجرائر ، ويظن أن مرجع هذا الشعور فيه الى نشأته

المضطربة ، ومعيشته السيئة ،وعثرات الجد التى لازمته من طفولته ،وأضاف اليها هوجناياته على نفسه بالادمان والمقامرة وقلة الانتظام فى عمل من الاعمال !

كان مولده فى بوستون (١٩ يناير سنة ١٨٠٩) من أبوين ممثلين يعملان فى **فرقة جوالة**، وماتت أمه وهو فى الثانية ، ومات أبوه وهولم يبلغ الرابعة، **فتبناه** رجل عقيم على حظ من اليسار والطيبة ، يسمى **چون ألان** وباسمه تسمى بقية حياته .

وانتقل ألان — ومعه الطفل — الى **انجلترا** ، فأحسن تعليمه بالمدرسة الابتدائية ، ثم عاد الى **أمريكا** فأدخله مدرسة راقية فى رشموند ، ثم دخل جامعة فرچينيا وبلغ سن الفتوة ، فتجسمت الفوارق بين مزاجه الفنى الخيالى ومزاج ولى أمره العملى الواقعى . وزادالفجوة بينهما أن ولى أمره قرن حرمانه من تركته ، ورفض تسديد دينه فى القمار .. وبعد فترة من الجفاء والوفاق بينه وبين ولى أمره لحق بالجيش ، وتقدم فيه ، ثم تعمد سوء السلوك ليفصل منه ، فتقرر فصله ، وتزوج **قريبة** له فى نحو الرابعة عشرة ، فلم تعمر طويلا ، ورثاها بقصيدة من خيرة شعره .

وقد ظهرت له دواوين شعرية وقصص منظومة ومنثورة ، وهو فى نحو العشرين ، وعمل فى الصحافة ، فلم ينجح ، ولم تحسن العلاقة بينه وبين شركائه فيها ، ولكنه أحرز بعض الجوائز فى الصحف السيارة ، وشاعت له شهرة ملحوظة جاوزت حدود الاقليم .

وخليق بهذه الحياة القلقة أن تطوى النفس على النقمة والمرارة، ولكن الاحتراس واجب من أقوال مترجميه الذين جمعوا ترجمته من أوراقه ، وبخاصة ترجمة **ريونس جريسولد** الذى أفرط فى الانحاء عليه . وثبت من تعقيب الكاتب الانجليزى **انجرام** أنه افترى عليه فى مزاعم كثيرة تبين بطلانها بالدليل القاطع .

توفى ولم يكد يجاوز الاربعين، نزيلا بأحد المستشفيات ، فى السابع من شهر اكتوبر سنة ١٨٤٩ .

ومما لاخلاف عليه أنه رسم **للقصة الصغيرة** خطوطاً مميزة عرفت بها طريقته فى اللغة الانجليزية وسائر اللغات الغربية ، وامتاز

باستقلاله فى هذه الطريقة ، على وفرة اطلاعه ومحصوله من القراءة فى الآداب العالمية . ولاشك أنه استفاد من **دكنز وبروننج** ، كما استفاد من **هوفمان** الالمانى، ولكن صبغته فى كتابة القصة الصغيرة لاتلتبس بصبغة أخرى .

أما قصتاه المترجمتان هنا فهمامما نشر فى المجاميع المختارة . وقد نشرت قصة **باطية النبيذ** وهو فى الخامسة والثلاثين ، ونشرت قصة **الخطاب المفقود** قبل ذلك بسنة ، فهما من فنه الناضج الذى ارتضاه وفقا لشرطه فى القصة وفى الكتابة الادبية .

الخطاب المفقود

لادجار ألان پو

« ما من معرفة أهون من أن تعرف »

سنيكا

فى **باريس** ، غب مساء مظلم عاصف من خريف عام ـ ١٨ ، كنت أنا وصديقى س • **أوجست دوبان** ننعم براحة مزدوجة من التأمل والتدخين فى مكتبته الصغيرة ، أو صومعة كتبه ، على الدور الثالث من المنزل ٣٣ بحى سا چرمان • وقد خيم علينا الصمت زهاء ساعة ، وكان يخيل الناظر الينا أننا منصرفان بكل تفكيرنا الى سحائب الدخان التى تحلق فى أنحاء الحجرة . على أننى كنت أعمل التفكير فى مسألة خاصة كانت مدار أخذ ورد بينى وبين صديقى أول المساء : تلك هى الحادث الذى وقع فى شارع مورج ، وما احاط قضية مقتل **مارى روچيه** من الغموض •• وكان غالب الظن عندى ، أن هذا الحادث انما وقع عرضا •• فاننا لكذلك اذا بالباب قد فتح على مصراعيه دفعة واحدة ، ودخل منه صديقنا مسيو **ج ـ رئيس الشرطة** بباريس •• رحبنا بمقدمه كل الترحيب ، اذ كان فى الرجل من دواعى الترحيب بمقدار ما فيه من دواعى الازدراء •• وقد مضى على آخر عهدنا به سنوات •• كنا نجلس فى الظلام ، فهم **دوبان** ان يوقد المصباح ، ولكنه عاد فجلس مكانه حين ابتدره **ج ـ** بأنه انما قدم ليستشيرنا أو ليأخذ رأى صديقى على الاقل فى **مسألة** من أعمال الادارة جرت الى كثير من المتاعب !

قال **دوبان** وقد عدل عن ايقاد المصباح :

ـ اذا كان هناك أمر يحتاج الى اعمال الروية فيحسن أن نبحثه فى الظلماء .

قال رئيس الشرطة : وتلك احدى بدراتك ..

وكان يدعو كل شىء لايدركه بدوة او نزوة .. حتى عاش وهو محوط بعالم من البدوات والنزوات .

قال دوبان : هذا صحيح !

وقدم لصاحبه (بيبة(١)) ، ودفع اليه كرسيا ، وسألت :

ـ وما هى الصعوبة التى بقيت أمامكم الآن ؟ ان طريقة القتل كما أظن لم يبق فيها خفاء ؟ .

قال : كلا ! لا شىء من هذا . ان الامر حد بسيط .

ولم يخامرنى الشك فى أننا نستطيع أن نتدبره بأنفسنا بما يكفى ، ولكنى قلت :

ـ قد يكون دوبان يريد أن يسمع تفاصيل الموضوع ، لانها من الاسرار العجيبة فى بابها .

قال دوبان : انها بسيطة وعجيبة حقا !

والسبب الذى لاسبب غيره ، ومدار حيرتنا أن المسألة على مابها من البساطة قد حيرتنا جميعا ..

قال صديقى : ان بساطة الامر هى التى تقودك الى الخطأ .

وقال رئيس الشرطة وهو يغرق فى الضحك : ماهذا اللغو الذى تقوله لا ـ ياالله السموات ! من سمع فى حياته مثل هذا الرأى ! ..

ـ هذا امر بسيط لايحتاج الى برهان !!

وقهقه زائرنا من اعماق قلبه ، قال : ها ها ها . انك موشك أن تخنقنى بحذلقتك هذه !!

قلت : وعلى هذا ماهى جلية الامر ؟

---

(١) البيبة : هى القصبة التى تستخدم للتدخين ونحن نفضل تعريبها بلفظها

وأجاب **رئيس الشرطة** ، وهو يضحك ضحكة طويلة فى هدوء وتفكير بعد أن جلس على كرسيه:

ـ سأخبرك فى كلمات وجيزة، ولكن قبل أن أبدأ حديثى ينبغى أن أنبهكم الى احاطة كل مايقال بالكتمان ، ٠ ٠ ٠ ٠

ان وظيفتى لعلى خطر اذا اتضح أننى أفضيت بهذا الأمر الى انسان كائنا من كان !

قلت : اذن هات مالديك ؟

وقال **دوبان** : أولا تقول مالديك ؟

ـ اذن أقول : « اننى قد تلقيت أنباء خاصة من جهة عليا بأن وثيقة خطيرة الشأن قد اختلست من القصور الملكية ٠ والرجل الذى اختلسها معروف مافى ذلك شك، وقد شوهد وهو يأخذها ٠ ومعروف كذلك أنها لاتزال فى حوزته !

قال **دوبان** مسائلا : وكيف عرف ذلك ؟

أجاب **رئيس الشرطة** : لقد استبان ذلك بوضوح من مزية الوثيقة ، وانها لو خرجت من يد السارق لظهرت لذلك نتائج مقدرة ، أو استبان ذلك من استخدامه اياها فيما قصد اليه باختلاسها ٠

قلت : زدنا ايضاحا ؟

ـ اننى أستطيع أن أقرر أن تلك الوثيقة تخول حاملها نفوذا لدى جهة معينة ، للنفوذ عليها منافع جليلة ٠٠

وكان دأب صاحبنا أن يصطنع شيئا من اللباقة فى حديثه !

قال **دوبان** : اننى الى الآن لم أفهم حق الفهم ٠٠

ـ كلا ! ان افشاء أمر هذه الوثيقة الى شخص ثالث لسنا فى حل من ذكره يعرض للشبهات سمعة ذات سامية ٠ ومن شأن هذا أن يمكن حامل الوثيقة من السيطرة على الذات السامية التى يهدد سلامتها وشرفها ٠

وقلت مقاطعا : ولكن هذا النفوذ لابد أن يعتمد على شىء ٠ وهو أن يعرف سارق الوثيقة أن المسروق يعلم من هو ٠

قال ج ـ : ان اللص هو الوزير د ـ الذى يقدم على مايليق ومالا

يليق .. وقد كان فى طريقة اختلاسه نصيب من الجرأة لا يقل عن نصيبها من البراعة . **والوثيقة** التى نبحث عنها صراحة هى خطاب وصل الى (الذات) السامية . وهى وحدها فى الجناح الملكى ، وقد فوجئت اذ كانت تتصفحه بدخول من تود اخفاءه عنه ، وبعد أن حاولت عبثا فى عجلة وارتباك أن تلقى به فى الصوان ، اضطرت أن تضعه أمامها على المائدة . وكان العنوان ظاهرا عليه ، فلم يلتفت الى الخطاب لخفاء ما كان ينطوى فى داخله .. خلال ذلك دخل الوزير د - والتقطت عيناه الثاقبتان تلك الورقة نوا ، وأدركتا الخط المكتوب على عنوان الخطاب ، كما أدركتا ارتباك الذات الموجه اليها العنوان .. وبادر الوزير يؤدى بعض الاعمال وكأنه فى حالة طبيعية ، ثم أخرج خطابا مماثلا وفض غلافه ، واصطنع قراءته ، ووضعه محاذيا الآخر ، وأخذ يتحدث فى الشئون العامة هنيهة ، فلما أراد ان ينصرف التقط الخطاب من فوق المائدة دون اكتراث . وقد رأت صاحبة الخطاب ذلك ، ولم تستطع بالطبع ان تبدى أى اهتمام فى حضرة الشخص الثالث الذى ظل تحت مرفقها . وذهب الوزير ، وقد ترك خطابه الذى لاخطر له على المائدة !!

وهنا قال **دوبان** : وهذا ماتفهم منه كيف تتم السيطرة ، وهو علم المختلس بأن فاقد الخطاب يعرف من هو !

قال **رئيس الشرطة** : أجل . وان هذا النفوذ الذى اكتسب منذ بضعة شهور قد استغل استغلالا سياسيا غير مأمون . وكانت الذات المسروقة تزداد يقينا كل يوم بوجوب استخلاص ذلك الخطاب ، وليس ذلك بميسور علانية . ومن ثم ساقها اليأس الى مكاشفتى بالامر ...

قال **دوبان** ، وهو محاط بدوامة من الدخان : انك خير من يعتمد عليه فى مثل هذا الامر !

قال **رئيس الشرطة** : انك لتتملقنى ! ربما خطر على البال شىء من هذا القبيل ..

وقلت : من الواضح كما ترى ان الخطاب لايزال فى حوزة الوزير ، وهذا ما يخوله النفوذ ، وليس استخدام الخطاب . فاذا استخدم تقلص ذلك النفوذ بمجرد استخدامه !!

قال **ج** : أجـل . وقد سرت وأنا مقتنع بهذا الرأى ،وكان أول همى أن أبحث فى الفندق الذى يقيم فيـه **الوزير** . وكان موضع الحيرة فى هـــذا الشأن هو أن البحث لابد أن يحـــدث دون أن يصل الى علمه . ولقد حذرت من النتائج السيئة التى تقع اذا فتحنا أمامه ثغـرة للشـــك فى حسن قصدنا ...

قلت : ولكنك تسير على غرار غيرك فى مباحثك .. ان الشحنة الباريسية طالما سارت على هـذا الاسلوب .

ـ أجل . ومن أجـل هـذا لم أيأس . وقد ساعدنى ما اعتاده **الوزير** من التخلف طوال الليـل، وان خدمه الكثيرين ينامون على بعد من مخدعه ، وكثـــيرا مايدركهم النعاس وهم ثملون ، شأن أمثالهم من أبنـاء وطنهم . وان لدى كما تعلم مفاتيح لاعدد لها . وأستطيع معها أن أفتح أى حجرة أو مكان فى أنحاء باريس . ولقد سلخت فى البحث والتقصى ثلاثة أشهر ، لم تمض منها ليلة واحدة لم أقتف فيها أثره . وان اهتمامى الخاص بهـذا الامر يتعـــلق بكرامتى ، ويتصل بسر كبير لاأخفيه عنكم،وهو أن المـكافأة جزيلة . ولن أدع البحث حتى أومن يقينا بأنه أحصـــف منى وأدرى . وأننى لاحسبنى فتشت كل ركن يرد على الخاطر أنه يحتوى هـــذا الخطاب !

وأشرت **قائلا** : ان الخطـــاب ،ولاشـــك ، فى حوزة الوزير . ولكن **ألا** يكون قد أخفاه فى مكان غير مسكنه ؟

وهنـــا قال **دوبان** : ان ذلك غيـــر بعيد ، وليس مستغـــربا من خلائق مكره ودسائسه المعهودة ، فانه ليحرص على سهولة تقديم الخطاب حرصه على حيازته ...

قلت : لعلك تعـــنى احتمـــال الحصول عليه ؟

قال **دوبان** : أعنى احتمـــال البطش بحامله ، لانتزاعه ..

قلت : هـــذا صحيح . ومن الواضـــح أن الورقة ، لاتعدو أن تكون فى مسكنه . أما أن الوزير نفسه يحملها فاحتمال يجب أن نخرجه من حسابنا !!

قال **رئيس الشرطة** : لقـــد ترصدنا له مرتين ، وتربصنا كما يتربص قطـــاع الطرق . وقد فتشناه شخصيا، وكان تفتيشه

دقيقا ، وألحفنا غاية الالحاف في تقليب جيوبه وملابسه .

قال **دوبان** : لعلك تجشمت كل هذه المتاعب على غير جدوى!

ان **مكره** ليس بالهين الساذج ، كما أعتقد ، واذا كان الامر كذلك فلا بد ان يتوقع هذا كأنه أمر واقع لا محالة .

قال **ج** : انه لم يكن أحمق البتة ، لكنه شاعر .. وهذه مرحلة قريبة من الحماقة !

قال **دوبان** وقد تناول نفسا طويلا من (بيبته) : أجل وأنا نفسي قد شغلت زمنا بنظم مقطوعات متواضعة من الشعر !!

قلت : فكر في أن تقص علينا تفاصيل بحثك ...

— اننا في الواقع قد صرفنا وقتنا وبحثنا في كل منطقة ، وقد فتشت البناء حجرة حجرة ، وخصصت لكل حجرة أسبوعا كاملا .. بحثت أثاث كل شقة، وفتحت كل صوان . ولعلكم تعرفون كيف يتم ذلك على يد رجل **خبير** مثلي . ولقد يخطر على بال أحد أننا يتعذر علينا أن نفتح خزانة سرية ان من يخطر بباله مثل هذا الخاطر لا يفقه شيئا ، اذ الامر سهل ، ولدينا عدد كبير من المفاتيح لشتى الاماكن . ولنا طرق دقيقة في البحث حتى لا يعدونا جزء من خمسين مما يعرض علينا ، أو يفلت من أيدينا . وبعد أن أتممنا البحث في الخزائن تناولنا الكراسي والوسائد نتفحصها بالابرة الطويلة . التي رأيتموني أستعملها امامكم ورفعنا أغطية الموائد ...

— لماذا ؟

— ان من يريد أن يخفي شيئا قد يرفع أغطية الموائد وما شاكلها من الاثاث لبخفي تحتها ما يريد ، فتثقب رجل المائدة ويوضع الشيء الذي يراد اخفاؤه داخل الثقب ، ثم يوضع الجزء الاعلى فوقه .. ، وكذلك الشأن في أعمدة الاسرة .

قلت مسائلا : ألا يمكن أن تعرف الثقوب برنين الصوت ؟

— ان ذلك لا يمكن اذا حشي جوفها قطنا . وفي حالتنا هذه كان علينا أن نخرج كل شيء ولا نحدث صوتا .

ـ ولكنك لم تصل الى شيء ببحثك، فأنت لاتستطيع ان تمزق كل قطعة من الاثاث !

ـ كلا ، ولا شك . ولكننا عملنا خيرا من هذا . لقد فحصنا أرجل الكراسى التى بالفندق جميعها ، والقطع التى تتصل بها ، بمجهر قوى ، فاذا ظهرت لنا اشارات تدل على تغييرات حادثة ، لم نعجز عن ادراكها فى الحال . وأن مقدار ذرة مما يترك على الثقوب لتبدو فى حجم التفاحة ، أعنى أن أية نغرة غير طبيعية كافية لاكتشاف ماوراءها .

ـ أظنك بحثت وراء المرايا والالواح والاطباق ، وبحثت وراء الاسرة والحشايا وسائر البسط ؟

ـ بطبيعة الحال ، ولما انتهينا من فحص كل قطعة من الاثاث على هذا النحو ، فتشنا المنزل نفسه وقسمنا سقفه الى أجزاء ، ووضعنا له أرقاما حتى لا تعدونا واحدة منها ، ثم بحثنا قيد كل انملة فى سائر المساكن بالمجهر ، ومنها المنزلان الملاصقان كما قدمت .

قلت مسائلا : المنزلان الملاصقان ؟ لا بد أنك عانيت كثيرا فى بحثك ؟

ـ أجل عانينا ، ولكن الجزاء جزيل على هذا العناء .

ـ وهل اشتمل بحثك الارض التى حول المنازل ؟

ـ ان تلك الارض جميعها مرصوفة بالحجارة ، وقد كان العناء فيها أشد وأصعب . وتناول البحث كل ما حولها حتى الطحلب الذى يكمن بين الحجارة . ووجدنا أنها لم تمس ..

ـ وبطبيعة الحال فتشت أوراق **د ـ وسه**، ولكتب التى تحويها مكتبته ؟

ـ لا شك فى ذلك ، لقد بحثنا كل مجموعة وكل رسالة منها ، ولم نكتف بفحص كل كتاب ، بل قلبنا كل صفحة من كل جزء، ولم نقصر بحثنا على بعض الاجزاء كما يفعل بعض اناس من رجال الشرطة . وكذلك قسنا سمك كل غلاف من أغلفة الكتب بكل دقة ، وفحصنا كل ما فيها بالمجهر فحصا دقيقا ، ولم يكن

يعزب عن ملاحظتنا أثر المساس بغلاف منها أو كعب لو حصل شيء من ذلك ٠ وكان مما تناولناه خمسة كتب أو ستة كانت واردة حديثا من عند مجلد الكتب ، ففحصنا أطرافها بالابرة بعناية فائقة ٠

– هل بحثت وراء البلاط الذى تحت البسط ؟

– بلاشك ٠ لقد رفعنا كل بساط وفحصنا كل لوح بالمجهر ٠

– والاوراق الموضوعة على الجدران ؟

– أجل !

قلت : اذن لقد أخطأت فى بحثك ، وليس الخطاب فى المسكن كما تظن !

قال رئيس الشرطة : أخشى أن تكون على صواب فى قولك ٠ والآن بماذا تنصحنى ؟

– أن تبحث المساكن بحثا كاملا ٠

قال ج : هذا أمر لا حاجة اليه على الاطلاق ٠ اننى لا أثق بأننى حى أتنسم أنفاس الحياة قدر ثقتى بأن الخطاب لا وجود له بالفندق !!

قال دوبان : ليس لدى نصيحة خيرا مما قدمت ٠ ان لديك ولاشك وصفا دقيقا للخطاب !

قال : أجل !

وهنا أخرج رئيس الشرطة مفكرة ، وأخذ يقرأ بصوت مرتفع وصفا دقيقا للخطاب المفقود ، ومظهره الخارجى بصفة خاصة ، ثم انصرف عنا وهو مكتئب على نحو لم أعهده فى هذا الرجل البشوش من قبل !

وبعد شهر على التقريب من هذه الزيارة ، جاءنا مرة أخرى ، ووجدنا على مثل حالنا من قبل ، وأخذ بيديه كرسيا ، ودخل معنا فى حديث مألوف ٠

قلت : ولكن ماذا تم فى شأن الخطاب المسروق يا ج ـ أظنك اهتديت أخيرا الى أن الوزير لا يحمله .

ـ لعنة الله عليه .. لقد أعدت البحث كما أشار **دوبان** وعبثا كما توقعت !

وسأل **دوبان** : وما مقدار المكافأة المخصصة لهذا العمل ؟

ـ وكيف ؟ انها مكافأة جزيلة ، ولا أريد أن أذكر كم هى .
ولكن أمرا لا حرج من ذكره وهو أننى لا أبالى أن أسلم تحويلا من عندى بمبلغ ٥٠ ألف فرنك لمن يقدم هذا الخطاب . ان الامر تزداد أهميته يوما عن يوم ، وقد تضاعفت المكافأة أخيرا . ولو بلغت ثلاثة أضعافها فما أنا بقادر على غير مافعلت .

قال **دوبان** وهو ينفخ دخان بيبته :

ـ اننى أعتقد حقا أنك لم تبذل كل ما لديك من جهد ، وانك لفى وسعك أن تبذل مزيدا من جهدك .

ـ وكيف ذلك ؟ وبأى وسيلة؟

ـ كيف ذلك وبأى وسيلة ؟

اتخذ لك مستشارا !! أتذكر القصة التى يروونها عن **ابرنش**؟

ـ كلا ! لا كان هذا **الابرنش**!!

ـ نعم لا كان . ولكن كان ذات مرة أن رجلا بخيلا من الاثرياء أراد أن يستخلص رأيا طبيا من **ابرنش** . وأعد لهذا الغرض حديثا من الاحاديث المألوفة فى بعض مجالسه . وعرض حاله على **الطبيب** كأنه يروى قصة ويتخيلها .

قال **البخيل** : لنفرض أن الاعراض التى تنتابه كانت كذا وكذا . ماذا نصف لعلاجه ؟

قال **ابرنش** : يستشير طبيبا ولا شك !!

قال **رئيس الشرطة** فى شىء من الحيرة :

اننى لراغب كل الرغبة فى الاستشارة وأجزيها أوفى جزاء .
واننى لاعطى خمسين ألف فرنك لمن يساعدنى فى هذه المهمة ..

وأجاب **دوبان** وهـــو يفتح صوانا ويخرج منـه دفتره :

اذن يمكنك أن تكتب تحـــويلا بالمبلـغ الذى تشـــير اليـه ، وسأسلمك الخطاب على أثر توقيعك على التحويل ! !

وتملكنى العجب، أما **رئيس الشرطة** فقـد صعق تمـاما ، وظل صامتا لا يتحرك وهو ينظر الى صاحبى مستريبا .. وقد فغر فاه وحملق فيه بعينين كأنما تريدان أن تشبا من محاجرهما فلما تمالك نفسه قليلا أمســك بالقلم وتردد ، ثم كتب التحويل ووقعـه بخمســين ألف فرنك وناوله من فـوق المـائدة الى **دوبان** .. وتفحص الاخـير التحويل جيدا ، ثم وضعـه فى محفظته. وفتح خزانته وأخرج منها خطابا وأسلمه الى **رئيس الشرطة** ، فأخذه هذا يفحصه ..بسرور بالغ ، وفتحـــه ويداه ترتجفان.. ثم ألقى نظرة سريعة على فحواه ، وانســل الى الباب ، واندفع أخيرا من الحجرة ومن المنزل ، غير عابىء بما ينبغى من واجب التحيـــة والتوديع . ولم يفه بكلمة واحدة منذ طلب اليه **دوبان** أن يوقع التحويل .. واذ غادرنا أخذ دوبان يشرح لى بعض التفسيرات .

قال :

ــ ان رجال **الشحنة** الباريسـيين لهم براعتهم فيما يتبعون من الطرق والاساليب ، وان لهـم فطنة فى الملاحظة واحتيالا على معالجة الامور ، ولهـم العبقرية والبراعة التى يستلزمها هـذا العمل .

فلما شرح لنا ج ــ طريقته فى التنقيب وراء د ــ أيقنت تماما أنه استوفى البحث فى حـــدود ما يفهمه ويقدره .

قلت :

فى حدود ما يفهمه ويقدره ؟

قال دوبان :

ــ أجـل ان الاجراءات التى اتبعت لم تكن فذة فى نوعهـــا فحسب ، بل لقــد بلغت غاية الكمال . فاذا كان الخطـــاب مدسوسا فى الحيز الذى يجرى فيـــه تنقيبهم فانهم لاشـــك واجدوه .

وقابلت ذلك القول بالابتسام، الا أنه ظهر لى، أنه جاد فيما يقول ...

واستمر قائلا :

ـ اذن كانت الاجراءات قيمة فى بابها ، وقد عنى بتنفيذها أشد عناية . أما العيب فانما يأتى من اغفال طبيعة الرجل واغفال دخائل هذه الحالة بصفة خاصة .. أن التدابير التى يتبعها **رئيس الشرطة** تجرى مجراها المرسوم بغير اختلاف . وانما يعروه الخطأ لفرط تعمقه واستقصائه، مما يسلم منه تلميذ مبتدىء لا يلجأ فى تفكيره الى مثل هذا التعمق . وقد عرفت طفلا فى الثامنة من عمره نجح نجاحا أعجب الملأ فى لعبة « **الزوج والفرد** » ! وأنت تعلم أنها لعبة ساذجة تدور على أن يخفى اللاعب كرات صغيرة .. ويسأل الآخر : زوج أو فرد ؟ فاذا كان الحدس صحيحا فان صاحبه يربح ، واذا كان خطأ فانه يفقد واحدة . أما الصبى الذى نال اعجابى فقد ربح جميع الكرات من تلاميذ المدرسة قاطبة . ان هذا **الطفل** يبنى حدسه على مبدأ مقرر يرجع الى قوة الملاحظة ، وتقدير مالدى خصمه من الذكاء . فاذا كان نده مثلا غريرا أبله يرفع يده ويسأل : « زوج أو فرد » ؟ ويجيب صاحبنا التلميذ (فرد) ويخسر واحدة ولكنه يربح فى الدورة الثانية لانه يقول فى نفسه أن خصمه الغرير قد جعل العدد زوجا ، وكسب فى المرة الاولى، وحسبه من الحيلة على قدر ذكائه أن يجعل العدد فردا فى المرة التالية ، فيقول فى نفسه اذن أجيبه (بفرد) .. يقول ذلك ويربح . فاذا صادفه آخر أذكى من الاول وزن المسألة بهذا الميزان : ان هذا اللاعب سيجد اننى فى المرة الاولى أجبته بـ (فرد) ، فيقول فى نفسه متأثرا بالمرة الاولى : تغيير بسيط بين الزوج والفرد ، كما قدر الغرير الاول ، ولكن سيعاوده تفكير آخر وهو أن هذا التغيير جد ساذج ، وينتهى عزمه أخيرا الى جعلها «زوجا» كالمرة الاولى ، فيهجس فى نفسه أن يقول (زوج) ويقول ذلك ويربح . فهذه الطريقة التى يتبعها التلميذ يسميها رفقاؤه حظا على ما فيها من التحليل .. فهل هى كذلك ؟

قلت :

ـ انها ولا شـــك دليل على امتياز صاحب هذه التقديرات على زملائه !

ـ أجـل هى كذلك .. وقد سألت الصبى كيف استطاع أن يكشف أسرار هذه الشخصيات بهذه الطريقـــة التى أدت الى نجاحه ؟ فكان جوابه : انتى حينما أريد ان أزن مايحوى انسان من الذكاء أو الغباء ، أو الخـير أو الشر ، أو أعرف مايجول بخاطره فى اللحظة التى اختبره فيهـا ، أجعل تعابير وجهى مماثلة بقدر الامكان لما يرتسم على وجهه ، ثم أنتظر لارى مايجول بخلدى من الافكار والعواطف التى تتفق وتتجاوب مع هذه التعابير ! .

هـذا الجواب الذى ألقـاه التلميذ يكمن فى أعمـــاق ذلك الدهاء الذى أشتهر به « روشفـكول وبوچيف ومكيـــاڤيـلى وكابا نيللا » !

قلت :

ـ وهذه المحاولة من امرىء يريد أن يضع نفسه فى موضــع خصمه فى تسلسل تفكيره ، تتوقف ـ ان صح مافهمت منك ـ على صدق قياس التفكير عنـد ذلك الخصم .

وأجاب **دوبان :**

ـ انها تتوقف فى قيمتهـــا العملية على ذلك . وان رئيس الشرطة ورجاله كثيرا مايخفقون لانهم أول الامر يغفلون عن هذا القياس ، ويفرضون أن الناس جميعا على غرارهم ، وأنهـــم يحتالون على مثال حيلتهم .. انهم فى ذلك على كثير من الحق ، فان ذكاءهم يصف لهـــم ذكاء العامة وصفا صـــادقا .. ولكنهم اذا اختلف تفـكير **المجـــرم** وتفكيرهم .. أحبط المجـــرم عملهم بطبيعة الحال . يحـدث هـذا اذا ارتفع التفـــكير عن تفكيرهم ، واذا هبط عن طبقته فى كثير من الاحـوال . وليس لديهم تصرف فى طـرق البحث التى يقومون بها . وانهم ليبذلون كل ما لديهم من جهـد عنـــد الضرورة ، وحيث تغريهم **المكافأة**

الجزيلة .. فيتمادون فى اتباع طرقهم البالية ، ولن يحيدوا قيد شعرة عن مبادئهم الراسخة . ماذا فعلوا فى موضوع د ــ مثلا مما يغاير تلك المبادىء ؟ . ماكل هذا التنقيب ، والتعقيب ، والاستماع ، والبحث بالمجهر ، وتقسيم سقف البناء الى مربعات وقراريط ؟؟ . ماذا فى هذا الا المبالغة فى اتباع مبادىء مرسومة تطبق على كل فكرة مما تعوده **رئيس الشرطة** فى اضطلاعه زمنا طويلا بهذه الشئون . الا ترى أنه قد اعتقد أن سائر الناس لا يعمدون الى ثقب الكرسى يخفون به الخطاب فحسب ، ولكن على الاقل يتبعون هذه الطريقة فى أى جهة أو أى ركن آخر مدفوعين بالفكرة نفسها ؟ كذلك أن هذه الطرق فى التنقيب عن الاشياء المختفية ، انما هى منطبقة على الحوادث المألوفة من عامة الناس . ان سائر أحوال الاخفاء يحتمل اكتشافها بهذه الطريقة ، ولا يعتمد فى اكتشافها على الذكاء بتة ، ولكن على العناية والصبر وعزيمة الباحثين . وحيث يكون الامر له خطر عند رجال السياسة ، أو يكون الجزاء عنه جزيلا ، فان طريقة البحث لن تتغير فى جوهرها . وستعرف الآن ما أقصد .. حين اقول ان **الخطاب** المفقود اذا كان قد أخفى فى أى مكان على نمط **رئيس الشرطة** ، فان اكتشافه أمر لا شك فيه . ان صاحبنا رئيس الشرطة قد ضلل ، وكان أساس تضليله اعتقاده أن الوزير رجل أبله لشهرته بنظم **الشعر** ، وهو يعتقد أن سائر **الشعراء مجانين** . وانه فى حكمه على الشعراء جميعا بالجنون لآثم الى حد الاجرام !!

وسألت :

ــ ولكن أصحيح أن هذا هو **الشاعر** ، اننى أعرف أن هناك أخوين ، وكلاهما له شهرة بالادب ، وأعتقد أن **الوزير** كتب عن علم فى **نظرية** « حساب التكامل » ، فهو رجل **رياضى** وليس شاعراً !!

ــ أنت مخطىء فى ظنك ، واننى أعرفه حق المعرفة ، انه يجمع بين الملكتين ، فهو شاعر ورياضى معا ، ويستطيع أن يزن الامور . واذا اقتصر أمره على أنه رجل رياضى ، فلن يستطيع أن يزن الامر بتاتا ، ومن ثم يقع فى براثن **رئيس الشرطة** !...

قلت :

– انك تدهشنى بهذه الآراء التى يناقضها كل من فى هذا العالم ! انك لاتنظر بعين الاعتبار الى الآراء التى هضمت مدى القرون ، ولطالما كان الميزان الرياضى هو الميزان المرجح فى سائر الاحوال منذ آماد بعيدة.

وأجاب **دوبان** متمثلا قول شنفور :

– اننى أراهن على أن كل فكرة عامة يتوارثها الناس ، ماهى الا حرافة لاتفاق الناس عليها جميعا !

– انى أعتقد أن **الرياضيين** قد صنعوا غاية مافى الوسع لاذاعة هذا الخطأ، ولايقلل من خطئه الاجماع على صوابه . وأنهم قد أقحموا كلمة التحليل على مصطلحات علم **الجبر** ، وكان الفرنسيون مصدر هذا التضليل . ولكن اذا كان للتعبير شأن يذكر – أعنى اذا كانت الكلمات تستمد قيمتها من مجرد الاستعمال ، فالتحليل الذى يوصلنا اليه **الجبر** أشبه مايكون بقولنا ان كلمة الجبر تشمل معنى الاجبار ، (١)

وان كلمة **الرياضة** تشمل معنى الصلاة ومعنى اللعب ، من قولنا رياضة الروح ورياضة العدو والسباحة !

قلت :

– لاشك أن بينك وبين رجال الجبر فى باريس ضغينة ... ولكن أتمم حديثك !.

– اننى أنبذ القضايا العقلية التى تبنى على غير المنطق المجرد ، ولا أحسب لها أية قيمة ، وأعارض النتائج العقلية التى تأتى عن طريق الدراسة الرياضية .. ان الرياضيات هى علم الشكل والعدد ، والتفكير الرياضى ماهو الا تطبيق للمنطق فى حدود الاشكال والاعداد، والخطأ الكبير هو اعتقادنا أن الحقائق التى يسمونها **(الجبر المجرد)** هى حقائق مطلقة ، أو منفصلة عن المحسوسات ، وانه لخطأ فاحش

---

(١) هذه الكلمات فى الاصل ترجع الى المشابهة بين مادتها فى اللاتينية ومادتها فى الانجليزية . وقد غيرناها بمايشابه هذه العلاقة بين المصطلحات العربية .

يدهشني أن يشيع هذا الشيوع مع فرط وضوحه ... ان المقررات الرياضية ليست حقائق مطلقة ، وما صح من وجهة العلاقة بين الشكل والعدد قد يكون باطلا غاية البطلان من وجهة الاخلاق . ففى هذا العلم - **علم الاخلاق** - لا يصدق على الحقيقة دائما أن يكون الكل مجموع الاجزاء . وكذلك علم الكيميا ، لا تصدق هذه القاعدة عليه ، فلا يلزم من وجود قيمة مفردة أن تجتمع هذه القيم عند الامتزاج والاتصال . وكم من حقائق رياضية لا تحسب من الحقائق الا بالنسبة الى موضوع أو مقدار ، ولكن الرياضيين يبنون تفكيرهم على حقائقهم المكتسبة بحكم العادة ...

ان **بريان** يذكر فيما سماه **بالاساطير** أنواعا مماثلة لهذا الخطأ حين يقول : ان أساطير **الوثنية** غير مقبولة ، ولكننا مع هذا ننسى هذه الحقيقة ونستخرج منها نتائجها كأنها حقائق قائمة . وهؤلاء علماء الجبر فى وثنيتهم العقلية يعتقدون أن الخرافات مقبولة ومصدقة ، ولا يستخرجون النتائج سهوا من الذاكرة ، بل عجزا فى التفكير .. وأوجز فأقول : اننى ما صادفت الرياضى الصميم الذى يمكن أن يعول عليه فى غير الجذور والاشكال(1)

وقال **دوبان** متمما حديثه :

- وأنا لا أزيد على أن أضحك من ملاحظاته . اننى أعنى أن **الوزير** لو كان رياضيا فحسب لما كان برئيس **الشرطة** من حاجة الى أن يمنحنى هذه المكافأة .. اننى عرفته رياضيا وشاعرا ، وكانت أقيستى تلائم مقدرته والظروف التى تحيط به . لقد عرفته رجلا من رجال البلاط ، رجل أحابيل قوى الشكيمة ، ومثل هذا الرجل لا يفوته الحذر من أساليب رجال الشحنة ولا يغفل عن الشباك التى كانت تنصب له ، وقد برهنت الوقائع على ذلك . ولا شك أنه ادخل فى حسابه هذا التنقيب الذى أجرى وقاموا به فى مسكنه . وان غيابه من الفندق الذى أعده الضابط عوناله للوصول الى غايته ، أن هو الا خدعة كى يدع الفرصة سانحة لرجال الشرطة ليفتشوا سا

---

(1) هنا معادلة جبرية حذفناها من المتن ، ونسبتها هنا للمراجعة :

س٢ + ١ س = ع

شاءوا ، ويقتنعوا بأن الخطاب ليس هناك ، كما اقتنع **رئيس الشرطة** .. ولقد شعرت كذلك بأن سلسلة التفكير التى تعودها الشرطة لابد قد وردت جميعها على خاطر **الوزير** ، وأنها بلاشك ستقوده الى نبذ كل طريقة مألوفة للاخفاء والروغان .

ورأيت أنه قمين أن يلجأ الى البساطة مضطرا ، ان لم يلجأ اليها عفو الخاطر باختياره . وانك لتذكر كيف أغرب **رئيس الشرطة** ضاحكا حينما قلت فى مستهل حديثنا انه عانى كثيرا من المتاعب لاكتشاف هذا اللغز الغامض .. ! وما كان قد غمض عليه الا لانه واضح غاية الوضوح !!..

قلت : أجل ، واننى لاعرف كفايته تماما ، وقد أدركت أنه وقع فى حيرة وارتباك !

وواصل **دوبان** حديثه فقال :

ـ ان المحسوسات تفيض بما يشابه غير المحسوسات ، ومن هنا كان هنالك مسحة من الحق فى تلك القضية الخطابية التى تزعم أن الامثلة والمجازات ضرورية لتمكين الحجج العقلية وتعزيزها ، كضرورتها فى تجميل الاوصاف وزخرفتها . ومبدأ القصور الذاتى مثلا يبدو متشابها فى عالم الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وليس هذا المبدأ فى الطبيعيات بأصدق منه حين نطبقه على قولنا أن الجسم الكبير يحتاج لتحريكه الى جهد أكبر من الجهد الذى يحرك الجرم الصغير ، وأنه أصعب دفعا وتحريكا من ذاك . ويسرى هذا الحكم على حركة العقول الكبيرة والعقول الصغيرة . فان العقل الكبير على قوته حين يتحرك ، ليصعب فى مبدأ الامر دفعه الى الحركة . ألم تلاحظ أى اللافتات أرعى للنظر . ؟

قلت : اننى لم ألتفت الى هذا من قبل !..

قال : هناك لعبة محيرة تلعب على الخرائط ، وفحواها أن يذكر فريق من اللاعبين كلمة أو اسما يقترح الاهتداء اليه .. فالحاذق من اللاعبين يختار أبرز الكلمات والاسماء التى يتخطاها الباحث الجاهل ظنا منه أن البحث يستلزم لامحالة أن ينظر فى الخفايا والمجهولات !!

وكذلك الكلمات الكبيرة المنقوشة على اللافتات ، فانها مما تتخطاه النظرة الاولى الى ماهواخفى منها وأحوج الى الانتباه. وتتشابه فى هذا الامر نظرةالبصر ونظرة البصيرة .

وهذا أمر بعلو على متناول **رئيس الشرطة** كما يظهر ، فلم يفكر قط فى احتمال وضع الوزير للخطاب معرضا لاول نظرة(١)

فلما اختمرت هذه الافكار فى رأسي تزودت بمنظار اخضر ، وتوجهت صباح يوم مشرق الى الفندق الذى يقيم فيه الوزير ، ووجدت **د** ــ بمقره يتأفف ويتكاسل ويتباطأ كعادته ، ويصطنع أنه فى غاية الاعياء ، وربما كان أنشط انسان على وجه الارض حين ينفرد بنفسه .

ولكى أكون معه على سواء ، شكوت ضعف عينى وضرورة وضع منظار عليها . وتحت ستارها تفحصت سائر أنحاء الحجرة بينما كنت أظهر أننى لا أهتم الا بحديث مضيفى .

ولقد وجهت انتباهى خاصة الى مكتب كبير كان يجلس على مقربة منه ، وكانت عليه خطابات وأوراق مختلفة ، موضوعة بطريقة مشوشة مع آلات موسيقية ، وكتب شتى ، ولم أجد هنالك ما يلفت النظر ..

ثم وقعت عيناى أخيرا ــ وهما تتفحصان الحجرة ــ على صندوق من الورق المقوى ، ممايستعمل فى وضع البطاقات ، يتدلى من خيط أزرق معلق فى أكرة نحاسية فوق الموقد . ويتألف هذا الصندوق من ثلاث عيون أو ربع ، وبداخله خمس بطاقات أو ست بينها **خطاب** منعزل .. كان هذا الخطاب قذرا ويعلوه الغبار ، ممزقا من وسطه ، كأنما أراد صاحبه أن يمزقه ثم عدل عن ذلك . وكان عليه خاتم كبير أسود يحمل علامة باسم **د** ــ ظاهرة لكل من يراه ، وعنوانه مكتوب بخط نسائى دقيق موجه الى **د ــ الوزير** نفسه ، ملقى بغير عناية فى متناول اليد ، ويبدو مهملا فوق الصندوق .

وأدركت أنه هو الخطاب الذى أبحث عنه عندما ألقيت نظرى

---

(١) هنا سطور قد استطرد فيها الكاتب الى الشرح والتكرار مما يغنى عنه ماتقدم فى هذا المعنى .

عليه . ولاريب أنه كان يبدو فى كل مظاهره مختلفا تمام الاختلاف عن الخطاب الذى تلا علينا **رئيس الشرطة** وصفا دقيقا له . فهنا الخاتم كبير أسود عليه علامة **د ــ** ، وهذه العلامة كما وصفها حمراء ، وعليها السلاحان الملكيان يمثلان أسرة **س ــ** ، وهنا العنوان موجه للوزير بخط **نسائى** دقيق ، بينما هو فى الثانى موجه الى شخصية ملكية بصورة واضحة المعالم .. الا أنه كان منطبقا تمام الانطباق من ناحية الحجم فحسب . ولكن هذا الاختلاف الشديد ، وهذه القذارة التى لا توافق دأب الوزير فى عامة أحواله تشعر بأنه تعمد أن يصرف نظر الباحث عن الاهتمام بهذه الورقة .

وقد أطلت زيارتى عنده وأنا مستغرق فى بحث جلل بينى وبين الوزير حول مسألة أعرف أنها لابد تثير اهتمامه وتهيج خواطره ، وكان كل انتباهى فى الحقيقة منصبا على الخطاب . وقد وضعت فى ذاكرتى منظره من الخارج وموضعه من الصندوق ، ودفعت عن نفسى آخر الامر سائر الشكوك والهنات التى ربما كانت تعترض تفكيرى فى هذا الشأن . وتأملت أطراف الورقة فوجدتها مهلهلة بغير داع ، كأنها من سقط المتاع ، وقد طويت مرة ثم ضغطت وأعيد طيها وضغطها على الناحية الاخرى فوق الحروف والخطوط التى طويت عليها اول مرة .. كان هذا الاكتشاف كافيا .. ! وقد تبين لى أن الخطاب قد قلب من الداخل كما يقلب القفاز ، وأعيدت تسويته ، وختم من جديد . وهنا حييت الوزير وانصرفت فى الحال ، وتركت على المائدة علبة سعوط ذهبية .

وفى صباح اليوم التالى عدت لاطلب العلبة ، فاستعدنا الحديث كما بدأناه بالامس فى حرارة واهتمام . وبينما نحن مشغولان على هذا النحو سمع طلق نارى ينبعث من الخارج تحت نافذة الفندق مباشرة ، وتلاه صرخات فزع متوالية وصيحات من الغوغاء ، واندفع **د ــ** الى شرفة ففتحها على مصراعيها ونظر خارج الفندق . وتقدمت الى صندوق الخطابات وأخذت الخطاب ودسسته فى جيبى ، ووضعت مكانه خطابا مماثلا له فى مظهره الخارجى ، وكنت قد أعددته فى مسكنى .

بدقة وعناية ، وأحكمت تقليد الخاتم الذى وضعه **د** ـ بخاتم مصنوع من الخبز .. !!

كان الهياج الذى وقع فى الشارع قد أثاره رجل مقنـع أطلق مقذوفا ناريا بين جمع من النساء والاطفال . ووثب يعدو كأنه مجنون أو سكران ، وكان المسدس فى الحقيقة لايحمل رصاصا. فلما ذهب عاد **د** ـ من النافذة التى نبعته اليهـا ، ثم أسرعت فودعته ، وكان المجنون المزعوم مطلق القذيفة ، رجلا من أتباعى.

قلت : وماهو الغرض الذى من أجله وضعت خـطابا مماثلا للخطاب الاول ؟ ألم يـكن من المستحسن أن تأخذ الخطاب عنوة عند الزيارة الاولى ثم تنصرف ؟

أجاب **دوبان** : ان **د** ـ رجـل يائس عصبى المزاج ، والفندق الذى ينزل فيـه لا يخلو من الخـدم يأتمرون بأمره .. فاذا هجمت على الخطاب تلك الهجمة التى تقترحهـا فلا أبرح حضرة **الوزير** وأنا بقيد الحياة ، واختفى اسمى من ذلك اليـوم ، فلا يذكره أحد من أفاضل سـكان باريس .. !

الا أن لى عدا هذا وجهة غير الوجهة التى تهم **رئيس الشرطة** من هذا الخطاب ، فانك تعرف مبادئى السياسية ، وانى فى هذا الامر انما اعمل كرجل مشايع للحزب الذى يناصر تلك السيدة، وان **الوزير** قد وضعها تحت سيطرته ثمانية عشر شهرا ووضعته الآن تحت امرتها . وانه ليستمر فى سلطانه وعنفه وهو يعتقد أن الخطاب لم يخرج من حوزته الى الآن ، ومن هنا يقيم نفسه بمدرجة الهلاك . ولن يعد سقوطه متى سقط هوجا ، بل سخفا وخرقا .. ! ويحسن هنا أن أردد قول من قال :« ما اسهل السقوط على من سقط» ، وكما يقول **كتلانى** فى الغناء : « أن الصعود أسهل كثيرا من الهبـوط » . ولست الآن أعطف عليه أو على الاقل لست أشفق عليه ، فهو مثل للعبقـرى الذى لا يتحرج ولا يتأثم . ولوددت الآن أن أنفذ الى سريرته لارى كيف يدور تفكيره حين تتحداه السيدة صاحبة الخطـاب ، فينكفىء راجعا الى موضعه المخبأ فيـه ويعلم أنه قد ضاع .. !!

ـ وكيف ذلك .. ؟ هل أودعت ذلك الخطاب كلاما موجها اليه .. ؟

- وكيف لا . . ؟ فلم يكن من اللائق ان أترك داخل الخطاب فارغا .. فهذه اهانة ..

لقد أساء الى د - يوما فى فينـا ، وقلت له كأننى أمزح : سأذكرها لك . وأحسبه سيتشوف الى العلم بحقيقة الغريم الذى غلبه ذكاء وحيلة ، فلم أشأ أن أحرمه من دليـل يهديه الى مفتاح السر ، فكتبت فى وسط الورقة البيضاء هذه الكلمات :

« انه لمصير مشئوم اذا لم يكن جـديرا بأتريه فهـو جدير بثيست » ، وهى كلمات قرأتها فى رواية **كريبييون** (١)



---

(١) كريبييون شاعر فرنسى من مخضرمى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، الف رواية عن قصة اثريوس وثيست ، وهما اخوان من ابطال الاساطير اليونانية اغرى احدهما وهو ثيست امرأة اخيه فانتقم منه هذا بذبح ولده واطعامه لحمه

باطية النبيذ الشريشي
((الامنتيلادو)) (١)
لادجـار ألان بو
Edgar Ellen Boe

صبرت جهد الطاقة على شتى الاساءات من **فورشـناتو** ، ولـكنه حين اجترأ على اهانتى آليت لانتقمن منـه .. ان من يعرف خلائقى يعرف أننى لاأجهر بتهديدى ، ولكننى أدرك ثأرى آخر الامر . وهذا أمر مفروغ منه . واننى لن أقنع بعقـاب خصمى ، بل أمعن فى العقاب ، ويئس من بلوغ الثأر أن يتعرض صاحبه لاذى وهو ينتقم لنفسه ، وليس من بلوغه كذلك أن يجهل غريمه من أين أصيب .

اننى كما أحب أن يفهم ، لم أقـل ولم أعمل عمـلا يدعو **فورشناتو** الى اساءة الظن بمقصدى ..

فكنت أهش فى وجهه على عادتى ، ولم يـكن ليسـتبين من وراء ابتسامتى أنها تخفى عزيمة القضاء عليه .. !

كانت فى **فورشناتو** ناحية من نواحى الضعف ، وان كان رجلا يبجل ويخشى بأسه فى سائر النواحى الاخـرى .. وكان يزهى بمعرفته بالنبيذ ، وقليل بين الايطاليين من يتذوق روح الفن الحقة ، وان كان همهم على الدوام أن يتحينوا الفرصة للاحتيال على أصحاب الملايين من الانجليز والنمسويين .

كان **فورشناتو** دجالا فى فن التصوير كأبناء وطنه ، وان كان

---

(١) هو نبيذ خفيف عطرى ذهبى اللون يصنع فى مدينة شريش بجنوب الاندلس ، ويوجد منه نوعان مر وذو غضاضة Amontillado

ثقة فى فن الانبذة ، واننى لعلى غراره فى هـذا الصـنف ، اذ كنت على خبرة بالانبذة ، وكنت ابتاع المقادير كبيرة منها كلما استطعت .

صحبت صديقى هذا مساء ليلة من ليالى « **المساخر** » الصاخبة ، ولاقانى بحرارة بالغة اذ كان مغرقا فى شرابه . وكانت عليه ملابس مختلفة الالوان : يلبس حلة مشدودة على جسمه ، وعليها شارات الجماعة التى ينتسب اليها ، ويضع على رأسه قبعة تتدلى منها جلاجل صغيرة .. فهششت للقائه وكدت لا انتهى من مصافحته أبدا .. !

قلت له : اننى جد سعيد بلقائك يا صديقى **فورشناتو** . انك تبدو اليوم غاية فى حسن الطلعة ، والاناقة . لقد وقعت يدى على باطية من النبيذ الذى يبيعونه باسم « **الامنتلادو** » واننى ليخامرنى الشك فى جودته وأصالته .. !

قال : وأنى لك ذلك .. ؟ باطية من الامنتلادو .. ! ! هذا مستحيل ، وفى أيام المساخر أيضا .. !

وقلت له : ان لى شكوكى ، واننى لغفلتى دفعت فيها ثمنا باهظا دون أن أستشيرك ، ولكن لم أجدك ، وخفت أن تضيع منى الصفقة ..

ــ امنتلادو .. ! !

سأدعك فى شغلك هنا وأذهب الى « **لوشيزى** » فهو الرجل الوحيد الذى له خبرة بهذا النوع ..

ــ ان **لوشيزى** لايميز بين نبيذى **شريشى**(١) حلوه ومره ، وان كان بعض ذوى الغفلة يظنون أنه يجاريك فى المعرفة .

ــ هلم نذهب ..

ــ الى أين .. ؟

---

(١) نبيذ عطرى يصنع فى جنوب اسبانيا وهو من نوعين : Manzanillo, Amontillado الاول حلو والثانى خفيف فيه غضاضة ، وتختلف قوة الكحول به بين ١٧ـ٢١ درجة

ـ الى مخائك .

ـ كلا يا صديقى .. اننى لا اريد أن أثقل عليك ، **وأنت** مرتبط بلقاء **لوشيزى** ..

ـ لست مرتبطا بأحد. هلم !

ـ كلا يا صديقى . . ليس الامر انك مرتبط بموعد ، ولكن هذا البرد الشديد يضايقك ، وأن للمخابىء رطوبة لاتحتمل ، وأرضها تنز بالاملاح .. !

ـ فلنذهب على أية حال . انالبرد لا يهمنى .. **أمونتلادو !** لقد غششت فيه . أما لوشيزى فهو لايميز بين نبيذى شريش !

وأخذ**فورشناتو** بذراعى وانصرفنا . وكنت أضع على وجهى قناعا من الحرير الاسود ، وأتدثر بمعطف مشدود على جسمى ، وسمحت لفورشناتو أن يسرع بى نحو دارى .

كان منزلى خاليا من **الخدم** ، فقد تسللوا الى أفراح **المساخر** بالمدينة يساهمون فيها ، وقد أخبرتهم بأننى لا أعود قبل الصباح ، وان كنت قد أعطيت أمرى بألا يتحركوا من المنزل ، وانها لأوامر كافية كما أعلم ... الا أننى أعلم كذلك أنهم سيختفون ساعة أوليهم ظهرى !!

وأخرجت من أدراجهم مصباحين (شمعدانين) وأعطيت أحدهما لفورشناتو وقدته من حجرة الى أخرى ، حتى وصلنا الى المدخل الذى يفضى الى المخابىء، وانحدرت من سلم حلزونى طويل ، ودعوته أن ينزل منه بحذر وهو يتبعنى، حتى انتهينا الى آخر الدرج ، ووقفنا معا على الارض أمام مقابر مونتريزر التى أشبعتها الرطوبة.

وكانت قامة صاحبى تترنح ،والجلاجل التى على قبعته تصلصل كلما تحرك ..

قال : أين الباطية ؟

قلت : ستصل اليها بعد قليل. ولكن عليك أن تحترس من تلك الانسجة البيضاء التى تلمع من جدران هذه الكهوف !

ثم اتجه نحوى وحملق بعينيه وحدقتاه تنضحان سكرا !

وسألنى أخيرا • أهذه أرض ذات أملاح ؟

قلت : أجل انها أرض سبخةذات أملاح • متى نالك هذا السعال؟

وراح يسعل ويسعل ، ثم توقف صديقى المسكين وهو لايقوى على الاجابة ••••

ثم قال : لا شىء !

قلت : هلم ••• وأظهرت العزم على العودة •• وقلت :

ـ سوف نعود من حيث أتينا•• ان صحتك ثمينة ، أنت رجل غنى مبجل محبوب وسعيد • •كما كنت أنا يوما من الايام • وانك لتفتقد اذا ما غبت • أما أنا فلا يؤبه بى • لنعد أدراجنا• انك قمين أن تصاب بمرض ، وانى غير مسئول ، اذا ما أصابك شىء من جراء هذا • ثم أمامنا موعدك مع **لوشيزى** •••

قال : كفى • انى لا يهمنى السعال أبدا • سوف لا أموت من السعال !

وأجبته : هذاصحيح ! صحيح، والحق أننى لا أريد أن أزعجك بغير جدوى ، الا أنك خليق ، أن تحذر كما ينبغى • ان جرعة من هذا العقار تحمينا رطوبة هذا المكان •

وتناولت زجاجة من الزجاجات الكثيرة المصطفة على الرف ، وضربت رأسها ، ثم قدمت اليه النبيذ وقلت : أحتس • ••

ورفعها الى شفتيه وهو ينظر الى بألفة ومودة ، ثم التفت وأشار برأسه والجلاجل تصلصل من فوقها :

ـ اننى أشرب فى حب هؤلاء الموتى الراقدين من حولنا •••

ـ وأنا أشرب فى حياتك الطويلة •

ثم عاد فأخذ بذراعى وانطلقنا••• •

ـ ان هذه الكهوف ممتدة الى بعيد • •

وأجبت : ان أسرة **مونتريزو** كانت كبيرة كثيرة العدد ••

ـ لقد نسيت ذراعيك !

ـ هذه قدم كبيرة مذهبة فى حقل من اللازورد ، تسحق بقايا

أفعى تغرس أنيابها فى عقبها .. تلك شارة القوم ...

ـ وماذا يقول الشعار ؟

ـ كل امرىء يجزى بما فعلت يداه ...

ـ أجل .

وكان النبيذ يلتمع فى عينيه، والجلاجل تصلصل على رأسه ، وقد أذكى النبيذ خيالى . وسرناوسط جدران من العظام المختلطة بالبواطى فى كهوف المقابر ، ثم وقفت واجترأت ، فطويت مرفقه تحت ذراعى !

قلت : أنظر هاهي الاملاح تتراكم وتطفو على الأقبية كأنها الطحلب . ونحن الآن تحت قاع النهر ، وقطرات الندى تتساقط على العظام .. هلم .. لنعد قبل أن يفوت الميعاد ، ويفتك بك السعال !

قال : كلا ليس بى شىء . لنستمر فى طريقنا . ولكن ناولنى قدحا من الشراب قبل كل شىء ...

ففتحت له قنينة من نبيذ الجراف أفرغها فى جوفه جرعة واحدة، وكانت عيناه تشعان بريقا وحشيا ، وقهقه وقذف بالزجاجة وهو يشير اشارة لم أفهمها ..

نظرت اليه دهشا ، ثم أعاد الحركة مرة ثانية .

قال : ألم تفطن لاشارتى ؟

قلت : كلا !

ـ اذن لست من الاخوة !

ـ وكيف ذلك ؟

ـ لست من البنائين الاحرار!

قلت : بلى . بلى .

قال : أنت ؟ كلا .. مستحيل !

وأجبت : بل أنا ماسونى ..

قال : اذن أبرز العلامة !

قلت : هاك . وأخرجت المسطار من وراء معطفي !!

قال : أنت تسخر بي .. ؟

وتراجع خطوات وهو يقول : فلنذهب الى الباطية .

قلت : ليكن .

وأعدت المسطار تحت عباءتي، وأعدت اليه ذراعي ، واستند عليها بقضه وقضيضه ، وواصلنا سعينا نبحث عن الامنتلادو بين أقباء هابطة ، حتى وصلنا الى سرداب عميق كان فساد الهواء فيه يكاد يطفيء المصباح .. !

وقد ظهر في نهاية السرداب طريق ضيق ،كانت جدرانه محاطة برفات الاجسام البشرية طبقة فوق طبقة الى السقف على مثال مقابر باريس الكبرى ... وكذلك كانت الجوانب الثلاثة من قبو السرداب ، أما الجانب الرابع فقد تهافتت عظامه على الارض . ووجدنا داخل الحائط بمعزل عن العظام مدخلا آخر عمقه أربع أقدام وعرضه ثلاث وارتفاعه من ست الى سبع أقدام . وكأن بناته أعجلوا دون تمامه لأمر من الامور، ولكنه أقيم ليصل بين سقفي المقابر ، ومن ورائه جدار يحيط به من الحجر الصوان .

لم يستطع **فورشناتو** أن يرفع نور شعلته لينظر الى عمق هذا السرداب ، ولم يمكنه على ضوئه الضئيل أن يستبين مداه .

وتقدمت منه قائلا : ها هو الامنتلادو ، ولا تقل لصاحبنا **لوشيزي** ...

فقاطعني وهو يترنح في غيراتزان الى داخل الحفرة ، وقال :

ـ ان صاحبي لفدم جاهل !

وتبعته على الاثر . فبلغ نهاية السرداب في لحظة ، ثم وقف عند صخرة وتملكته الدهشة .. وفي لحظة أخرى كنت قد قيدته بذلك الحجر الصوان . وكان على سطحه حلقتان بين الواحدة والاخرى قدمان مستويتان في احدهما سلسلة قصيرة وبالأخرى قفل ... لم استغرق في تطويق خصره بالسلسلة بضع ثوان ، وهو في ذهول شله عن الحركة ، ثم ادرت المفتاح وعدت أدراجي من السرداب .

نادبته : تلمس بيديك الجدران، وانك لن تنجو من رطوبتها ، وانها لشديدة الرطوبة حقا .. فدعنى أتوسل اليك مرة أخرى أن تعود ... ماذا ؟ ألا تريد ؟.. اذن يجب أن أتركك حيث أنت ، وسأبذل اليك مافى وسعى من صنوف الرعاية وانها لقليلة !

وصاح صاحبى ، ولما يفق من دهشته : الامنتلادو ؟

وأجبت : حقا . الامنتلادو !

قلت هذا وأنا منصرف الى العظام أبعدها . وتكشفت عن شيء من الطين وحجر البناء .. وبهذه المواد والمسطار الذى معى اندفعت أقيم جدارا على باب السرداب . وما كدت أضع أول حجر حتى أخذ يفيق من السكر . وكانت بوادر ذلك صوت أنين ينبعث من داخل السرداب . لم يكن صوت رجل تملكه الخمار ، وران على المكان صمت طويل ، فوضعت الحجر الثانى والثالث والرابع .

وهنا سمعت السلسلة تضطرب اضطرابا عنيفا أصغيت اليه بضع دقائق راضيا قرير العين . ثم انتهيت من عملى ، وجلست فوق العظام . فلما سكتت صلصلة الجلاجل والقيود ، استعدت المسطار ، ووضعت الحجر الخامس والسادس دون مقاطعة . ووقفت ورفعت الشعلة على رأس البناء ، وقد ألقت بصيصا من الضوء على الهيكل الذى بداخله . . وراحت الصرخات تتوالى عارمة هوجاء من فم الرجل المكبل ، كأنها تجتذبنى من ورائى ، فترددت لحظة ، ثم استولت على هزة عنيفة .. وجردت سيفى أتحسس به طريق السرداب ، فعاودتنى الطمأنينة بعد تفكير هنيهة ، ووضعت راحتى على جدار البناء المتحجر مستريح الفؤاد .. !

عدت الى الحائط ، وأنا أحكى صياح ذلك الدفين بصياح مثله ، وأردد صداه ، بل أساعده على المزيد وأفوقه فى شدته . وكدت أنتهى من عملى اذ وضعت الحجر الثامن والتاسع والعاشر . فاذا بقهقهة تنبعث من السرداب منخفضة النبرات ، وقف لها شعر رأسى ، وتبعها صوت حزين تبينت بجهد جهيد أنه صوت **فورشناتو** النبيل ... كان يقول :

ـ ها . ها . ها .. انها لفكاهة طريفة حقا . لعبة ناجحة ،

سنضحك منها كثيرا عند عودتنا الى الملهى على مائدة النبيذ .. ها ها . هاها !!

قلت : والامنتلادو ؟

– هى . هى . هى ... نعم الامنتلادو ! ولكن ألسنا تأخرنا الآن . أليسوا فى انتظارنا فى ذلك الحى : السيد فورشناتو . وباقى الجمع . فلنذهب الآن .

– بحق الله . يا مونتريزو !

قلت : أجل . بحق الله !

وأهبت أناديه ، وأجيب عن هذه الكلمات . ولكن دون جدوى .

ثم صحت بصوت عال : فورشناتو !!

ولم أسمع جوابا .

– فورشناتو !؟

ولم أظفر بجواب ، وقذفت بشعلتى من الكوة الباقية ، فلم يجبنى غير صليل الجلاجل والقيود ، وانقبض صدرى من رطوبة المكان ، فأسرعت الى عملى أنجز البقية الباقية منه ، ووضعت الحجر الاخير فى مكانه . وألقيت عليه وعلى البناء الجديد سورا من العظام التى بقيت ثمة نصف قرن من الزمان ، دون أن تزعجها يد الانسان .



مارك توين

١٨٣٥ - ١٩١٠

كانت رسالة الأدب الأمريكى فى القرن التاسع عشر - كما أسلفنا - أن يكشف العالم القديم ، وأن يعطى أمريكا أدبها الخاص ، وكان **مارك توين** أحد الأعلام الذين قاموا بأداء هذه الرسالة ، فأصبحوا - فى مدى حياتهم - من الكتاب القوميين والكتاب العالميين فى وقت واحد.

ولد بالولايات الوسطى ، وانتقل مع أبيه الى الغرب ، فعرف فى صباه كثيرا من أقاليم بلاده ، وكان أبوه من أصحاب الخطط و « **المشروعات** » فى طلب الغنى ، ولكنه مات فقيرا وابنه فى الثانية عشرة من عمره ، فعمل مع أخيه **أوريون** فى صحيفته صفافا ومحررا مساعدا ، ثم خرج فى طلب الرزق ، فعمل فى الملاحة وعاهد أمه - ويده على **الكتاب المقدس** - لا يمسكن بورقة لعب ولا يشرب قطرة خمر . ولما نشبت الحرب الاهلية اشترك فيها ، ثم تخلى عنها ، ولم يزل يتنقل بين الأقاليم ويزاول العمل بعد العمل حتى انقطع للصحافة والأدب .. وساح فى البلاد الاوربية وغيرها ، فمارس حياة العصر ، عامها وخاصها ، بالمعاينة والتجربة العملية ، وحصل فلسفته لنفسه بالمشاهدة والنظر القريب قبل البحث والاطلاع ، ولم يكن نصيبه من البحث والاطلاع مع هذا بالقليل .

وعرفت الجامعات فضله ، فوجهت اليه جامعة يال Yale فى سنة ١٨٨٨ لقب **أستاذ** فى الفنون ، ثم وجهت اليه جامعة

ميسورى لقب دكتور فى الآداب، ثم دعته جامعة **أكسفورد** (سنة ١٩٠٧) للاحتفال بمنحه لقب **دكتور** ، فكان احتفالها به مناسبة صالحة لابراز مكانته العالمية التى لم يرزقها من أدباء عصره غير أفراد معدودين .

وقد نحيط بشيء من اتساع هذه **الشهرة** اذا علمنا ان كتابه عن رحلته الخارجية طبع منه مائة ألف نسخة فى سنواته الثلاث الاولى ، وكان ثمن النسخة منه ثلاثة ريالات ونصف ريال ، وان موسولينى كان أحد أعضاء الجماعة العالمية التى تألفت باسمه لدراسة كتبه وترجمتها الى اللغات الاوربية !!

وقد استقل مارك توين بأسلوبه ومنهجه فى التعبير ، وساعده على مزج الاسلوب الدارج بالاسلوب الفصيح أنه يكتب للصحافة ويتخلل كتابته بالدعابة . وقد اطلع على طائفة من الكتب المختارة قديمها وحديثها ، ولكنه لم يتبع أحدا من الأقدمين أو المعاصرين اتباع محاكاة وتقليد ، وربما اقتبس قليلا من طريقة **دكنز** واستفاد كثيرا من توجيه **برت هارت** Bert Harte الذى قال عنه انه « جعلنى أحسن تركيب الجملة وتقسيم الموضوع » ، ولكنه قد احتفظ **بوحى** الطبع والبديهة بعد كل اقتباس وكل توجيه .

واذا استعرنا لفلسفة **مارك** توين وصفا من مصطلحات الرياضة البدنية ، جاز أن نقول « انه فيلسوف من وزن الريشة » لانه يتناول فلسفة الاخلاق ، ويعالج مختلف الآراء ، بالخفة والسرعة ، ولا يثقل على قرائه بالتعمق والاستقصاء . ومجمل فلسفته أنه يسخر من الحذلقة حيث كانت ، ويهزأ بالنفاق فى كل صورة ، وهو مع فكاهته وخفته يؤمن بالقداسة والجد ، ويعطيهما كل حقهما من الرعاية ، كما يرى من كتابه فى سيرة **جان دارك** وكتابه عن الفساد الاقتصادى باسم « الرجل الذى أفسد **هدلبرج** » .. فليست فكاهته هزلا « **بغير روح** » كما يقولون ، ولكنها أسلوب من أساليبه فى التعبير عن نقائض الحياة .

قال **كبلنج** عنه ما فحواه أنه احتجاج على سخافة العصر ونفاقه ، وقال عنه هويل Howell انه « **لنكولن**

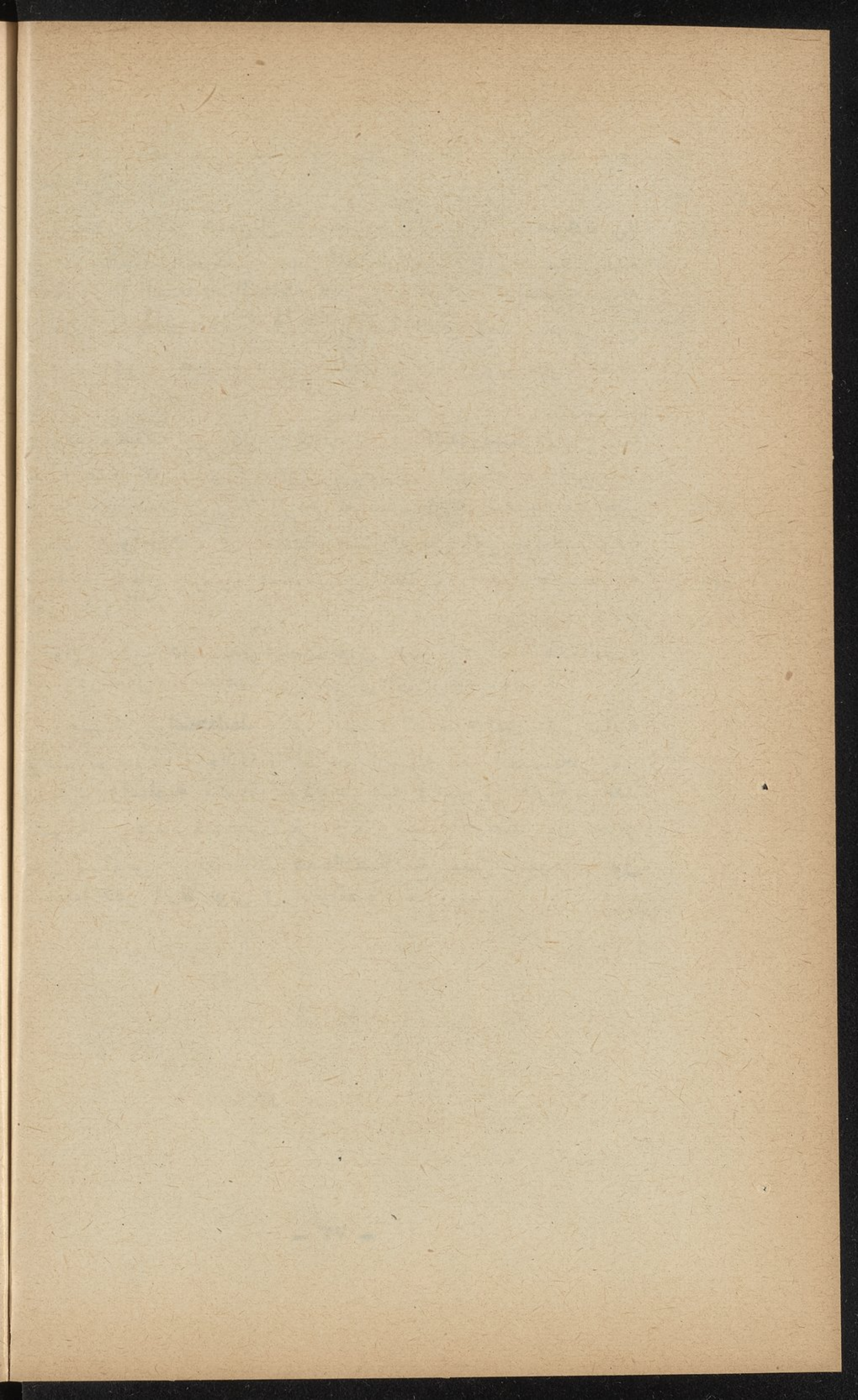
الادب » ، وهو يعنى بذلك أنه مثـال « العظيم البسـيط » فى الثقافة الامريكية .

اسمه الاصيل **صمويل كليمنس** ، واشتهر باسم **«مارك توين»** من مصطلحات الملاحة ، بمعنى العلامة الثانية ، وقصته فى هذه المجموعة **« الضفدعة النطاطة »** هى القصة التى أذاعت شهرته فى بلاده ، وفيها تصوير لهوس المراهنة الذى لايستغرب بين قوم يواجهون الغيب ، ويقتحمون المجهول ، ويودون تجربة الحظ واستطلاع المصير ..!

وقد وجدت بين مفكراته المحفوظة فى **كليفورنيا** ورقة كتب عليها هذه الاشارات : « كولمان وضفدعته النطاطة . راهن رجلا غريبا على خمسين ريالا . الرجل الغريب لم تكن له ضفدعة ، فأحضر كولمان له واحدة . فى أثناء ذلك حشا الرجل الغريب جـوف ضفدعة كولمان بالرش ، فعجزت عن النط . ربحت ضـفدعة الغريب » !!

والى جانب هذه المفكرة كلمات يقول فيها : « كتب هذه القصة لناشره المغفل . سلمها الى ستردای برس ... »

وهـذا « **التخطيط** » عن قصته الصغيرة يدل على عنايته برسم موضوعه ، خلافا لما يظن من ارساله عفو الخـاطر بغير روية . **واسلوبه** فيهـا نموذج لطريقته فى تشويق قارئه ، فقد يشوقه بتزهيده فيما سيقرأه فيكون هذا التزهيد أول حافز على التشويق . وقد كانت **هذه القصة** مع بعض التعليقات أول كتـاب ظهر **لمارك توين** فى عالم المطبوعات .



الضفدعة النطاطة المشهورة

تلبية لرغبة صديقى الذى كتب الى من الشرق ، ذهبت الى الرجل الطيب الثرثارة الشيخ **سيمون هويلر** واستقصيت عن صديق صديقى **ليونيدا** • و • سميلى ، كما طلب منى ، وهاأنذا أروى خلاصة ما علمت :

كان يقع فى حدسى أن **ليونيدا**. و • سميلى أسطورة ، وأن صديقى لم يعرف قط شخصا كهذا ، وأنه ظن أننى حين أسأل الشيخ **هويلر** عنه يتذكر هذا فضيحة **جيم سميلى** ويشمر عن ساعده ليضجرنى ببعض ذكرياته الجهنمية التى فيها من الملالة لى بمقدار ما فيها من قلة العائدة على • •

لئن كان هذا قصده لقد نجح أيما نجاح !!

ألفيت **سيمون هويلر** يهوم فى ارتياح الى جانب المدفأة فى حجرة البار من **الخان العتيق** :خان محلة التعدين فى **آنجل** . ولحظت أنه بدين أصلع تلوح عليه سيما الطيبة الجذابة والبساطة .. فنهض قائما وحيانى فتمنى لى نهارا سعيدا ، وأنبأته أن صديقا لى أوفدنى فى مهمة السؤال عن بعض الامور التى لها علاقة برفيق صباه المدعو **ليونيداس** • و • **سميلى** ••• الاب ليونيداس • و • سميلى ، **القس** الشاب الذى سمع عنه أنه كان يوما ما مقيما بمحلة آنجل ..

وأضفت قائلا : انه اذا استطاع أن يخبرنى بشىء عنه كنت مدينا له بأكثر من دين •

فقادنى **سيمون هويلر** الى زاوية حصرنى فيها بكرسيه ، وبعد أن أجلسنى فرط شريط هذه **القصة** الرتيبة التى تعقب هذه العبارة .. لم يبتسم قط ، ولم يعبس قط ، ولم

يغير قط نبرة صوته من اللهجة التى استهل بهـا كلامه ، ولم يشعرنى قط بمسحة من العطف والحماسة ، وانما كانت تسرى خلال قصته المتصلة نغمـة من الجد والاخلاص تبينت منها أنه لايحسب أنه كان يروى مهزلة مضحكة ، وكان يعتقد أنها شيء مهم ، وأن بطليها عبقريان سماويان من عباقرة الكياسة .

أما أنا فان منظر انسان يستطـرد فى رواية تلك القصـة العجيبة دون أن يبتسم كان فى عرفى غاية السخف والمناقضة . وقد أسلفت أننى سألته أن يقص على خبر **الاب ليونيداس** • و• سميلى ، فأجابنى بمـا يلى ،وتركته يمضى على نسقه ، ولم أقاطعه قط أثناء روايته :

***

قال : كان هنا شخص يسمى **جيم سميلى** فى شتاء سنة تسع وأر ، وربما كان فى ربيـع سنة خمسـين ، لا أدرى على التحقيق .. ولكن الذى جعلنى أذكر أنه جاء فى هذا الموعد أو ذاك أن القناة الكبيرة لم تكن تمت يوم قدم الى المحلة . وقد كان على أية حال أعجب من رأيت ،يراهن على كل مسألة ، ويحتال جهده كى يجد من يراهنه على الخلاف ، فان لم يجـده غير موقفه وراهن على الطرف الآخر ،وكان كل مايوافق الطرف الآخر يوافقه ولا تهمه الا المراهنة على أية صـورة ، ولا يزال فى كل أولئك موفقا ناجحا سعيد الحظ فى جميع مراهناته ، فقلما يخسر فى رهان .

كان على الدوام متربصا لرهان ، فلا يسمع بشيء كائنا ماكان الا اتخذ منه موضوعا للتحدى والمناقضة ، واختار أى الطرفين يصادفه فى تحدياته ومناقضاته، كما أنبأتك آنفا .

فان كان ثمة **سباق خيل** الفيته مشرقا متهللا ، او رأيته قابعا فى رأس الحلبة ، وان كان ثمة هراش كلاب فهو مشترك فيه ، وان كان ثمة قتال **قطط** أو نقار **ديكة** ــ بل ان كان ثمة **عصفوران** على فرع يتناقران ،فهو مراهنك أيهما يبدأ بالفرار! وان كان فى المحلة اجتماع ينعقد، فهو مواظب على حضوره مراهن

على **القس ووكر** الذى يقول عنه أنه أبلغ الوعاظ ، وأنه لكذلك، وانه لرجل صالح فوق ذلك ..!

وربما لمح **حشرة** تدب ، فلايبث أن يراهنك الى أين تسير وأين تقف بعد المسير ، ولو أنك طاوعته لتتبع تلك الحشرة وذلك الرهان الى بلاد **المكسيك** ،ليعلم ما مقصدها وأين طريقها وكيف يكون مقامها وترحالها ؟!

وكثير من الفتيـة هنا رأوا **سميلى** وفى وسعهم أن يخبروك بخبره . أنه ــ كان الله له ــ يتحدى كل أحد ويراهن على كل أمر .. واتفق مرة أن قرينة **القس ووكر** مرضت ولم يظهر من مرضها انه مؤذن بشفاء ، ولكنه أتى يوما **وسأله سـميلى** عنها فقال أنهـا تحسنت تحسنا ظاهرا ، والحمدلله على رحمتـه وكـرمه ، وأنه ليرجو ببركة الله أن تتماثل وتعود الى صحتها ... فأذا **بسـميلى** يقول دون تفكير : على انى أراهن بكذا وكذا أنها لن تشفى ..!

وكانت **لسميلى** فرس ، يطلق عليها الفتيان لقب ((**سيسى ربع ساعة**)) ، ولكنهم يمزحون لانها ولا ريب كانت أسرع من ذلك . الا أنه تعود أن يكسب من مراهناته على تلك الفرس ، لانها كانت تتلكأ أو تصاب باللهاث أو الحران أو النزلة الصدرية أو أى مصاب من هذا القبيل ، وكان من عاداتهم أن يسمحوا لها بفرق مائتى ذراع ثم يجاوزونها فى الطـريق ، فأذا هى فى النهاية تقبـل مستميتة وترمى بسيقانها هنا وهناك على جنب منحرف أو فى الهواء .. ترفس وتثير الغبار وتسـعل وتعطس وتأتى على مدى الرقبة بأية حال!!

وكان له **كلب** ، تنظر اليه فتقول أنه لايساوى سحتوتا ، ولايحسن الا أن يتسكع على غير هدى لعله يتمكن من اختطاف ما يتفق ، ولكنـه لايلبث أن تضرب عليـه مراهنة من المراهنات بمقدار من المال حتى يتبدل كلبا غير الكلب ، وتبرز نيبانه من فكه ، ويلمع كاللهب ، وربما داعبه بعض الكلاب **ومرغته وعضتـه وألقت** به الى الارض مرة بعـد مرة ، ولـكن **أندروجاكسون** ــ وهذا اسمه ــ لاينشط الا على هواه ، ويرتفع مبلغ الرهان فى هـذه الاثنـاء ويتضاعف مصعدا حتى لامزيد، فأذا به فجأة يقبض على مفصل

الساق الخلفية من الكلب الآخر ويجمد على ذلك ، ولا يخطرن ببالك أنه يعمل أظافره ، بل كل ماهنالك أن يقبض عليه ويتشبث به الى أن يشهد الحكم بالغلبة ولو بعد سنة !

ولبث **سميلى** يخرج رابحا من المراهنة على هذا الكلب حتى جيء له بكلب مبتور الرجلين قطعتا بمنشار ، فلما بلغ الهراش أمده وارتفع مبلغ الرهان الى أوجه ، وعمد **أندرو جاكسون** الى حيلته المعهودة خاب حسابه ، وعرف مكيدتهم له ، فلاح عليه الدهش والانكسار ، ونظر الى **سميلى** نظرة عاتبة كأنما يقول له أن الذنب ذنبه لانه أتى له بكلب ليست له رجلان ، ثم ترك الرهان يأسا من الظفر ، وما زال يهزل ويبلى حتى نفق .. وما كان أعجبه من كلب **أندرو جاكسون** هذا ! ! لقد كان جديرا بالصيت الواسع لو أنه عاش . فقد كانت له همة ، وكانت فيه عبقرية ، وعرفت ذلك بالنظر اليه وان لم ينطق بكلمة . فما ينبغى لنا أن نرى حيوانا ابكم فنجرده من ملكات العبقرية لانه لايتكلم ، وما زلت حزينا يعاودنى الحزن كلما ذكرت موقفه الاخير من الرهان وكيف انقلب عليه !

على أن **سميلى** كانت له كلاب أخرى ، وكانت له ديكة وسنانير ، وكانت كلها من الطراز الذى لا يجارى ولا يتركك فى راحة أن تعرض عن رهانه ...

وذات يوم صاد **ضفدعا** وأخذه الى بيته ، وقال انه سيدربه ، فلم يكن له عمل خلال ثلاثة أشهر غير أن يجلس فى فناء داره ويعلم الضفدع كيف يقفز ، وتالله لقد نجح وعلمه! وما كان ليزيد على أن يغمزه فى مؤخره فلا تنقضى لحظة حتى تراه واثبا فى الهواء كأنه شظية بقلاوة .. ثم يهبط مستويا على أقدامه كأنه قط هابط ، وعلمه كذلك صيد الذباب فبلغ من مهارته فى الصيد أنه يتناول الذبابة على مد النظر .. وكان **سميلى يقول:** مابالضفدع من حاجة فى رياضة من الرياضات الا ان يتدرب عليها فلا يعييه شىء ! وقد صدقته ، وكيف لاأصدقه وانى لقد رأيت بعينى دانيال وبستر — نعم **دانيال وبستر** اسم الضفدع الذى نتحدث عنه .. رأيته بعينى يطرحه على الارض ويغنى له : الذباب يادانيال ! الذباب ! وقبل أن يرتد اليك طرفك تراه قد وثب

فى الهواء وعاد الى الارض كأنه قطعة من الطين ، وجعل يحك رأسه بقدمه كأنه لم يأت بعجب من العجاب لايأتى به ضفدع من بنى جنسه !! ولن تبصر بضفدع فى مثل هذا الحياء ومثل هذه الاستقامة ، فهو لاجرم ضفدع موهوب ، وما من ضفدع قط يجاريه حين يدخل السباق على الحلبة الممهدة ، فقد كان سميلى يراهن عليه بأكبر مقدار فى حسابه، وما كان اعظم فخره بضفدعه ! فأن أصحابنا الذين ساحوا وأكثروا من السياحة وشهدوا العجائب فى سياحاتهم قد سلموا معترفين للضفدع أنه فرد بغير نظير !!

وحفظ سميلى **الضفدع** فى صندوق مشبك ، ثم تعود ان يحمله الى المدينة حيث يراهن عليه، واتفق يوما ان زائرا طارئا على المحلة لقيه ومعه صندوقه، فسأله : ماعسى أن يكون فى هذا الصندوق ؟!

فقال **سميلى** : لعله ببغاء . لعله عصفور كنار ، لكنه لا هذا ولا ذاك .. انه ضفدع ..

فأخذ **الرجل** الصندوق وقلبه ونظر فيه ، ثم قال : وما نفع هذا الضفدع ؟!

قال **سميلى** فى غير اكتراث : نفعه شىء واحد .. انه يستطيع أن يسبق كل ضفدع فى هذا الاقليم : اقليم **كالفيرا !**

فعاد الرجل يتأمل الضفدع، وقال بعد أن أطال النظر اليه : مأرى فى هذا الضفدع مزية على غيره من الضفادع فى كل مكان .

قال **سميلى** : ربما .. وربما كنت أنت خبيرا بالضفادع، وربما كنت غير خبير ، وقد تكون من الهواة فى هذه الصناعة . أما أنا فعلى رأيى لاأتحول عنه ، وهذه أربعون ريالا **أراهن** بها على أنه يسبق لامحالة كل ضفدع فى الاقليم ....

وتريث **الزائر** الطارىء برهة يعيد فيها التأمل ويتدبر فى أمره، ثم قال : أننى غريب هنا وليس عندى ضفدع من ضفادع الاقليم . ولكننى اذا اقتنيت ضفدعا فسوف أراهنك عليه ..

عندئذ قال **سميلى** : حسن ماتقول . حسن . دع هذا الصندوق معك وسأمضى وآتيك بضفدع ...

وعلى هذا أخذ الزائر الصندوق وأعطى سميلى الاربعين ريالا وقعد ينتظر ...

وبعد هنيهة قضاها فى الانتظار والتفكير ، مد يده الى الضفدع فأخرجه ، وفتح فمه وحشاه برش الصيد : حشاه حتى الذقن ، وأرسله على الارض ... ومضى **سميلى** الى المستنقع يدور حول الوحل برهة ، حتى قبض على أحد الضفادع ، وقفل به الى الزائر الغريب فأسلمه اياه قائلا : دونك هذا الضفدع ان كنت على وعدك ، وضعه مع دانيال على سواء ، وسأنادى عليه : واحد . اثنين ... ثلاثة . اجر .. ويبدأ السباق ..

ولقد كان .. وغمز كلاهما ضفدعه ، فقفز الضفدع الجديد ، وأما **دانيال** فجثم فى مكانه وهز كتفيه فعل الفرنسى الذى لا يعنيه مايدعى اليه . وضاع النداء على غير جدوى . فقد جثم **دانيال** كأنه سنديان راسخ فى موضعه .. فدهش **سميلى** وتأفف مشمئزا ، ولكنه لم يدر ما الخبر ولا جرم .. !!

وقبض الزائر الريالات وانطلق لسبيله ، ثم وقف عند الباب ولمس دانيال بإبهامه وردد ماقال آنفا : لعمرى لا أرى فى هذا الضفدع مزية على سائر الضفادع فى كل مكان .. !!

أما **سميلى** فقد لبث يحك رأسه وينظر الى دانيال ، ثم قال أخيرا : تالله لا أعلم ماذا أصابه . وأحسبه قد انتفخ على غير ما أعهد ، ثم أمسك به من عنقه ورفعه وهو يقول : ويحى . لعن الله سنانيرى جميعا ان لم يزن بهذه الحالة خمسة أرطال ، وقلبه ظهرا لبطن ، فسقط منه ملء كفين من رش الصيد ، فعلم دخيلة الامر ، وجن جنونه ، وأرسل الضفدع من يده ، وعدا وراء الزائر الغريب يريد اللحاق به ، فإذا هو قد اختفى بين الارض والسماء ...

***

وسمع **سيمون هويلر** اسمه ينادى عليه من الفناء الخارجى ، فنهض مستجيبا والتفت عند الباب الى من يقول : مكانك أيها الضيف . انني لن أغيب ...

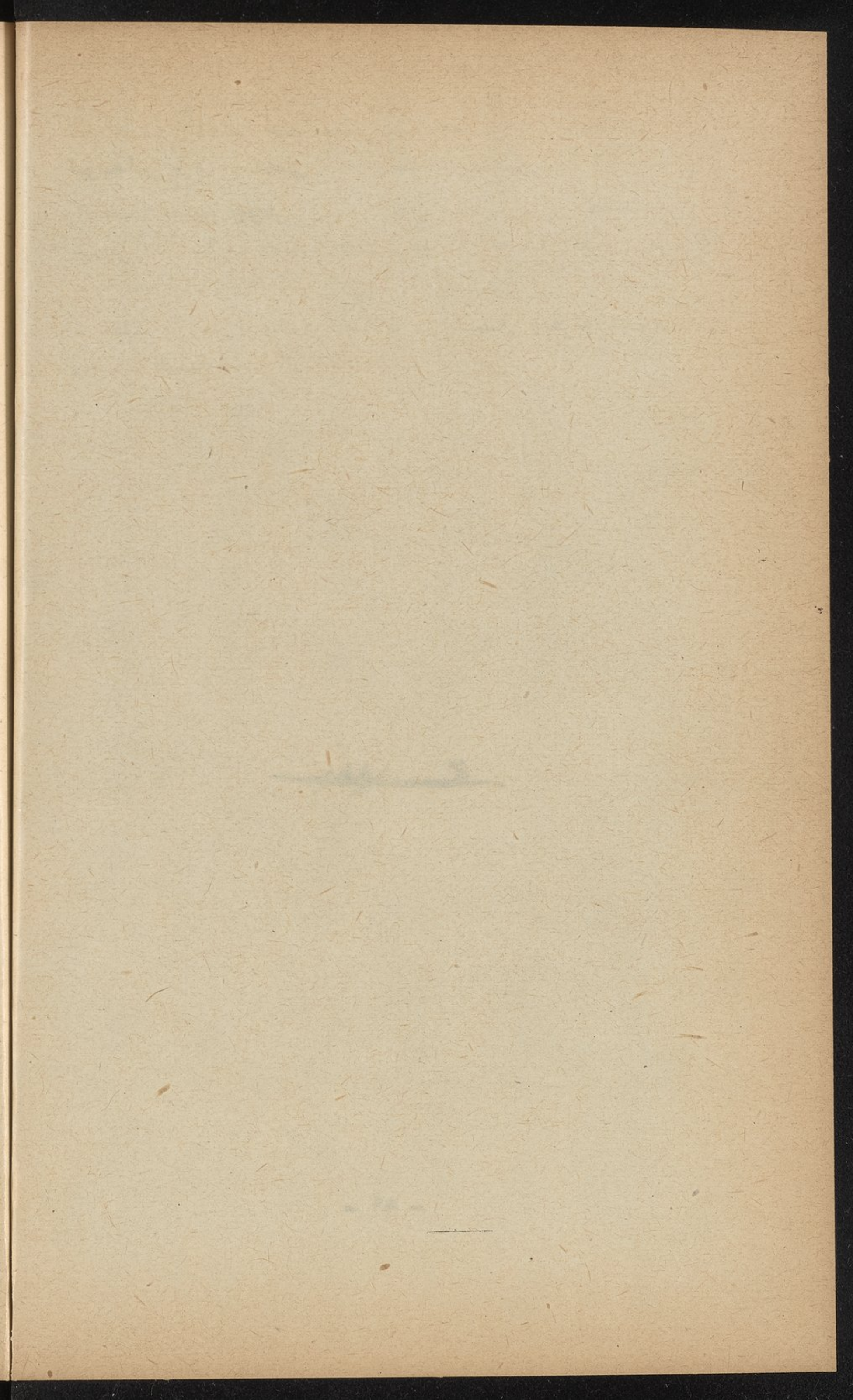
الا أننى أرجوك المعذرة ، فما كان لى أن أترقب من بقية أخبار

ذلك المتشرد المخاطر **جيم سميلى** بيانا نافعا عن سيرة الاب الموقر **ليونيداس . و . سميلى** ....ونهضت للمسير .

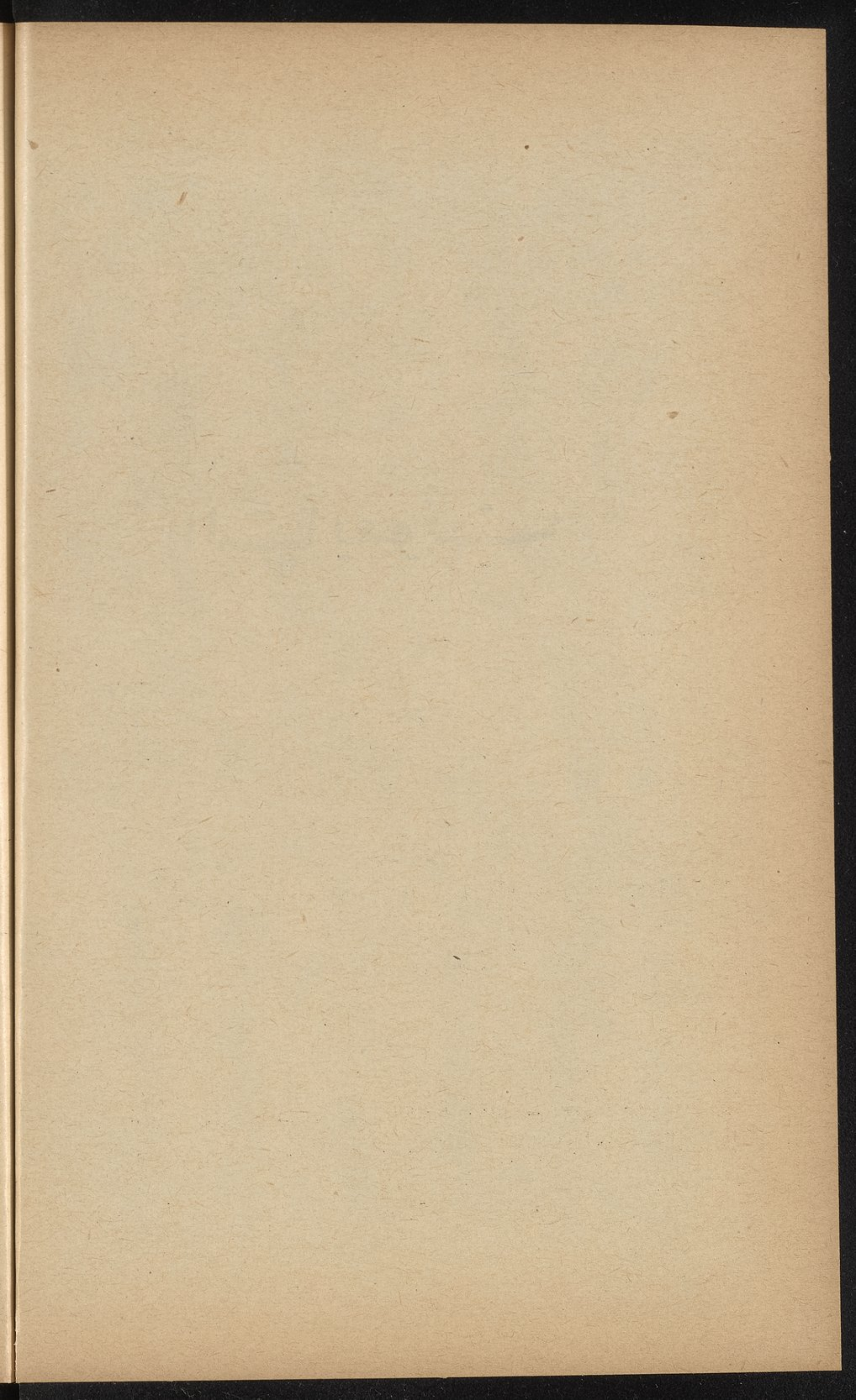
فلما التقيت **بهويلر** الوذود الحفى عائدا ، اذا به يجذبنى من عروتى ويستـأنف قصتـه قائلا ولقد كان لسميلى بقرة صفراء عوراء بتراء ضئيلة كأنها القزم ...

فقلت فى رفق وهوادة : لعنةالله على **سميلى وبقرته** المشوهة، وحييت **الشيخ** تحية الوداع ، وعدت أدراجى ...





التابعون



توماس بايلى الدريخ

Thomas Bailey Aldrich

١٨٣٦ - ١٩٠٧

ولد فى **بورتسموث** ، وقال عن نفسه أنه ان لم يكن « **بوستنيا** » أصيلا فهو « بوستنى مصفح أو بوستنى مطلى » ، مات والده وهو فى السادسة عشرة ، فحال ذلك دون انتظامه فى سلك التعلم العالى ، واضطر الى عمل كتابى فى بعض معاهد الاعمال بنيويورك ، وأصدر ديوانه الاول وهو دون العشرين ، ونضج حين توفر على كتابة القصص الصغيرة ، فكانت قصته التالية من ثمرات فنه الناضج وهو فى السابعة والثلاثين . . وقد كان يراسل صحيفة **نيويورك تريبون** من الميدان أثناء الحرب الاهلية ، فذاعت شهرته فى ميدان الصحافة ، ولكنه ثاب الى مسقط رأسه **بوستون** حنينا الى ذلك المنشأ الذى كان لا ينساه ، وعكف على تحرير مجلتها الاسبوعية المسماة « **كل سبت** » فارتفع شأنها بفضله بين صحافة الاقاليم ، وربح من عمله الصحفى وعمله الادبى قدرا من المال يسر له تحقيق أمنيته من الطواف بالقارة الاوروبية ، وقد كتب فى بعض فصوله يقول ان الناس يأخذون الكاتب بأسلوب قصصه وفصوله ، فينتظرون منه حديثا فى مجالسه كالاحاديث التى يرويها على قرطاسه ، ولكنهم يظلمونه ، ولايحق لهم أن يحاسبوه بهذا المعيار فى مجالسه بين صحبه وعشرائه .. على أنه لم يكن فى الواقع من الكتاب الذين تتفاوت قدرتهم على الكتابة وقدرتهم على الحديث ، **بل** كانت تلازمه فى مجالسه هذه اللباقة التى يراها القارىء فى

القصة التالية التى تدور على خلق شيء من لا شيء أو خلق قصة بغير حوادث وبغير أبطال، ولهذا استحب صحبته كثير من كبار أدباء عصره ، ومنهم **مارك توين واونجفلو ولويل** وغيرهم من هذه الزمرة .. ولا تخلو قصة له من هذه اللباقة وهذه البراعة « **الشخصية الفنية** » وان لم يكن على نصيب كبير من العمق والاستيفاء .. ونزعته العامة فى فنه وآرائه العامة أقرب الى المحافظة مع السماحة فى النظر الى سائر الآراء .

مارجورى داو

بقلم توماس بايلى الدريخ
Thomas Bailey Aldrich

(١)

من الدكتور ديلون الى ادوارد دلانى عند الصنوبرات بجوار رأى .. ، همبشير الجديدة ..

٨ أغسطس سنة ـ ١٨٧ :

يسعدنى يا سيدى أن أؤكد لك أن القلق الذى يخامرك لا يقوم على أساس . ان **فلمنج** سيلازم السرير ثلاثة أسابيع أو أربعة ، وعليه أن يحترس أول الامر فى تحريك قدمه . فان صدعا من هذا القبيل لمتعب على كل حال ، ولحسن الحظ كان **الجراح** الذى وجد فى الصيدلية عند نقل **فلمنج** اليها قد أحكم تجبير العظم واعاده الى موضعه ، فلست أخشى من تخلف أثر دائم لهذه السقطة ، ان بنية **فلمنج** تحتمل الصدمة أحسن احتمال، ولكن الحالة النفسية السيئة التى يعانيها تزعجنى ، وانه لآخر انسان بين الناس يطيق أن تفقد ساقه .. وانك لتعلم خلقه واندفاعه ونشاطه الى الحركة . . وانه لا يستريح ولا يهدأ الى أن يهجم الى غرضه ، كالثور الذى يلوح له بالشال الاحمر . . ولا يفارقه مع ذلك لطفه . أما الآن فهذا اللطف قد فارقه والتهب مزاجه .. وقد جاءت **السيدة فلمنج** من **نيويورك** حيث تقيم الاسرة للمصيف ، كى تمرضه وتشرف على راحته ، ولكنه طردها فى اليوم التالى ، باكية منكسرة . وقد أتينا له بمجموعة كاملة من قصص **بازاك،** سبعة وعشرين مجلدا على مقربة من سريره ، يقذف بها **واتكنز**

ذلك الرجل الوديع الخدوم ، كلما أقبل اليه بطعامه .. وقد حملت اليه بالامس – خالى الذهن – سلة من الليمون ، وقد كانت قشرة **ليمون** كما تعلم هى التى أزلقت قدمه فكسرت ساقه . فما هو الا أن لمح الليمون حتى ثار ثورة لا أدرك كيف أصفها .. : وما هذه الا واحدة من ثورات كثيرة ، ولعلها أهونها وأخفها .. ! ويحدث فى غير هذه الحالة أن يجلس مطرقا فيطيل النظر الى ساقه المكسورة فى صمت وحسرة وقنوط ، فاذا استولت عليه هذه النوبة – وقد يمر عليه اليوم وهو مأخوذ بها – فلا شىء قط يسرى عنه حزنه وانقباضه ، فيعاف الطعام ويعرض عن قراءة الصحف ، ولا يشوقه الكتاب الا أن يكون قذيفة يرمى بها واتكنز .. فحالته فى الواقع مما يستدر الاشفاق .

على أنه لو كان فقيرا ، وكانت أسرته تعول على عمله اليومى ، لكان هذا الهياج وهذا القنوط معقولين منه طبيعيين ، ولكنهما شنيعان من **فتى** فى الرابعة والعشرين ، موفور الثراء ، لا يضطلع بهم من هموم العيش . فان ظل هكذا مستسلما لثورات غضبه فقد يتعرض لالتهاب المفصل الذى كسره .. وقد بلغت حيرتى غايتها فى علاج أمره ، فانى أعرف العقاقير التى تنيم وتذهب الالم ، ولا أعرف عقارا يروض من يتناوله على التعقل وحسن الادراك ، وان هذه « الوصفة » لفوق طاقتى ، فلعلها ليست فوق طاقتك ، اذ أنت **صديقه** الحميم وموضع سره .. فاكتب اليه .. اكتب اليه بلا انقطاع ، وادخل الى قلبه السرور ، واحمه أن يصبح فريسة دائمة لآفة السوداء ، ولا يبعد أن يكون فى نيته بعض الخطط التى عاقتها هذه الصدمة ، فان كان ثمة خطة كهذه فانك لخليق أن تعلمها ، وتعلم كيف تسدى اليه النصح فى هذه المحنة . وأحسب أن أباك يرى من الخير ما حدث من تغيير ، واننى يا سيدى مع احترامى وتحياتى .. الخ الخ .

(٢)

من ادوارد دلانى الى جون فلمنج وست شارع ٣٨ نيويورك

٩ أغسطس

عزيزى **جاك** ..

وصلت الي هذا الصباح بضعة سطور من ديلون ، وسرنى أن اصابتك لم تكن من الخطر بحيث توهمت من الخبر ، وانك لست كبعضهم على ما تصبغ به صورتك من **سواد** ، وسيردك **ديلون** كما كنت خلال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع اذا اعتصمت بالصبر واتبعت وصاياه . هل وصلت اليك كلمتى يوم الاربعاء الماضى .. ؟ لقد أزعجنى كثيرا سماعى بالحادث الاليم .. !

وأننى لا أستطيع أن اتخيلك فى سكينتك وقد اشتد وثاقك فى الجبائر والضمادات ، وانه لفساد ذوق أن يحدث هذا ونحن نمنى نفسينا بشهر ممتع على الشاطىء ، ولكن علينا أن نتلقاه بما يستطاع من احتمال ، وانه لمن عثرات الحظ مع هذا أن تسوء حالة أبى فيتعذر على أن أفارقه على هذه الحالة ، وأحسب أنه قد تقدم كثيرا لان هواء البحر يوافق تكوينه ، ولكنه لايزال بحاجة الى ذراعى يعتمد عليها ، والى انسان يعنى به فوق عناية الخدم ، فليس فى وسعى أن أخف إليك أيها **العزيز** . الا أننى فى سعة من الوقت للكتابة اليك ، وفى ميسورى أن أواليك بمكتب بريد كامل ان كان فى ذلك ما يسرى عنك ويسليك .

والله يعلم أننى لا أجد هنا ما يستحق أن يكتب عنه ، فليس الامر هنا كما تعهد فى مساكن الشاطىء ، فكنت أكتب لك عن أنماط من الشخصيات وألوان من الناس ، وأفعم خيالك بطوائف من ربات البحر ذوات الغدائر السود أو المذهبات ، رفافات على الظهور والاكتاف ، وأريك « **أفروديت** » نفسها فى كسوة الصباح ، وفى حلة المساء ، أو لباس الحمام . الا أننا بعيدون ـ جد بعيدين ـ من هذه المناظر وأشباهها ... وكل ما لدينا حجرات فى بيت من بيوت الريف على مفترق الطرق ،

وعلى بعد ميلين من الفندق ، نعيش على أتم هدوء وفراغ .

وليتنى كنت من كتاب **القصص** . . اذن لكان لدينا مجال لكتابة قصة صيفية فى هذا المأوى العتيق بأرضه الرملية ، ووزره العالى . ونوافذه الضيقة مشرفة على وشائج الصنوبر التى تحيل أغصانها كلما هبت الريح أوتارا تعزف عليها ، ومن حقها أن تكون قصة تعطرها أنفاس الغاب ونسمات الامواج . من حقها أن تكون قصة من قصص ذلك الروسى .. وما اسمه على فكرة .. ؟ **تارجنيف .. تويرجنيف .. تيرجنيف .. ؟** من يدرى كيف يتهجون حروفه .. ؟

وأثوب الى نفسى فأقول : ترى هل يستطيع أحد وأن كان **ليزا** أو **الكسندرا باولوفا** أن يشجى قلب رجل تنكأه وخزات ساقه هنيهة بعد أخرى .. ؟ هل تستطيع **فتاة** من فتياتنا على أحسن نماذجهن من الخيلاء والرشاقة أن تسليك فيما أنت فيه من شجن وأسى . . ؟ لو أمكن هذا لبادرت الى الفندق واصطدت واحدة منهن أو عثرت عليها هنا او هناك ! !

مثل لنفسك بيتا كبيرا مواجها لكوخنا على مفترق الطريق ، واعلم أنه ليس بالبيت لانه أحق أن يسمى القصر أو الايوان ، قد شيد على ما أظن فى حقبة من حقب الاستعمار ، فاتسعت رحابه ، وارتفعت سقوفه ، وأحاطت به الافاريز الفساح من جهات ثلاث : بناء فخور معتد بذاته يضرب بأنفه فى السماء ، وينتحى جانبا من الطريق ، وتحف به أشجار الدردار والبلوط والصفصاف .. ويحدث أحيانا فى الصباح وأكثر من ذلك فى المساء ، عند انحسار الشمس عن ذلك الجانب من القصر ، أن تخرج الى الافريز **امرأة** فتية ، بيدها نسيج تعمل فيه أو كتاب ، وهنالك أرجوحة من أغصان الاناناس تبصرها من هنا .. وان الارجوحة لجد لائقة بالفتاة فى الثامنة عشرة ، وبالغدائر الذهبية والعيون السود والثياب الهفهافة الزمردية ، من طراز الحسان المصورات على خزف درسدن ، كأنها حسان عصر **لويس الرابع عشر** ، وكل هذه الملاحة تذهب الى الارجوحة ،

وتترنح جيئة وذهوبا ، كأنها ريحانة الاصيل ترف على الغدير .. وتطل النافذة على ذلك الافريز وأطل أنا كذلك .. !

وبعد . فكفى من هذا الهراء الذى لا يجمل بشاب من زمرة رجال القانون يصاحب أباه الشيخ المريض فى أجازة الصيف . ارسل الي سطرا أيها العزيز **جاك** ، وقل لى كيف أنت . . صف لى ما تعانيه ، وأسهب فى هدوء . وحذار أن تسب أو تثور ، فأستعدى عليك القانون . . !

(٣)

من جون فلمنج الى ادوارد دلانى

١١ أغسطس

كان خطابك يا عزيزى « **نيد** » نجدة سماوية . وتصور جلس فراش مثلى لم يعرف **«يوم مرض»** قط منذ ولد .. ! ان ساقى اليسرى لتزن ثلاثة أطنان ، وانها الملفوفة بالكتان والتوابل كأنها المومياء ، ولا قبل لى بالحركة ، فما تحركت منذ خمسة آلاف سنة .. من زمان الموميات على أيام فرعون ..!

اننى أرقد من الصباح الى المساء على كرسى طويل أحملق فى الشارع الساخن ، وكل أحد ما عداى خارج من داره يروح عن نفسه ، ويخيل الي أن البيوت التى تلقانى بوجهها الحجرى الداكن من جانب الشارع الآخر توابيت أضرحة مرصوصة أمامى .. ويسفو التراب على الالواح التى نقشت عليها أسماء المنتقلين الى رحمة الله ، وتنسج العناكب الساخرة خيوطها على ثقوب الاقفال .. وكل ماتراه صمت وتراب وخراب . . وأقطع الحديث الآن لأحيى **واتكنز** بالجزء الثانى من **«قيصر بيروتو»** .. أخطأته .. واخال أننى أستطيع أن أصيبه بنسخة من **سان بيف** او **القاموس العام** لو وجدته .. فهذه الكتيبات من

قلم **بلزاك** لا تناسب كفى ، ولكننى مستهدفه مهما يكن من الامر .

.. ويخطر لى أن **واتكنز** يداعب مخزن الشيخ بما فيه من ودائع الخمور .. ان نوتة الشتاء تحتل المنظر أمامى ، وان **خوفو** الفتى فى الدور الاعلى مشتمل بقماطه ، وان **واتكنز** لينتقل الى حجرتى بسحنته الشاحبة المنافقة ، مسحوبة كمنفاخ « **الاكرديون** » .. ! واننى لاعرف أنه يبتسم طول الطريق على السلالم مسرورا بانكسار ساقى .. ألم يكن كوكب نحسى فى أوجه ساعة هرولت الى المدينة لاحضر العشاء فى مطعم **دلمنيكو** ؟ اننى لم آت المدينة لهذا ، وما كان لى مأرب الا أن أشترى فرس **لفنستون** الكميت ، وهاأنذا مقيد دون الوثوب على السرج شهرين ، وسأرسل اليك **الفرس** بعنوان الصنوبرات .. أليس هذا هو اسم المكان .. ؟

ان الشيخ **ديلون** يخال بى مسا من الجنون ، وهو الذى يجننى بليمونه . وتصور مصابا بعقله يعالج **بالليمون** ! ..

هذيان !! وما بى الا القلق ـ قلق الشيطان ـ فى هذه القيود والقماقم ! وما كان هذا مما تعودت يوما من الايام ، وماظنك بانسان لم يعرف صداعا ولاوجعا فى سن مدى حياته ، يلفى نفسه مغروسا فى حجرة بالمدينة أسابيع ، وهو يستقبل لفحات الهواء الحار ؟ .. أتظنك تراه مبتسما متنعما سعيدا كما يرام ! . خرافه لاتعقل ، وما أنا بمطيق أن ألوذ بالسكينة والاطمئنان !!

ان خطابك اول شىء فيه عزاء وجدته منذ نكبتى قبل عشرة أيام . لقد استنهضنى الى السرور نحو نصف ساعة .

أرسل الى رقعة كلما استطعت ، وكل شىء يغنى ان كنت تحبنى . وزدنى من أخبار **الفتاة فى الارجوحة** ، فقد كان كل أولئك ظريفا منك حقا : كان ظريفا تشبيهك نخزف درسدن وريحانة الغدير ، ولعل التشبيه مختلط بعض الاختلاط الا أنه ظريف .

ولا أظن لديك أثاث « فنان عاطفى » فى الدور الثانى ، وذلك يدل على أن المرء قد يألف حجرة الاستقبال فى دار صاحبه

سنوات ، ولا يدرى ماتحت سقفه الاعلى ، واخال أن علوك مشحون بالاوراق القضائية الجافة ، وأسانيد الرهون والاقرارات ، وتتلقف ثم رزمة من المخطوطات .. فماذا ترى؟ ترى ثمت قصائد وأغانى وموشحات ، وانك حقا لصاحب ملكة فنية قادرة على الوصف يا **ادوار ديلانى** .. و **((أتهمك))** أنت بتأليف تلك القصص الغرامية التى تنشرها المجلات بغير امضاء .. !

سأستوحش كالدب الى أن أتلقى منك خبرا آخر ، فأخبرنى عن **صويحبتك** المجهولة على عرض الطريق . ما اسمها ؟من هى ؟ من أبوها ؟ أين أمها ، من عشيقها ؟ انك لاتستطيع أن تتخيل كم أجد فى هذا واشباهه من تزجية فراغ ، وكلما زادت تفاهته زاد حسنه !!وان اعتقالى قد أوهن ذهنى فأحسست أن ملكاتك الكتابية ذات بال ، واننى لأنمو الى طفولتى الثانية ، ولن يمر بى أسبوع أو أسبوعان حتى أشغل بخواتم المطاط ولعب المرجان .. ولتكونن كاس من الفضة عليها نقش مناسب تحفة لطيفة من عنايتك . وأكتب مع هذا قبل كل شىء .

(٤)

١٢ أغسطس :

سوف يتسلى **الباشا** المريض . بسم الله . انه يأمر بهذا . فاذا أسرف القصاص فى الثرثرة المملة ، فغرارة وحبل ونوبيان ورمية الى البحر تجعله طعاما للاسماك . لكن الحق يا **جاك** أن مهمتى عسيرة ، وليس لدى هنا شىء الا حكاية تلك **الفتاة** على عرض الطريق . انها تترنح فى الارجوحة هذه اللحظة ، وانه ليعوضنى عن كثير من خسائر الحياة أن أراها حينا بعد حين قد لبست حذاءها الذى يلائم قدميها ملاءمة القفاز للكفين ،ثم تنطلق لشأنها . من هى ؟ وما اسمها ؟ ان اسمها **داو** ، وهى البنت الوحيدة للمستر **ريشارد . و . داو** الضابط السابق

والمصرفى الآن .. أمها ميتة . لها أخ بجامعة **هارفارد** ، وأخ أكبر منها قتل بمعركة « **فيرأوكس** » منذ تسع سنين . وان **الداوين** هؤلاء قوم أغنياء ، وهذه هى الدار التى يقضى فيها الاب وبنته ثمانية شهور من الاثنى عشر ، وأما بقية السنة فتقضى فى **بلتيمور وواشنطون** ... وشتاء **نيوانجلاند** كثير على الشيخ الكبير ! وتسمى الفتاة مارجورى – **مارجو داو** ... اسم يرن فى الاذن غريبا لاول وهلة .. اليس كذلك ؟ لكنك بعد أن تكرره بين شدقيك ست مرات أو نحوها تألفه وتحبه . ففيه رقة لذيذة .. فيه شىء من الاناقة ونفحة بنفسجية . ولا بد أن تكون فتاة ظريفة كى تدعى **مارجورى داو** ..!

لقد كان مضيفنا فى الصنوبرات شاهد القفص أمام محكمتى الليلة الماضية ، ومنه سمعت هذه الشهادة . انه كان وكيلا على حديقة الخضر التى يملكها مستر **داو** ، وله علم بشئون الاسرة كافة خلال هذه السنين الثلاثين ، وغنى عن القول اننى سأتعرف الى جيرانى خلال بضعة أيام ، فلعله يقارب المستحيل قليلا الا التقى بمستر **داو** والآنسة **داو** فى بعض منازهى ورياضاتى . **والفتاة** تتخذ لها ممرا مختارا الى الشاطىء ، وسأعترضها يوما وألمس لها قبعتى ، فتحيينى **الاميرة** تلك اللحظة برأسها الجميل تحية دهشة لا تخلو من ترفع !! وستصدمنى فى الواقع ، وكل هذا من أجلك ياعزيزى الباشا . فما أعجب ما تحدث الامور ! ... قبل عشر دقائق دعيت الى الردهة ، ولا تجهل أنت الردهات فى منازل الريف على الشاطىء ، فانها على نوع ما بحرية برية ان صح هذا التعبير ، وفيها الصدف موضع المدفأة ، وأغصان «التنوب» موضع المدخنة .. وثمة وجدت **أبى** ومستر **داو** يتبادلان ايماءة التحية والمجاملة على النهج القديم . لقد جاء يقدم احترامه الى جيرانه .. وهو رجل طوال نحيف يناهز الخامسة والخمسين بوجه أزهر ، وشارب مبيض كالثلج ، وعوارض على الخدين ، ويشبه مستر **دومبى** ، أو يشبه مستر دومبى لو أن هذا قضى

سنوات فى الجيش البريطانى . لقد كان مستر **داو** ضابطابرتبة **العقيد** فى الحرب الاخيرة ، يقودالكتيبة التى كان فيها ابنه برتبة **ملازم** . ياله من فتىشجاع فى شيخوخته . كأنما نحتت فقاره من صخرةهمبشيرالجديدة ، وقد أنهى الينا قبل مبارحته أمرا كالأمر العسكرى بالحضور فى الساعة المعينة لتناول الشاى ، وسيحضرالدعوة معنا طائفة من أصدقاء الآنسة **داو** نحو الساعة الرابعةليلعبوا الكروكى على الساحة ، ويشربوا الشاى « البارد » علىالافريز .. أترى أن نشرفهم بحضورنا ؟ .. ان **أبى** يعتذربالمرض ، **وابن ابى** ينحنى بما فى وسعه من حركات التحيةوالعرف ويتقبل الدعوة !!

وفى خطابى التالى فرصة للافاضة فى الحديث . اذ أكون قد لاقيت الجميلة **الصغيرة** وجهالوجه . ان قلبى يحدثنى سلفا **ياجاك** .. وأزعم أن هذه الداوطير نادر ياصاح .. .. ادخر نشاطك يابنى حتى يأتيك خطابى التالى ، واكتب لى بأسهاب عن ساقك أيهاالعزيز .

(٥)

من ادوارد دلانى الى جون فلمنج

١٢ أغسطس :

لقد كانت الصحبة على أتم ما يكون من الكآبة .. **ملازم** من البحرية **وقسيس** من الكنيسةالرسولية فى **ستيل واتر** ، وجلس مجتمع من **ناهانت** . ويلوح الملازم كأنه قدابتلعزوجا من أزراره وأحس بعسر الهضم بعد ابتلاعها ، وقسيس الكنيسة فتى متأمل مفكر من زمرةالمتوقرين ، وجلس المجتمع أهزل من موجة الجزر الضعيف !.. أما النساء فأحسن كثيرا من ذاك : الآنستان **كنجزبرى** من فلادلفيا نازلتان بفندق الشاطىء ،

وهما فتاتان جذابتـــان . ولكن ما القول فى الآنسة **داو** ياترى؟

لقد انفض الرهط على الاثر عقيب تناول الشـــاى ، وبقيت لأدخن سيجاراً مع العقيد على الافريز . وكان نظرى للآنســة كأنما أنظر الى صورة متحركة ،وهى تحوم حول الجندى العتيق وتؤدى له مئـــات من التوافه الجميـــلة !! جاءت بالســـيجار وأشعلته بأصابعها اللطـــاف ،بأسلوب غاية فى الاناقة والرقة الساحرة ، وكانت تذهب وتعود فى نور الشفق الصيفى ، كأنها فى ثيابها البيض وشعرها الذهبى طيف تولد من لفـائف الدخان ، ولو انها تبخرت هواءا كما يقال عن تمثال **غلاطية** فى المسرحية ، لكان فى هذا مايحزن ، ولم يكن فيه مايستغرب .

ومن اليســـير أن نلحظ من النظر اليهمـــا أن أباها الشيخ يعبدها وأنها هى تعبـــد أباها الشيخ ، ويخيل الى ان الصلة بين **أب** متقدم فى السن و**فتـــاة** تزدهر فى مطلع الانوثة أجمل مايكون من الصلات ، لانها تنطوى على عاطفة خفية لاتحس فى صلة الأم بالبنت أو صلة الابن بالام . . لكننا نغوص الآن فى العميق!

بقيت مع **الداوين** الى منتصف الحادية عشرة ، وشهدت القمر يطلع على الامواج ، واذا بالمحيط الذى يمتد فى ظلامه الهـادىء حيال الافق كأنما تحول بسحر ساحر الى ميدان متـــألق من الثلوج المتكسرة ، تتخلله خلجان فضـــية باهرة ، وعلى البعـــد جزائر **شول** تتبلج كأنها التـــلال الثلجية مقبلة علينا . منـــاظر القطب فى منتصف الصـــيف !ياله من جمـــال يفوق وصـــف الواصفين !!

فيم ترانا نتكلم ؟. نتكلم عن الجو .. وانت ماذا لديك ؟لقد كان الجو على غير المرام فى الايام الاخـــيرة ، وكـــذلك كان الجـــو عنـــدكم ، وهـــآنذا منزلق من حديث الى حديث بغير كلفة . وقد أخبرت أصحابنا بحادثتك،وأخبرتهم كيف أنها نكثت غزلنا للصيف كله ، وماذا كان من ذلك الغزل المـــأمول ، وعزفت على المفصل نشـــيدا أحاديا يروق ويشوق ، ثم وصـــفتك أو على الاصح لم أصفك ، بل تكلمت عن ظرفك، وعن صبرك وطول أناتك ، وعن شكرك الاخاذ للدكتور **ديلون** كلما ألطفك بهـــداياه من الفواكه والثمار ، وتكلمت عن حنانك مع أختك « **فانى** » التى لم تسمح

لها بالبقاء معــك فى المدينــةلتمريضك ، وكيف أعــدتها ــ ببطولة ــ الىنيوبورت ، وآثرتالمقام مع **مارى** الطاهية **واتكنز** خادمك الامين . . ذلكالواتكنزالذى تعطف عليه وتواليه ! ولو أنك كنت معنا اذ تكلمنا عنــكيا جاك لمــا عرف عمن نتكلم ، ولعلنى كنت أفلح فى المحاماةعنالجناة لو لم يتجه بى الاختيار الى فــرع آخــر من فــروعالقانون .

وسألت الآنسة **مارجورى** ألوانا من الاسئلة « الرئيســية » عنك وعن أحوالك ، ولم أفهــمتلك الساعة كما فهمت بعد أنها كانت معنية بالحديث . فلمــاعدت الى حجرتى تذكرت كيف كانتتقبل مهتمة متطلعةبجيدهاالناصع فى ضوء القمر مصــغية لما أقول ، ويبــدو لى أننى قدجعلتها تميل اليك ..!

ان الآنسة **داو** بنت تعجبككثيرا ولا أكتمكالقول : جمــال بغير تكلف ، وخلق رفيع حنوناذا كــانت الارواح تقــرأ من صــفحات الوجوه ... وكذلكيبدو على العقيــد الشيــخ انه انسان نبيل .

واننى لمغتبط أن أجد**الداوين**بهــذا اللطف والدماثة ، فان الصــنوبرات مــكان موحش ،وذخيرتى جد قليلة .. وقدكان يوشك أن أمل المقام هنا بغيــرصحبة غير صحبة السيدالوالد الجنيــل . وصحيح اننى كنتخليقا أن أتخذ منالشيخالمريض الاعزل ... ولكننى لا أهوى المدفعية كما تعلم .. أنا ؟ حاشاى!

(٦)

من جون فلمنج الى ادوار دلانى

١٧ أغسطس :

كثير على رجل لايهوى المدفعيةمثلك أن يحتفظ بهــذه النــار التى يصمينى بها من الداخل .لكن تقدم .. ان التهكم الساحر

درع نحاسية صغيرة قد تتصدع وتتشظى وتقتل المدفعى الذى يحتمى بها !

ولك أن تنحى على كما تشتهى، وليس لى أن أشكو .. اذ لا أعلم ماذا كنت صانعا لولا رسائلك . انها تداوينى ، ولم يحدث منذ الاحد الماضى اننى قذفت **واتكنز** بكتاب واحد : من جهة لاننى تقدمت فى اللطافة والمسامحة بفضل تعليماتك، ومن جهة أخرى لان **واتكنز** قد استولى على ذخيرتى ذات ليلة، وأعادها الى المكتبة، وانه ليتناسى على عجل تلك العادة التى تعودها ، اذ يقفز جانبا كلما رفعت يدى الى أذنى ، أو حركت ذراعى اليمنى أقل حركة! غير أنه لايزال يوحى الى الناظر علاقته بمخزن القوارير .. ولك أن تحطم واتكنز أو تمزقه . الا أنك لن تفقد من حول شظاياه رائحة الشراب !

نـد .. ! ان الآنسة **داو** تلك ـ لابد ـ شخصية ساحرة ، وأود لو أننى أعجب بها ،وقد أحسست بشىء يجذبنى اليها ، اذ قرأت كلامك عن الارجوحة فى رسالتك السابقة ، ولست مستطيعا أن أعلل ذلك أى تعليل ، وجاءت أحاديثك عنها بعد ذلك فزادت عندى ذلك الاحساس ، وتوهمت أنك تكلمنى عن امرأة رأيتها فى حياة سابقة ، أو حلمت بها فى هذه الحياة ، وأوكد لك أنك لو بعثت الى بصورتها الشمسية لميزتها بلمحة واحدة . فعاداتها فى الكلام والحركة ، وهيئتها وهى مقبلة بجيدها ، وشمائلها على الاجمال كما تنم عليها أحاديثك ـ كل أولئك من المألوفات لدى . أسألت كثيرا كما تقول ؟ أتتشوف الى أخبارى ؟ ان هذا لعجيب !

وانك لتضحك فى كمك أيها المتهكم الساخر الخبيث . تضحك فى كمك اذ تسمع اننى أطوى الليل يقظان وقد أصبح نور مصباحى كوميض النجم البعيد، مفكرا فى الصنوبرات والايوان على عرض الطريق !! ما أبرد النسيم هنا لك فيما أتخيل ، وما أشوقنى الى نفحة الملح فى الهواء !

أصور لنفسى **العقيد** الشيخ يدخن سيجاره فى الافريز ، وأبعث **بك** وبالآنسة **داو** معك فى جولات على الشاطىء ، وأدعك أحيانا تدلف معها فى القمراء تحت الشجر ، فانكما الآن لصديقان

حميمان ولا شك تتلاقيان كل يوم ! وهل أجهل أساليبك ووحائدك ؟

ثم أرتد الى غاشية من غواشى القلق ، فأود أن أبطش بأحد من الخلق ، وأن أسألك : أشعرت بأحد قط يحوم حول الحمى ؟ أيكثر ذلك **الملازم البحرى** أو ذلك **القسيس** من زيارة الدار ؟ لا أسأل هذا لاننى أذوب شوقا الى خبر عنهما ، وانما الخبر عنها على ما أرى مما ينتظم فى هذا السياق .

وأعجب لك انك لم تتعلق بهوى الآنسة **ياند** .. وأما أنا فقد نضجت عندى الرغبة فى غرامها . وقد أشرت آنفا الى الصور الشمسية ، فهلا استطعت أن تحتال على اختلاس بطاقة من مجموعتها ؟ لاشك أنها تحتفظ بمجموعة صور . واننى لواعدك أن أعيد الصورة اليك قبل أن تفطن لغيابها ..

هل وصلت **الفرس** سليمة آمنة ؟ لتكونن فى الموسم المقبل علما من أعلام **سنترال بارك** !

آه ياساقى ..! لقد نسيت ساقى .. ! انها الآن أحسن ولا تزال تتحسن .

(٧)

من ادوارد دلانى الى جون فلمنج

٢٠ أغسطس :

أنت على صواب فى تخميناتك، فانى **وجيرانى** لعلى أحسن صلات المودة ، **والعقيد وأبى** يدخنان سجاريهما عندنا أو فى الافريز المقابل لنا ، وأنا أقضى ساعة أو ساعتين كل يوم فى صحبة الفتاة، وتزيدنى الايام تقديرا لجمالها ووداعتها وذكائها !

وتسألنى مابالى لم أتعلق بغرامها ؟ وسأصارحك **ياجاك** دون مواربة . فقد فكرت فيما سألتنى عنه ، وانها لشابة وغنية ومهذبة،

ولهـا من الشـمائل العقليـةوالشخصـية ما لست أذكر له نظيرا فى جميـع من عرفت منالفتيات • الا أنهـا تعـوزها تلك الخصلة التى لابد منهـا عندىلاستثارة ذلك الضربمن الشعور فى نفسى ، وكل من أعوزتهـاتلك الخصلة المجهولة ، لن يكون فى وسـع الجميلة أو الغنيـة أوالفتية أن تسلمنى الى هواها ••!

الا الآنسـة **داو** • فلو أنسفينة جنحت بنا معا الى جزيرة خالية ـ ولتـكن من جزائر خطالاسـتواء التى لاتزدان شواطئها بالصـور والمنـاظر ـ لبنيت لهاخصا من ألفاف الشجر ، وقطفت لها الغذاء من الجوز والفـاكهة ،وشـويت لهـا الثمـر الشهى ، واسـتغويت السلحفاة الاريبـةفطبخت لها حساء منها••ولكننى لا أعشقها ولا أكاشفها بأناشـيدالغزل والهيـام ، ولو مضى علينا عام ونصف عام • ويشوقنى أنأتخذ منها **أختا** أحميها ، وأبذل لها النصـح والمشورة ، وأنفقنصف دخلى على أثمان الانسـجة من المخرمات ووبر الجمـال ،ولـكننا الآن لانزال على بعد من تلك الجزيرة عندخط الاستواء •!

ولو لم يكن هـذا شـعورىلكان هناك عائق آخر دون غرامى بالآنسة **داو** • فلا مصـيبة فىرأيى أعظم من مصيبة العـاشق الذى يهواها • وسـأكشف لك**يافلمنـج** عن أمر يدهشـك اذ تعلمه ! وقـد أكون على خطأ فىمقدماتى ، وعلى خطأ فى نتائجى ، ولك أنت أن تحـكم على هـذاوذاك •••

اننى ليلة عدت الى حجرتى بعدالانتهاء من لعبة **الكروكى**عندهم ، واسـتعدت فى ذاكرتى ما كانمن انتباه الآنسـة لحـديثى وأنا أتكلم عنـك ، (وأظننى ذكرتلك ذلك) •• فى صـباح تلك الليـلة لدن ذهـابى الى مكتبالبريد ، لقيت الآنسـة **داو** فى الطريق وصحبتها ذهابا وجيئـةنحو ساعة ، فدار الحـديث عنك مرة أخرى ، وعـدت مرة أخـرىألمح ذلك الانتباه على وجههـا ، وتكرر لقاؤنا عشر مرات ، فكنتأرى اننى لاأسترعى منها انتباها اذا لم يكن حديثنـا **عنـك** أو عن**أختك** أو عن شأن من شئونك ، وانها كانت تشرد بفكرها بعيـدامن حديثى اليها ،وتلعب بصفحات الكتاب فى يدها على نحو يقنعنى بانصرافهـا عن الاصغاء الى •••،

وجربت فى هذه الاحوال غير مرةأن أغير موضوع الحديث وأومىء الى صديقى **فلمنج** ، فاذا بالعينين الزرقاوين تقبلان على توا ، واذا هى مقبلة على الاصغاء !

فالآن ألا ترى ذلك من أعجب الامور؟ ٠٠ كلا انه ليس بالاعجب، فان وصفك لما سرى الى نفسك لمجرد الاشارة الى فتاة غريبة تجلس **فى أرجوحة** لا يقل عجباعن ذاك ، ولك أن تخمن كيف كان اجفالى حين عبرت فى خطابك يوم الجمعة تلك الفقرة ٠ فهل من الممكن أن يفترق اثنان على مدى مئات الاميال ثم يكون لكليهما من الايحاء المغناطيسى الى الآخر مثل هذا الاثر ؟ لقد قرأت عن أشباه هذه الظواهر النفسية ، ولكننى لم أصدقها ، وانى لتاركك لك حل هذه المشكلة ٠ أما أنا فمن المستحيل على - وان توافرت كل الظروف الاخرى - أن أحب فتاة لاتصغى الى حديثى الا اذا دار هذا الحديث على صديقى ٠٠

ولم ألاحظ أن أحدا يبدى اهتماما خاصا **بجارتنا** المليحة ، **فملازم** البحرية - وهو مقيم فى **ديفرموث** - يأتى مساء بعد مساء، **والقسيس** يأتى أحيانا ، ولكن زيارات الملازم أكثر ، وقد كان هناك بالامس ، ولا يدهشنى أن تكون له عين على **الفتاة** الوارثة ٠٠ الا أنه غير خطر ٠٠ ومن عادة **الآنسة** أن تصوب سهام السخرية من حين الى حين ، ومن السهل على الملازم كما يظهر أن يتدرع لتلك السهام ٠٠!

وأقول مرة أخرى انه ليس بالخطر ، وان كنت قد عرفت **امرأة** تسخر من رجل بضع سنوات ثم تنتهى بالسخرية الى الزواج ! ومن المحقق أن **القسيس** الكئيب ليس بذى خطر ، وان كنت أعود فأقول أيضا أن البعيد قريب ، وان القريب بعيد فى هذه الامور ٠

أما **الصورة** الشمسية ، ففى حجرة الاستقبال عند المدفئة صورة صغيرة ، يلاحظ اختفاؤها بنظرة واحدة لو أخذتها ،وسأعمل كل ما هو معقول من أجلك ،ولكننى لا أحب أن أمثل بين يدى المحقق هنا متهما بالسرقة !

استدراك — مع هذا زهرات من الخزامى أرسلها اليك ، وأنصح لك بالرفق فى تناولها . لقد عدنا الى الحديث عنك أمس على حسب العادة ، وقد أوشك هذا أن يملنى بعض الاملال !

(٨)

من ادوارد دلانى الى جون فلمنج

٢٢ أغسطس :

شغلنى جوابك طول الصباح ، ولست أدرى ماذا أفهم .. فهل تعنى أنك جاد حين تقول انك تكاد تعشق **الفتاة** التى لم تبصرها مرة من قبل ؟ أتعنى أنك مغرم بظل أو بخيال ؟ والا فماذا تكون الآنسة **داو** بالنسبة اليك غير هذا أو ذاك ؟

لست أفهمك أنت ولست أفهمها هى .. كلاكما كائن أثيرى يحوم فى جو ألطف وأشف من هذا الجو الذى تطيقه رئتاى الدارجتان . ومثل هذا اللطف الشفاف قد أعجب به ، ولكننى لا أفهمه . واننى لفى حيرة ، فنحن جميعا أرضيون من الارض ، ولكن أرانى بينكما أعيش فى عالم الارواح ، وأخشى عليكما أن أصدمكما بكثافتى الخرقاء ! اننى القدم **كليبان** بين الاطياف (١) .

واذا تأملت خطابك لم أجد من الحكمة أن أثابر على هذه المكاتبة .. لكن لا يا جاك . فانه لمن الخطأ أن أستريب بالجانب المعقول منك فى هذه القصة ، ، انك شغلت اهتمامك بالآنسة **داو** ، وتحس أنها انسانة قد تعجب بها كثيرا اذا رأيتها ، ثم تظن مع هذا أنك على احتمال عشرة الى خمسة قد تراها دون ماتصورت بكثير ، ولا تكترث لها بعد ذلك أقل اكتراث ، فانظر الى المسألة بهذه العين ، ولن ترانى أخفى عنك أمرا من الامور . .

وكبنا أصيل أمس **أنا ووالدى** مع **الداوين** الى **ريفرموث** ،

---

(١) يشير الى كليبان فى رواية العاصفة لشكسبير

وكان المطر الغزير فى الصباح قد لطف الهواء ووطأ ثائرة التراب ، والطريق الى **ريفرموث** قرابة ثمانية أميال تتلوى وتحف بها الاعشاب والشجيرات من جانبيها ، وما وقعت عينى قط على منظر أبهر من هذه الشجيرات ، واخضرار ورقها مع احمرار التوت عليها ، ونضرة ألوانها نقية مطلولة بعد مطر الصباح ، وكان **العقيد** يسوق المركبة ، والى جانبه **أبى** ، وكنت **أنا** والآنسة **داو** على المقعد الخلفى ، واعتزمت ألا أذكر اسمك فى الخمسة الاميال الاولى ، وسلانى أن أتعقب محاولاتها اللبقة لاغرائى بالحديث المعتاد ، ثم صمتت ، ثم عادت فجأة تطرب وتمزح ، ولم توفق فى توجيه هذه اللباقة الى توفيقها حين توجهها الى **العقيد** الشيخ ..! وان الآنسة **داو** لحلوة المزاج ، ولكنها تستطيع أحيانا ألا تروق وترضى ، وهى كالفتاة التى يقال عنها فى الاغنية:
« انها **طيبة** طيبة طيبة حين تكون طيبة ، وانها لمزعجة حين **لا** تكون .. »

وأصررت على عزيمتى ، ثم لنت بعض الشىء فى العودة ، وبدأت الحديث عن فرسك ، وهى تهم بتجربة سرج جديد عليها .. وهذه **الفرس** خفيفة بالنسبة الى وزنى ، وعلى فكرة : ان الآنسة **داو** جلست للتصوير أمس **فى ريفرموث** ، فاذا جاءت الصورة حسنة أخذت نسخة منها ، ونصل من ثم الى المقصود بغير حاجة الى جريمة ، ووددت لو تسنى لى أن أرسل اليك صورتها بحجرة الاستقبال ، فانها جميلة التلوين تريك مثال شعرها وعينيها ، مما لا يظهر فى الصورة الشمسية !

لا ياجاك .. الخزامى ليست منى . ورجل فى الثامنة والعشرين **لا** يودع رسائله الى رجل آخر هدية من الزهرات ، ولكن لا تبالغ فى تفسير مدلولها ، فهى تهدى الخزامى الى **الملازم** ، وتهديها الى القسيس ، واتفق يوما أنها أهدت وردة من صدرها الى عبدك ، فمن سجاياها المرحة أنها توزع الزهر كالربيع ..

ـ اذا لاحظت على رسائلى بعض التفكيك والاقتضاب ، فاعلم أننى لا أكتبها فى جلسة واحدة ، وانما أكتبها الفينة بعد الفينة كلما تهيأ المزاج ..

والمزاج الآن لا يريد أن يتهيأ .. !

(٩)

من ادوار دلانيالى جون فلمنج

٢٣ أغسطس :

عدت اللحظة بعد أعجب محادثة مـــع **مارجـــورى** . كادت تعترف لى بشـــغلانها بأمرك ،ولكن بأى حياء وأى وقار ؟!

ان كلماتها تروغ من قلمى اذ أحاول أن أسطرها على الورق ، والحق أن اسلوب القول ـ لا الـــكلمات المقـــولة ـ هو الذى يسترعى السمع والنظر ، وليس فى مقـــدورى تســـطير ذلك الاسلوب !

وربما جرى هذا الكلام مجرى القصة كلها من الغوابة ، فتبوح الفتاة تلويحا ـ لا تصريحـــا ـ لانسان ثالث بحب الانسان الذى لم تره قط قبل الآن !!

غير أننى فقدت ـ بفضل معونتك ـ ملكة الاستغراب ، ولا أنظر الى الامور الا كمـــا ينظر النـــاس الى مايشـــاهدونه فى الاحـــلام ! واما وقـــد رجعت الساعة الى حجرتى فالمســـألة تعاودنى كالوهم البعيد ! وهذه الظلال الوارفة واليراعات الرفافة ترقص حول أشـــجار التوت ،وهـــذه **مارجورى** جالســـة فى الارجوحة ـ أوهام فى أوهام !

جاوزت الســـاعة منتصف الليل ، ويغالبنى النوم فلا أطيق الاسترسال فى الكتابة ..

صباح الخميس :

سنح لوالدى فجأة أن يقضى أياما على البحيرات ، وسيمضى وقت قبل أن يصل اليك خبرمنى . أرى **مارجورى** تتمشى فى الحديقة مع أبيها . وددت لو كلمتها على انفراد ، وربما فاتتنى الفرصة قبل الرحيل ..

(١٠)

من ادوار دلانى الى جون فلمنج

٢٨ أغسطس :

كنت تنمو الى طفولتك الثانية . ألم تكن ؟

ان ذهنك قدهزل حتى أكبرت من قدر ملكاتى الكتابية ! .. ألم يهزل كما تقول ؟

لقد علوت فوق مرتفع السخرية الذى رفعتنى اليه برسالتك التى أنعمت بها فى الحادى عشر من الشهر .. علوت هذا العلو حين لاحظت مبلغ الحزن الذى أوقعك فيه انقطاعى عن الكتابة اليك خمسة أيام ..

عدنا هذا الصباح من **أبلدور** تلك الجزيرة الساحرة ، واليوم فيها بأربعة ريالات .

وجدت على مكتبى ثلاث رسائل منك ، ولا ريب انك **لا** تدع عنك بقية من الشك فى سرورى بالكتابة اليك وتلقى الكتب منك!

ليس على تلك الرسائل تواريخ ، وآخرها فيما أحسب يحتوى عبارتين جديرتين بالتوقف لديهما ، ولاتؤاخذنى ياعزيزى **فلمنج** اذا قلت لك ان رأسك يضعف كلما قويت ساقك ، وانت تسألنى النصيحة فى أمر معلوم ، فاسمع منى هذه النصيحة ، واعلم أنك لن تقدم على أمر أحمق من الكتابة الى **الآنسة** بالشكر على أزهارها ، فانك لتجرح رقتها جرحا لاغفران بعده ولامسامحة ، وهى لاتعرفك الا من طريقى . فأنت لديها فكرة أو حلم فى منام ! حلم يوقظها منه أخف رجة ، ومن المحقق أنك اذا أودعت رسالتك الى كلمة اليها فانى مبلغها بلا وناء . ولكنى لا أشير عليك هذه المشورة ..

تقول انك تقدر الآن على التوكؤ بين جدران حجرتك ، وانك تنوى أن تحضر الى الصنوبرات ساعة ينبئك **ديلون** بالقدرة على وعثاء السفر . مرة أخرى أنصحك ألا تفعل . ألا ترى أن كل ساعة من ساعات البعد تضاعف شوق **مارجورى**

وتضيف الى سلطانك عليها ؟ . انك ستعصف بكل شيء بهذه العجلة ، فانتظر حتى تشفى تماما ، ولا تحضر على أية حال دون أن تخبرني قبلها ، فانني لأخشى على حسب الظروف عاقبة المفاجأة .

وظاهر لى أن **الآنسة** سرت بعودتنا ، فانها بسطت الى كلتا يديها فى أصرح صراحة ، ووقفت بالمركبة بعد الظهر هنيهة عند باب الكوخ ، وكانت قد ذهبت الى **ديفرموث** من أجل الصورة التى أفسدها **المصور** لسوء الحظ بقطرة من الحمض تركها على الزجاج ، فاضطرت أن تجلس له جلسة أخرى .

تنبئنى فراستى أن هاجسا يشغلها ويقلقها ، وتلوح عليها لمحة شاردة ليست من طباعها . ولعلها هاجسة وهم عندى أنا لا عندها .

وأختم هذه الرسالة قبل أن أودعها الكثير مما أردت الافضاء به اليك . وسأصحب **أبى** فى جولة من تلك الجولات التى صارت اليوم دواءه الوحيد . . . ودوائى .

(١١)

من ادوار دلانى الى جون فلمنج

٢٩ أغسطس :

أكتب اليك على عجل لأبلغك ما جرى هنا منذ كتبت اليك خطابى الليلة الماضية . اننى لفى أشد الارتباك ! وأمر واحد واضح أمامى ، وهو ألا تحلم بالحضور الى **الصنوبرات** ، فقد أخبرت **مارجورى** أباها بكل شيء ، وقد لقيتها هنيهة منذ ساعة فى الحديقة ، وغاية ما أستجمعه من عباراتها الملتبسة أن الحاصل هو ما يأتى :

« **أولا** » أن الملازم **برادلى** ـ وهو اسم الضابط البحرى ـ كان منذ حين يغازل **الآنسة** ويخطب ودها ، ولكن حظوته عند أبيها أكبر من حظوته عندها ، اذ كان هذا صديقا قديما لوالد الشاب ، وبالأمس لمحت الوجوم على وجه **مارجورى** ساعة وقفت عند بابنا ، وكان **الشيخ** قد فاتح **مارجورى** فى خطبة برادلى وزكاها ، كما استخلصت من مجمل الحال .

«**وثانيا**» قد صرحت **ماجورى** بنفورها من الملازم بصراحتها المطبوعة ، ثم كاشفت أباها بمافى نفسها ، ولا ادرى ماذا كشفت ، ولعله كان كافيا لايقاع **الشيخ** فى حيرة منها واثارة سخطه وغضبه !! وأظن أننى مشتبك فى المسألة ، وأن **الشيخ** ناقم منى ، ولست أعلم لماذا ، وماسعيت برسالة بينك وبين **مارجورى** ، ولا كان فى مسلكى مأخذ ، ولا نسيت الحيطة والحذر ، ... ولست أرى أن أحدا ما صنع فى هذه المسألة شيئا ما ... اللهم الا الشيخ **العقيد** دون سواه ..

ويحتمل أن تنقطع العلاقة بين البيتين ...

وانك لقائل : الى الشيطان بالبيتين معا ! فانتظر منى أخبارا عن كل ما يجرى لدينا ، وسنبقى هنا الى الاسبوع الثانى من شهر سبتمبر . فاقعد حيث أنت قاعد ، أو لا تحلم على الاقل بالقدوم الينا ... ها هو ذا **العقيد** الشيخ قاعد فى الافريز يلوح عليه الشر ... ولم ألق **مارجورى** منذ فارقتها فى الحديقة ..!

(١٢)

من ادوار دلانى الى توماس ديلون بميدان ماريسون ، نيويورك
٣٠ أغسطس :

عزيزى **الطبيب** : ان كان لك أقل سلطان على **فلمنج** ، فأرجو

أن تستخدم جهدك فى كفه عن الحضور الى هذا المكان فى الوقت الحاضر ، وسأشرح لك الظروف التى دعتنى الى هذا الطلب قبل انقضاء زمن طويل ، وكلها ممايوجب عليه أن يجتنب هذا المكان !

ان ظهوره هنا يضره وينكبه !

وانك لتسدى اليه ، كما تسدى الى يدا مشكورة اذا أقنعته بالبقاء **فى نيويورك** أو الذهاب الى مصطاف داخلى ٠٠ وغنى عن القول انك لاتعرفه بطلبى هذا ولا تذكر له اسمى، وانك لتعرفنى ياعزيزى **الطبيب** معرفة تؤكد لك أن رجائى هذا والتماسى منك المعاونة السرية يرجعان الى أسباب تقرها كل الاقرار يوم تطلع عليها ٠ وسنعود الى المدينة فى الخامس عشر من الشهر القادم ، وسيكون عملى الاول أن أسعى الى مستشفاك وأطلعك على مايقنعك ان كنت قد أثرت فى نفسك حب الاستطلاع ٠

لقد تماثل والدى الى العافية ،فلا يحسب اليوم فى عداد المرضى، ومع التحية والاجلال تقبلوا ٠٠الخ ٠٠ الخ ٠٠

(١٣)

من ادوارد دلانى الى جون فلمنج

٣١ أغسطس :

تسلمت الآن خطابك معلنا فيه عزيمتك الجنونية التى لاتنثنى دون الحضور ٠ وأتوسل اليك أن تتدبر وتفكر ٠ فهذه الخطوة ضارة بمصالحك ومصالحها ،وستزود **الشيخ** بسبب مشروع للسخط عليها ! وانه على لطفه وحنانه عليها لخليق أن ينبعث الى أقصى المدى عند المعارضة والعناد،ولن يرضيك ولا شك أن تجنى عليها سوء المعاملة بفعلك ٠٠ذلك ما تعرضها له لامحالة بحضورك الى الصنوبرات ٠٠!وانه ليؤسفنى أن أضطر الى تفصيل

هذا كله لك ، فاننا لفى موقف دقيق ، وثق **ياجاك** أن أهون خطأ ليفسدن اللعبة كلها . ثق قليلا بحصافتى وحسن تقديرى ، وانتظر وأنظر مايكون ! ..

وبعد فاننى أفهم من **ديلون** أن حالتك لاتسمح برحلة طويلة ، وانه يرى أن هواء الشاطىء أسوأ ما تتعرض له الآن ، وانك تحسن صنعا بالذهاب الى الداخل ان كان لابد من ذهاب ، وتقبل نصيحتى وتقبل نصيحة ديلون .

(١٤)

برقيـــات

أول سبتمبر :

الى ادوارد دلانى

تسلمت خطابك . لعنة الله على **ديلون** . لابد من حضورى الى المكان .

الى جون فلمنج

أقعد حيث أنت .. ان حضورك لايجدى الا أن يربك الموقف ، فلا تتحرك قبل أن أعلمك ..

الى ادوار دلانى

سيكون حضورى سرا ، ولامناص من رؤيتها ..

الى جون فلمنج

لاتفكر فى ذلك .. فلا جدوى . ان الشيخ قد حبسها فى حجرتها ، ولن تستطيع محادثتها !

الى ادوار دلانى

حبسها فى حجرتها .. يا الله .. تقرر موقفى ، وانى مسافر بقطار الثانية عشرة والدقيقة خمس عشرة ..!

الوصول

فى الثانى من سبتمبر سنة ـ١٨٧ ، عندما برح القطار محطة همبتون ، شوهد **فتى** يتوكأ على كتف تابع له يناديه باسم واتكنز، خرج من الرصيف واستقل مركبة وطلب من السائق أن يذهب به الى الصنوبرات، فلما وصل الى الكوخ المتواضع على بضعة أميال من المحطة ترجل بمشقة ، وألقى بنظـــرة عجلى على الطريق وعليـــه دلائل الاهتمام الشديد بشىء معين يتفقده هناك ، وعاد يتوكأ على كتف من يسميه **واتكنز** ،ويمشى الى الكوخ المتواضع ويســــأل عن السيد **ادوارد دلانى** ، فأجابه **الشـــيخ** الذى فتح له الباب ان السيد **دلانى** قد ذهب الى **بوستون** أمس ، وان **جوناس دلانى** هو الموجود ،ويظهر أن هذا الخبر لم يكن فيه مايسره ،وسأل : ألم يترك السيد **ادوارد دلانى** رسالة باسم **جون فلمنج**؟.. فقيل له: نعم. هناك رسالة باسم السيد **فلمنج** ، يتسلمها ان كان هو صـــاحب العنوان ، ثم غاب الشيخ لمحة وعاد برسالة ..

من ادوارد دلانى الى جون فلمنج

أول سبتمبر :

اننى لمضطرب لما صنعت ، فاننى يوم أن بدأت هذه الرسائل لم يكن لى من هم غير التسرية عنك فى مرضك . وقد طلب الى **ديلون** أن أحاول تسليتك فحـــاولت ،وأحسبك قد نفــذت ببصرك الى جلية المسألة ، ولم يخطر لى قطانك تعير المسألة كل هذا الاهتمام ((**وتأخذها جدا**)) كما فعلت .!!

ماذا عسى أن أقول ؟ اننى مجنون . اننى منبوذ . اننى طـــريد كالكلب المســعور . حاولت أن أخلق قصة تسليك ، واجتهدت فى الصقل والتحلية فنجحــت ،ويلى ! وبالغت فى النجاح !!

ان **أبى** لايعلم حرفا من القصة كلها ، فلا تزعج الرجل . وقـــد فررت بنفسى من **الصاعقة** الـــتى تنقض على بمحضرك .. فياعزيزى **جاك** حنانيك . **لاعقـــيد** هناك **ولاايـــوان** على عرض الطريق ، ولا **أفريز** ولا **أرجوحة** ، **ولامارجورى! داو** .... !!

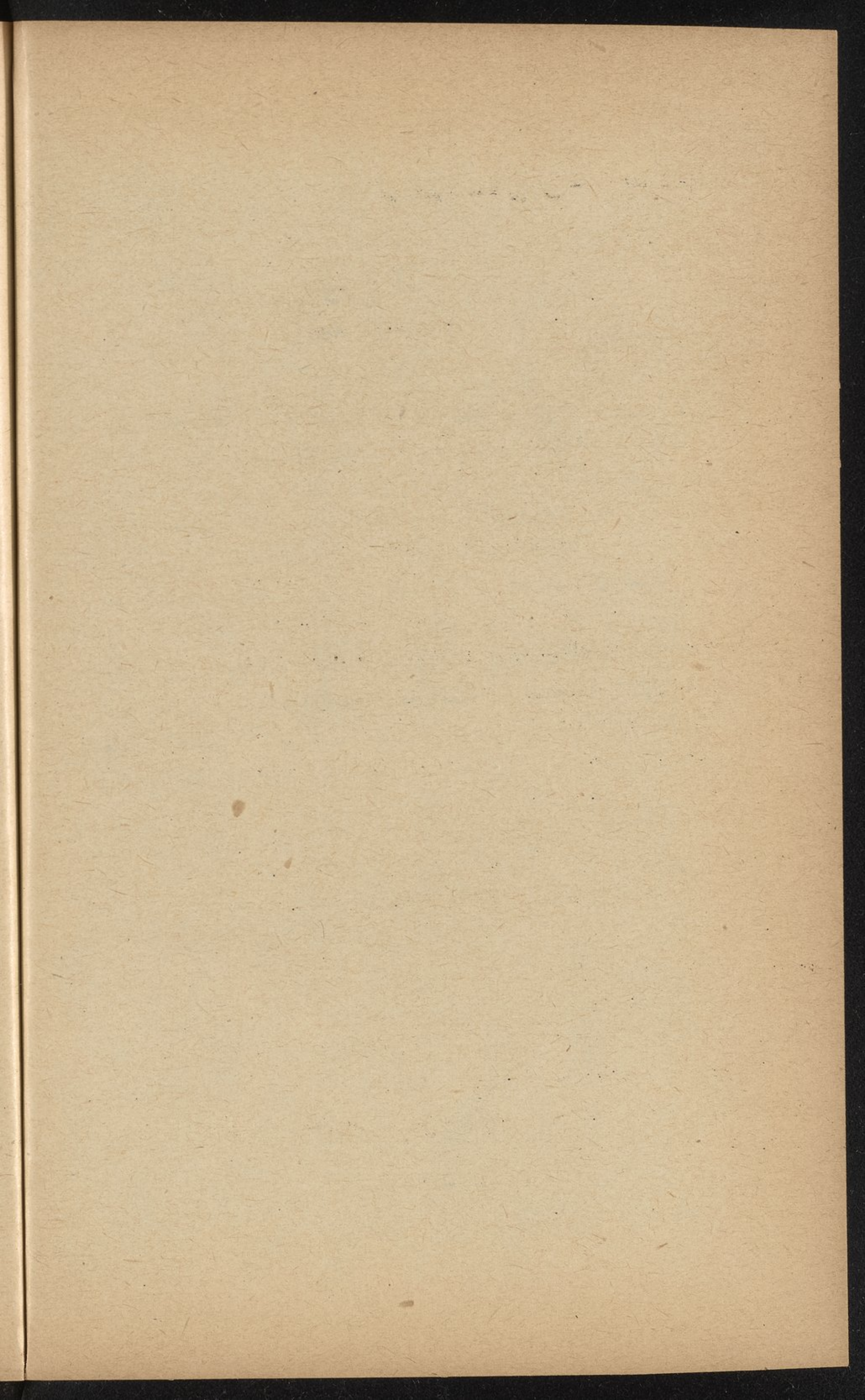
جورج آد

George Ade

١٨٦٦ - ١٩٤٤

أديب اللغة العامية ، والامثال أو العظات في قالب النوادر والحكايات ، وله أمثال وعظات كثيرة يعنى فيها برسم الشخصيات الريفية ، وشخصيات الطلبة والطالبات ، ويتناول فيها مسائل النقد الاجتماعى بأسلوب الفكاهة والتصوير الهزلى ، ومن ثم يعنى بوضع المسرحيات المضحكة الملحنة الى جانب العناية بتصوير حياة الريف وحياة التلمذة .. وأشهر هذه المسرحيات « **سلطان سولو** » و « أرملة الجامعة » .

ولد فى » **انديانا** » وتعلم فى مدارسها ، وكادت قصصه تكون ترجمة لحياته فى سلك الدراسة ، وقد اشتغل بالصحافة والكتابة للنقابات ونظم الشعر ، وكتب فى النقد على طريقته التى تغلب عليها الفكاهة والمداورة بين الجد والتسلية .



ايفى هويتسلى

لجورج آد

قامت مسز **وللاس** فساعدت **زوجها** على خلع معطفه ، ووضعت راحتيها الدافئتين على وجنتيـــه المسفوعتين من مصافحة الرياح.
وقالت :

ـ ان لدى أخبارا سارة ـ !

ـ لعلها صفقة رابحة !

ـ « أوه . كلا . خادم جديدة وانى لاحسبها جوهرة . ليست بالصغيرة ولا بالجميلة . وقد سألتها هل تريد أن تبيت بضـــع ليال خارج الدار ، فقالت انها لاتخرج مساء مهما تكن الاسباب .. ماذا تظن فى ذلك ؟

ـ شىء لايكاد يصدق !

ـ هو كذلك . ولـــكن انتظر حتى تراها . لقد أتت الى هنا من مكتب التخديم حوالى الســـاعة الثانية، وقالت انها تريد أن تدخل المطهى حال وصـــولها ، وأنت لاتدرى كيف كانت حال المطبخ.. لقد مسحته ونظفته حتى عاد أنقى من الدبوس !

ـ ومن أى بلاد ؟

ـ ليست من بلادما . انمـــاهى محصول وطنى .. انها من الريف .. وخضراء . ! ولـــكنها طيبة، وقد اطمأننت اليها ساعة ان وقع نظرى عليها .

ـ حســـن ، أرجو أن يتحقق ظنك ، واذا كان هذا أمرها . فلم

لانعطيها ماتشاء من أجر ، ونضع لها الستائر فى حجرتها ، ونشترك لها فى كل مافى السوق من مجلات القصص .

- حسبك . حسبك . اننى ماخالها ستقرؤها . اننى كلما ألقيت نظرة الى المطهى وجدتها تكدح ، كأنها لاتكل ، ولاتفتأ تغنى مواويل **الريف** ..

- آه .. أهى تغنى ؟ اذن قد تخيب رجاءنا وقتا ما !

- هون عليك ، نحن نستطيع أن نغلق الابواب .

وكانت مائدة الطعام مهيأة مغرية بفرط نظافتها . وقد طافت السيدة **ولاس** بنظرة على الاكواب والآنية الفضية وأومأت برأسها راضية قريرة . ثم لمست الجرس . ودخلت **الخادم** على الاثر .. كانت امرأة طوالا ، قد ودعت سن الصبا الباكرة .. وحدثت مفاجأة .

فان مستر **وللاس** أخذ يحملق فى الخادم الجديدة ، وينظر اليها كالمشدوه ! وصاح : « **يالله** !! »

واقتربت الفتاة كثيرا من المائدة ، حينما وقع ناظرها عليه ، فمال الاناء فى يديها ، وابتسمت مأخوذة ، وألقت الاناء على المائدة فى عجل .. !

ولم تطل حيرة مستر **ولاس** .. انه عاد فى هذه اللحظة بتفكيره الى الماضى . فقد نشأ فى بيئة ديمقراطية صغيرة ، ترفرف عليها روح المساواة !

قال : أليست هذه **ايفى هوتيسلى ؟!**

فأجابته بمثل صيحته : « **ياللسماء** » وكانت صيحتها بمثابة التأمين .

- ألا تعرفيننى

- ألست « **ولاس** » ؟

واذا بالسيدة **ولاس** تتراجع على كرسيها وتردد بصرها بين الخادم وبين زوجها ، وتحاول عبثا أن تفهم ماتسمع ... !

فما هى الا لحظة حتى رأت مستر **ولاس** يندفع على المائدة ويصافح الخادم الجديدة . فتمالكت صوتها ، واستطاعت ان تهتف :

ـ ماذا أرى ؟

أدركت مستر **ولاس** الحيرة ،وأعجزته الحيلة ، فقدكان مترددا بين المسلك الذىيوحيه اليه العرف فى مقام **السيد** ، وبين واجب الرعاية لصديقة قديمة ، وقال :

هذه **ايفى هويتسلى** من **برينرد** ، وكنت أزاملها فى المدرسة ، وكانت تزور منزلنا أحيانا . وانى لم أرها منذ زمن ...

ثم التفت الى **ايفى** وقال :

ـ اننى لم أعلم من قبل انك فى شيكاجو ...

قالت **ايفى** ، وهى مازالت حائرة ، وعلى بعد خطوات من المائدة:

ـ أجل **يا ادولاس** . اننى لا أحتمل الساعة هفة ريشة . ولم أكن أظن أنك أنت المقصود حينما سمعت اسم ولاس أول الامر ، وان كنت أعرف أنك ههنا . ولكن عرفت ذلك حينما وقع نظرى عليك أول لحظة .

قال **ولاس** وقد تريث قليلا :

ـ كنت أظن أنك ما زلت فى **برينرد** ...

ـ لقد تركتها فى شهر نوفمبر منذ عام ، وحضرت لزيارة أسرة **مورث** . ولعلك تعرف أن **مورث** يشتغل الآن بوظيفة فى شركة السيارات ، وهو يزاول عمله على أحسن حال . ولم أشأ أن أكون حملا عليه ، فاتخذت طريقى وجعلت حملى على كاهلى ، ولم أجد فائدة فى عودتى الى برينرد لأشتغل بريالين فى الاسبوع !!

لقد وجدت عملا طيبا لدى مستر **ساندرز** موظف السكة الحديدية فى أقصى الشمال ،لكنى تركته لأنهم يريدون منى أن أقوم بتقديم **الشراب** ، وانى لأوثر أن أقدم **ضفدعة** ولا أقدم زجاجة من الجعة . ان الشراب كان السبب فى الخراب الذى حل **بجسى** .. لقد ضاع سدى ، وارتحل مع فرقة **البهلوانات** حيثما ارتحلوا منذ سنين ....

قال مستر **ولاس** مسائلا :

ـ اذن تشتتت العائلة ؟

– لقد ذهبوا مع الرياح الأربع منذ ماتت **أمك** ۰ ولا بد أنك تعلم أن **لورا** تزوجت من **أوهنت توماس** ، وتعيش فى حى **ميرفى** القديم ۰ وانهم يفعلون ما فى وسعهم للبقاء فى صحبة **هنفورث** مع كسله واهماله ۰۰ !

– أهكذا ؟ حسن !

أتراه لقاء صديقين غائبين ، أهو عشاء هادىء فى بيت أسرة ؟ ان الحساء لينتظر ۰۰۰

وأدركتهما السيدة **ولاس** قائلة : حسبنا هذا الآن ياايفى !

فصاحت ايفى : « آه ۰۰۰ » وتسربت الى المطبخ ۰۰۰

قال مستر **ولاس** : معنى هذاانا كنا أطفالا نمرح معا ، وكنا نعمل **الفطائر** من الطين معافى بركة واحدة ، ونجلس جنبا الى جنب فى مدرسة **برينرد** ، وهى من أسرة **هويتسلى** ۰۰وكل من فى **برينرد** يعرف هذه الاسرةانها أسرة كبيرة ، ولكنهم أفقر من جرذان الكنيسة ۰ وان فيهم لدماثة وطيبة ۰۰۰

– **ايفى** ۰ ايفى !! وهى تقول ادا ۰ اد !! ماهذا ؟

– اسمعى ياعزيزتى ۰۰ ليست هناك ألقاب فى **برينرد** ، وكيف لا تدعونى **بأد** وما سمعت أحدا ينادينى بغير هذا النداء !

– عليها أن تناديك هنا بغيره ۰ قل لها ذلك ۰۰

– الآن ۰ لا تسألينى أن أتكلف فى خطاب أحد من أسرة **هويتسلى** فانهم يعرفوننى منذ زمن بعيد ،وطالما رأتنى **ايفى** فى المدرسة فى موقف السخرية ، وطالما زارت منزلنا كأنها فرد من أفراد الاسرة حين كانت والدتى تشكو وتحتاج الى من يعنى بها ۰۰واذا لم تخنى الذاكرة ، لقد كنت أصحبها الى معاهد الغناء والحفلات ۰ واننى لا أستطيع أن أتعالى عليها ۰ اننى لا أستطيع ذلك بحال من الاحوال! وأكره أن تعود الى **برينرد** وتقول انها قابلتنى هنا فى شيكاجو ، واننى بلغ منى السخف أن أنسى أيامنا فيما مضى ۰ وأنت ياعزيزتى لاتعرفين تلك القرى !!

ـ كلا لم يكن لى هذه الحظوة!

ـ أجل انها لحظوة من بعض الوجوه . ولكنها تقترن بعقوباتها أيضا . فليست مجالا صالحا لتعليم من يريد أن يتخرج منها ظريفا من ظرفاء المجتمع !

ـ ليس من الظرف المصطنع أن تنبه الى الخطأ خادمة تناديك باسمك الأول **اد** . أوه . كيف هذا ، اننى ما اجترأت قط أن أدعوك بهذا الاسم !

ـ لانك لم تقيمى قط فى **برينرد** .

ـ وأنت تقول انك كنت تصحبها الى معاهد الغناء ؟

ـ أجل يا سيدتى منذ عشرين سنة فى **برينرد** ، أيدهشك ذلك؟ انك قد عرفت حينما تزوجت بى اننى من أبناء الريف ، ومن الذين شقوا طريقهم وجاءوا الى المدينة فى ثيــاب مجهزة . وانى لأعلم أن ماضى لا يرشحنى لأن أكون من النخبة المختارة أو من أعضاء دار الندوة .. وانه لحدث عظيم لو زججت بنفسى فى ميـــدان **السياسة !**

ـ اننى لا أنكر أن يكون لك ماض . وانما أقول لنفسى : ترى ما أظرف الموقف اذا أقمنا هنا سهرة عشـــاء وجاءتك تدعوك باسم اد ـ .. !

فضرب مستر **ولاس** على المائدة ، وانطلق ضاحكا ...

قالت السيدة **ولاس** : أظنك لاتكترث بهذا ؟

قال : ان **ايفى** لاتخل بواجب المقام هنا . ونحن فى **برينرد** قد نخالف التقاليد ، ولكننا قد نتعلمها هذا فى حينها !

ولمست السيدة **ولاس** الجرس فأقبلت **ايفى** ...

وانها لتقدم الصحفة التالية اذا بمستر ولاس يتعمد تشجيعها بابتسامة ودية ، وهى تسأله :هل ترد اليك صحف برينرد ؟

ـ أجل . كل أسبوع .

ـ لقد كانت هنـــالك أمراض كثيرة ، هذا الشتاء ، وكتبت الى **لورا** ان عمك **جو** كان معتلا ..

ـ أظن انه قد تماثل ، وعاد الى عمله .

- خير ! خير !

وقفلت عائدة الى المطبخ ...

ثم رجعت تغير الآنية لاحضار الحلوى ، وقالت :

- ان مورث كان يبحث عنك البارحة ، وقال انه لم يرك منذ أمد . ان لك هنا منزلا جميلا !

وما كاد العشاء ينتهى حتى كانت مسز **ولاس** قد عقدت عزمها على أن **ايفى** لا بد أن ترحل . وشعر مستر **ولاس** بما وراء ذلك الحديث العنيف الذى وجهته اليه زوجه ، وقال فى نفسه لا بد لها أن ترحل ولكن بشىء من اللطف والكياسة ...

كانت **ايفى** قد انتهت من تنظيف الآنية ، ودخل عليها المطهى مستر **ولاس** يبادلها الحديث **وزوجه** جالسة فى الحجرة المقابلة تستمع الى صدى حديثهما الطويل وهما يتناولان ما مضى من تاريخ العائلة فى برينرد ، ويتذاكران الحوادث التى ربما اتصلت بفطائر الطين على شاطىء البركة ، والحفلات التى كانا يشتركان فيها بالمدرسة !!

لقد كانت السيدة **ولاس** سليلة **تومبللى** من **بلثمور** ، وما كان احد من أسرة **تومبلى** له أقارب **بفرجينيا** ليطيق أن يتنزل الى منافسة خادم مطبخ أو يحلم بحدوث شىء من هذا القبيل ، فلم يا ترى تقلق مما يدور بين **اد وايفى** من الحديث؟

انما شعرت السيدة **ولاس** بكبريائها تنهار . فقد كانا فى الليلة الماضية يتناولان العشاء مع سراة المدينة من **آل جاج** ، ومستر **ولاس** ملحوظ الجانب فى ملابسه المسائية يلمع بهاء وأناقة بين السبعة الذين جلسوا معه على المائدة ، وكانت مزهوة به لا تفكر أنها بعد أربع وعشرين ساعة ترى خادما تخرج من المطبخ وتناديه باسم **اد** !!

واستمر الصوت الخافت يتتابع فى حجرة المطبخ ، وودت السيدة **ولاس** أن تسير على أطراف قدميها لتسترق السمع أو تندفع الى المطبخ وتخرج مس **هويتسلى** باشارة موجزة وتعيدها الى مركزها الوضيع . ولكنها فكرت فى أن مستر ولاس ربما أساء فهم مثل

هذه الحركة ، وربما غمرها بسخريته واتهمها بالغيرة . فاحتملت على مضض !

وكان مستر **ولاس** يقف بالباب وفى فمه سيجارة لم يشعلها، اذ كانت **ايفى** قد منعته أن يدخن فى المطبخ . فاستند الى الباب يفكر فى كلام يقوله ، ثم قال لها أخيرا :

ـ لماذا لا تذهبين يا **ايفى** الى **لورا** وتمكثين لديها شهرا أو نحو ذلك ؟ انها لتسر بهذا !

ـ أعرف ذلك **يا اد** . ولكنى لست **روكفلر** لأقضى شهرا بغير عمل ، وأجرى من هنا لهناك لزيارة أقاربى . انى لا أود ذلك ولكن ...

ـ أوه . انى سأحضر لك تذكرة الى برينرد غدا ، وسوف لا تتكلفين شيئا هنالك ..

ـ كلا انها ليست **شيكاجو** .. هذه هى الحقيقة .. ان ريالا واحدا يوصلنى الى هنالك ، ولكن ماذا تفعل **زوجتك** ؟ لقد أخبرتنى انها لاقت تعبا شديدا لانفرادها !

ـ أجل **يا ايفى** . الحق انك **صديقة** قديمة لى ، ولا أقبل أن أراك **خادما** مأجورة فى منزلى ..!

ـ كلا . **أظننى** الآن خادما .. لقد كنت فتاة مأجورة عند **والدتك** . أما الآن فاننى خادم ، ولا يهمنى الاسم الذى تدعوننى به مادمت أقوم بنفس العمل .

ـ أنت تفهمين ما أعنى ، أليس كذلك ؟ فى أى وقت تريدين أن تحضرى الى منزلى تحضرين اليه كصديقة زائرة لا كخادم !

ـ دع هذه الحماقة **يا اد ولاس** . اننى أخدمك كما أخدم غيرك ، وأخدمك أكثر من سواك ..!

ـ ولكنى لا أريد أن أرى **زوجتى** تلقى أوامرها لصديقة قديمة مثلك . لعلك تفهمين ما أعنى !

ـ لا أدرى . انى مستعدة للرحيل اذا قلت لى ذلك ..

— ها . ها . ها . سأحضر لك التذكرة وتذهبين الى **برينود** غدا . أتعدينني بذلك الآن ؟

قالت وهي مستغربة ماتسمع :

— ان كان هذا رأيك فاني ذاهبة ...

— واذا عدت فانني سأجد لك ما شئت من الأماكن لتشتغلي حيث تشائين ...

فلما كانت الليلة التالية خرجت ايفى فى مركبة وهى تعتذر عن هذه الرفاهية ، وقالت وهى تنظر الى فناء الدار :

— انهم سوف لا يصدقونني **!يا اد ولاس** عندما أذهب الى **برينرد** ...

— بلغيهم تحياتي . وأفهميهم أنني على العهد دائما .

— سأفعل ذلك . أستودعكم الله .

— فى سلامة الله .

وكانت السيدة **ولاس** تنظر من النافذة . وقد رأت مس **ايفى** تتوارى فى المركبة ...

وقالت ! الحمد لله !

قال مستر ولاس — وقد كان فصلا مرحا بالنسبة اليه — :

— لقد دعوتها لزيارتنا عندماتعود .

— أوتأتينا زائرة ؟

— بكل تأكيد . لقد أخبرتها ! أنك تسرين برؤيتها فى أى وقت .

— يالها من فكرة ! هل دعوتها حقا ؟

— بطبيعة الحال . وانى لعلى يقين بأنها ستفعل .

— وماذا أفعل **أنا ؟**

— أظنك تستطيعين أن تتدبرى الامر ، وان كنت لم تعيشى أبدا فى **برينرد** .

وعادت السيدة **ولاس** أدراجها، وهى مزهوة بزوجها ، وقالت:

— سأحاول ذلك !

ويلاكاثر

Willa Cather

١٨٧٦ - ١٩٤٧

كاتبة شاعرةناقدة ، أسلوبهامن اجمل الإساليب ، وتعريفاتها التي تفرق بهـا بين الكتــابةالصحفية والكتــابة الادبية من أدق التعريفات ..

فالكتابة الصحفية فى رأيها كتابة كشف وتفصيل على وجه الصفحات والسطور ، بخـلاف كتابة الادب التى توحى بالمضامين وتبقى لخيال القارىء منــادح للشعور لاتستوعبها المحسوسات

وهذا مثال موجز لتفرقتهــابين أغراض الكتابة وأساليبها :

ولدت فى ونشستر بفرجينيا، وانتقل بها أبواها الى الحدود الغربية ، وهى فى التاســعة ،ونمت وهى تختبر الحيــاة بين أقوام من أمم الشمال والجرمان والكنـديين الفرنسيين ، وكانت هى من أسرة منحدرة من أصول انجليزية ايرلندية ألزاســية ، فتهيأت لها خبرة واغية لدراسةالامم والشخصيات قلما تتهيــأ لناشىء صغير فى وطن محدود ،وقد تعلمت من الحيــاة حتي دروس الكتب ، لانها نشأت فى أمكنة لاتتوافر فيهــا مدارس الاطفــال ، فتلقنت من الاسرةوجيرانها مبادىء الكتابة واللغة، الى أن بلغت سن التعليم الجامعى فانتظمت فى جامعة **نبراســكا** ، وتخرجت منهــا وهى دون العشرين .

عملت فى الصحافة والتعليم،وشغفت بالموسيقى والسياحة ، وقرأت كثيرا من الادب السلفى ومن الادب الامريكى ، واعجبت بالشاعر الكبير **ويتمان** وبالروائى **هنرى جيمس** ، ولها كتاب عن الرواد اقتبست عنوانه من عنوان قصيدة **لويتمان** ، ولخصت فيه

سر اعجابها بهؤلاء الرواد الفاتحين للبرارى والمجاهل ، فقالت انهم هم القوم الذين جعلوا نشدان الثروة « نصرا أخلاقيا » ،لانهم يحققون « النجاح المادى » بخلق العمار بأيديهم وتذليل المصاعب بعزيمتهم ورياضة الطباع على الصبر والثبات .. وقصتها التالية عن « **مسألة پول** » نقد اجتماعى لحياة المدينة التى تستغوى الناشئة ممن فقدوا حنان الامهات ، وهى خير تطبيق لمذهب العلاج النفسانى الذى يداوى من العلة بكشف أسبابها ودواعى الوقوع فيها ، من غير تنبيه الذهن الى قصد التعليم والارشاد ، أو تبديل الوقائع للوصول بهذا التبديل الى موقع العظة والاعتبار .

ولعل القصة نفسها من مشاهداتها بين المدرسة وأندية الموسيقى .. وقد عاشت للأدب والفن ، ولم تتزوج ، واختارها معهد الادب الامريكى عضوا له وهى فى الثانية والخمسين .

مسألة پول

كان بعد الظهر هذا هوالموعدالذى يتقدم فيه **پول** الى مجلس مدرســـة **بتســـبرج** الاعـــلى للمحاسبة على أخطائه المتعددة، وكان قد صدر الامر بوقفه منذ أسبوع ، وجاء أبوه الى مكتب المدرسة يعترف بحيرته فى أمر ولده ، ودخل **پول** حجرة المجلس مترفقا يبتسم ، وكانت ملابسه قد صغرت عنه قليـــلا ولون المخمل الذى فى قلابة المعطف قد نصل وتغير ، ولكنه على هذا كان يبدو فى مظهر المتأنق ، ويضـــع فصـــا من جوهر عين الهر فى قلادته المرقطة وقرنفـلة حمراء فى عروته ، ممـــا لاح كأنه شيء لايناسب حالة القلق التى تعترى طالبا تحت شـــبهة الاتهـــام والعقاب !

وكان **پول** أطول من سنه ، نحيفا شديد النحـــافة ، مرتفع الكتفين ضيق الصـــدر ، تلمع عيناه لمعة عصبية ، ويديرهمـــا عامدا على نحو ينم على العدوان والاجتراء من فتى مثله ، ولهما بؤبؤان واسعان كأعين المدمنين لبعض المخـــدرات ، لولا تلك السطعة البـــلورية التى لا تكون للمدمنين ..!

ولما سأله **الرئيس** : ماذا ساقه الى ذلك الموقف ، أجاب فى أدب جم أنه يريد العـــودة الى المدرسة . وكان هذا كذبا منـــه تعوده ، واعتقد انه لازم لاجتناب الصدام .. !

وسئل **معلموه** أن يشرحـــوا شكاياتهم منه ، فبســـطوها فى مضض واســـتياء ينبىء عـــن مسألة من غير المسائل المألوفة، وعـــددوا من التهم الاختـــلال والقحـــة ، وأحس كـــل منهـــم صعوبة تصوير المشكلة معـــه بالكلم الواضح المحدود ، فانمـــا كانت المشكلة ضربا من التحدى العصـــبى او ضربا من الازدراء الذى يشعرون أنه يكنـــه لهـــم أجمعين ، ولا يلوح عليـــه أنه

يحاول اخفاءه أقل محاولة .. فاتفق مرة أنه كان يلخص عبارة على السبورة ، فاقتربت منه مدرسته الانجليزية لتأخذ بيده فى كتابتها ، فارتد پول الى الوراء متبرما ، وثنى يديه وراء ظهره بعنف وشدة، وأحست **المرأة** المذهولة أنه لم يكن خليقا أن يؤذيها أشد من هذا الايذاء لو أنه ضربها، وكانت الاساءة مصطبغة بالصبغة الشخصية التى لاتنسى ! وهكذا كان يغضب معلميه بأمثال هذه الاساءات ،رجالا ونساء ، ويشعرهم جميعا بنفوره واشمئزازه ، فكان فى حصة من الحصص يجلس ويظلل عينيه بيديه ،وفى حصة أخرى ينظر الى النافذة خلال الالقاء ، وفى غيرهما يعلق على الدرس تعليقا مقتضبا يشف عن السخرية !!

وأحس أساتذته ذلك الاصيل أن اساءاته جميعا قد تلخصت فى ارتفاع كتفيه وتصدير القرنفلة الحمراء فى عروته ، فانهالوا عليه بغير شفقة ، وفى طليعتهم المدرسة الانجليزية ، وكان هو يستمع اليهم مبتسما وقد انفرجت شفتاه الصفراوان عن ثناياه البيض ، وكان من عادته أن ترتجف شفتاه ويرتفع حاجباه، اشارة من اشارات الاستخفاف غاية فى الاساءة والايذاء . وان غيره من الصبية الذين هم أسن منه لينكسرون وينفجرون بالبكاء فى مثل موقفه ، ولكنه هو لم تفارقه ابتسامته المتكلفة لحظة ،ولم يكن يظهر عليه من دلائل الامتعاض الا ارتجاف أصابعه وهو يعبث بأزرار المعطف ، أو ارتجاف أصابعه التى يحمل بها قبعته !!

كان يبتسم على الدوام ويجيل لمحاته على الدوام ، باديا عليه انه يحس ان الناس يراقبونه ،ويجتهد فى استكناه شيء من وراء نظراتهم ، وكان هذا المظهر المتعمد بعيدا غاية البعد من مرح الصبا ، فكان من يراه يعزوه الى القحة والتكلف !

وفى أثناء المحاكمة روت **احدى المعلمات** عبارة وقحة وجهها اليها ، فسأله **الرئيس** :أتظن أن هذه العبارة مما يحسن توجيهه الى سيدة ؟ فما زاد پول على أن هز كتفيه وعقد حاجبيه، ثم **قال** : لاأعلم، فاننى لم أقصد المجاملة كما أننى لم أقصد سوء الادب ، وأحسبه أسلوبا من الاساليب التى تعودتها غير عامد !

وسأله **الرئيس** : ألا ترى أنه أسلوب من الحسن تركه واجتنابه ؟

فابتسم **پول** وقال : أظن !

ولما قيل له أنه يستطيع أن ينصرف، انحنى فى أناقة، ومضى .. فكان ذلك الانحناء الانيق منه كأنه تكرار لفصل **القرنفلة** الحمراء !

وكان معلموه فى قنوط ، وكأنما عبر **معلم الرسم** عن شعورهم جميعا حين قال أنه يحسب فى طبيعة الصبى شيئا غير مفهوم ، ولا يخال أن هذه الابتسامة من محض القحة وسوء الادب ، فانها محفوفة بعارض من الغموض ، وليس الصبى قويا سليما . فلا بد من سر هناك !

وخلص **معلم** الرسم الى ملاحظة عن أسنان **پول** البيضاء ولمعان عينيه المغتصب ، وقال أنه رآه يوما نائما فى المرسم ، فلفت نظره امتقاع لون وجهه ، وزرقة العروق مع الثنايا المحيطة بعينيه ، مما يستغرب فى مثل سنه ، وأن شفتيه تختلجان حتى خلال الرقاد .. !

وشعر **المعلمون** أن **المجلس** يخامره الاسف والاسى ، وأنهم غير راضين عن أنفسهم لشعورهم بالنقمة من **صبى** كهذا، وانطلاقهم فى التهم وتسابقهم فى المطاردة، وخطرت لاحدهم صورة **قطة** كان قد رآها فى الطريق يناوشها المطاردون ويسدون عليها الفجاج ..

أما **پول** فانه راح يهبط التل عدوا ويصفر بنشيد الجند فى رواية **فاوست** ، ناظرا خلفه من حين الى حين نظرة مجفلة ، عسى أن يلمح بعض أساتذته وهو يراه فى خفته وقلة اكتراثه، وكان الوقت قد تأخر أصيلا ، و**پول** صاحب النوبة فى الاستقبال **بقاعة كارنيجى** ، فاعتزم الا يذهب الى منزله للعشاء .

لم يكن الباب قد فتح حين وصل الى جانب القاعة ، وكان الجو قارسا خارجها ، فاعتزم الصعود الى رواق الصور الذى يخلو من الزوار فى ذلك الموعد ، وذهب الى حيث كانت فى

الرواق نخبة من دراسات **رافلي** المرحة لشوارع **باريس** وصورة شفافة زرقاء أو صورتان من صور **البندقية** تعجبانه ، وسره ان يرى القاعة مصفرة الا من **الحارس** الهرم الذى كان يجلس فى ركنه وعلى ركبته صحيفة ، وقد أقفل احدى عينيه وظهرت فوق عينه الاخرى بقعة سوداء ! ..

واستولى **پول** على المكان ذاهبا آيبا يصفر فى ثقة وطمأنينة ثم جلس بعد هنيهة أمام صورة من الحجر المكسيكى ، وغاب عن نفسه ، فلما التفت الى ساعته يتعرف الوقت كانت قد بلغت السابعة ، فأسرع الى السلم وجعل يلعب وجهه سخرا أمام تمثال **أغسطس قيصر** البادى من حجرة النحت ، ويرمق تمثال **فينوس** شزرا حين عبره على طريق الدرج !

كان فى حجرة الملابس ستة من الصبيان حين وصل اليها ، فأخذ يولج نفسه فى كسوته مضطربا ، وكانت احدى الكسى القلائل التى توائم لابسها ، ويحسبها پول لابقة عليه ، وأن كان معطفها المشدود يكشف عن ضيق صدره الذى كان دقيق الحساسية من نحوه ، وكان على الدوام يضطرب حين يلبس متخبطا على ايقاع الاوتار ونفخات الابواق التجريبية فى قاعة الموسيقى ، ولكنه فى هذا المساء لم يكن يملك نفسه ، فراح يعاكس الصبية ويناوئهم ، حتى رموه بالجنون وألقوه على الارض وجلسوا فوقه . .

وهدأته هذه الرمية ، فاندفع الى مقدمة الدار يجلس القادمين المبكرين ، وكان مستقبلا مثاليا يجرى هنا وهناك مبتسما متلطفا ، لايستكثر تعبا فى عمله ، وهو يحمل من هنا رسالة ويحمل الى هنا برنامجا ، كأنها عنده متعة الحياة ، وكل من رأوه فى شقة عمله أحسوا انه صبى لطيف يذكرهم ويعجب بهم .. وينشط كلما ازدحمت الدار ، فتتورد وجنتاه وشفتاه ، وكأنما هو استقبال فخم ، مضيفه الذى يرحب به هو **پول** !!

وان الموسيقيين ليستوون فى مقاعدهم اذا بالمعلمة الانجليزية قد حضرت بتذكرة للمقاعد التى يحجزها أحد أصحاب المعامل الكبار فى الموسم ، فارتبكت قليلا حين وقع نظرها على **پول** ،

وأسلمته التذكرة مترفعة ، ثم لم تلبث أن استحمقت من نفسها ذلك الترفع ، وأجفل **پول** اذ رآها فهم أن يبعدها، مستغربا أن تكون هنالك بين هؤلاء الظرفاء والظريفات بملابسها الزرية، ولكن التذكرة ولاشك قد وصلت اليها من قبيل الرحمة والاشفاق ! وخطر له ذلك وهو يهيىء لها مكانا يحق لها أن تشغله كما يحق له حيث كان ..

ولما بدأت الموسيقى غاص **پول** فى كرسى خلفى وغاب عن وعيه ، كما فعل منذ هنيهة فى رواق الصور ، ولم يكن ذاك لان ألحان الموسيقى تعنيه أية عناية ، ولكنه استراح عندما سمع أول نفثة من آلاتها ، وشاعت فى حناياه خلجة منعشة ، خلجة كأنها خلجة الجنى التى أحسها الصياد العربى فى **القمقم**، وانبعثت فيه دفعة حية ، وتراقصت الاضواء أمام عينيه ، وسطعت القاعة برونق يفوق مدى الخيال، ولما اشتركت الاحادية (ترجمة لكلمة منولوجيست الذى يلقى دوره منفردا ..) بنغمة «السبرانو» استسلم **پول** لنشوته الخاصة التى تحركها فيه مثيلاتها .. واتفق ان المغنية كانت امرأة ألمانية ليست على كل حال بالفتية فى ريعان الفتوة ، ولها أطفال كثيرون ، الا أنها كانت تلبس ثوبا من الحرير ، ويزدان رأسها بأكليل جميل ، وتحف بشخصها تلك الهالة التى تستعصى على البيان ، وتشف عن النضج والتمام ، وما تشعه عليها النظرات العالمية من أشعة تحجب عن بصره كل عيب مظنون !!

ان **پول** ليشيع فى نفسه الهياج والابتئاس عقب كل دور من أدوار الموسيقى ، فلا يهدأ حتى يذهب فينام ، وكان قلقه فى تلك الليلة خاصة أشد من قلقه فى سائر الليالى ، اذ كان يحس أنه عاجز عن تسكين سورته ، وأنه لا يطيق أن يترك تلك النشوة اللذيذة التى كانت عنده دون غيرها جديرة أن تحسب من الحياة ، وفى أثناء العزفة الاخيرة تسلل من المكان ، وبدل ملابسه على عجل ، وانفتل الى الباب الجانبى حيث تقف مركبة المغنية ، ثم راح يتمشى جيئة وذهوبا مسرع الخطا ، مترقبا أن يراها وهى خارجة ..!

***

وكان بناء «**شنلى**» من ثمة يتراءى فى شكله القائم ضخما

رصينا خلال الرذاذ ، تسطع الاضواء من نوافذه فى طباقه الاثنتى عشرة ، كأنها لعبة الورق تحت **شجرة** عيد الميلاد ، وفى هذا البناء يقيم كل ممثل وممثلة وكل مغن ومغنية من ذوى الصيت حيثما حضروا الى المدينة ، كمايقيم فيه ذووالمصانع الكبار أيام الشتاء ، وطالما وقف **بول** هنالك يتتبع الداخلين والخارجين ويتمنى لو يتاح له أن يعيش هناك ويودع المعلمين وشواغلهم المملة حيث يعملون !

ثم خرجت المغنية أخيرا يصحبها المدير الذى ساعدها وهى تركب ، وأقفل باب المركبة يحييها مودعا تحية ملؤها الود والعطف جعلت **بول** يسائل نفسه عساها كانت عشيقة له من قبل !.

واقتفى المركبة الى الفندق مهرولا كى يقترب من المدخل ولايكون بعيدا منه حين تهبط المغنية من المركبة ، ونزلت المغنية ثم اختفت وراء الباب الزجاجى الدوار حيث فتحه لها زنجى فى معطف طويل على رأسه قبعة عالية .. وخيل الى **بول** أنه هو ايضا قد دخل معها ورافقها على السلم الى الحجرة الدافئة الوثيرة والعيشة الوادعة الرخية ، وأرسل خياله يتصور الصحاف اللامعة والقنانى الخضر المثلجة التى يؤتى بها الى حجرة المائدة ، كما يراها فى ملاحق صحف الآحاد .. وانهمرت دفعة من الريح فجأة بسيل من المطر الغزير ، فارتاع **بول** اذ تنبه الى موقفه هناك على الحصباء ، مبتل الحذاء لاصقا به معطفه المبلل الهزيل ! ورأى النور أمام الملعب قد انطفأ والمطر يرسل بينه وبين النوافذ البرتقالية اللامعة ستارا من الماء .. وها هو ذا ينظر الى ما يشتهيه ماثلا أمامه كأنه زفة ليلة **عيد الميلاد** السحرية وهو واقف حيث يصك المطر وجهه يتساءل فى قرارة خاطره : أتراه مقدورا له أن يقف ثمة أبدا يرتعد ويتطلع فوقه فى جوف الليل البهيم ؟

ثم استدار فمشى على رغمه الى ناحية الممر الذى تعبره المركبات ، ولابد مما ليس منه بد فى خاتمة المطاف : **أبوه** فى ملابس النوم على رأس السلم ، وأعذار ليست بأعذار ، وتلفيقات مخترعة لاتزال تتوارد على ذهنه ، وحجرته العليا بورقها المصفر

الكريه على الجدران ، والمنضدة الصرارة الوضرة ، ومن فوقها صورة **جورج واشنطون** وصورة **جون كلفن** والكلمة المحفورة ، «اطعم خرافى» بلونها الاحمر كماكتبتها أمه فيما يعلم ، وليس فى ذاكرته منها أثر .

وبعد نصف ساعة نزل **پول** من احدى مركبات شارع «نيجلى» ومشى متمهلا الى أحد الازقة المتفرعة على الطريق العام ، وكان هذا الطريق العام من الطرق المحتشمة ، تقوم مساكنه على نسق واحد حيث يعيش أصحاب الاعمال من الطبقة الوسطى بين ذويهم وأطفالهم ، الذين يذهبون جميعا الى مدارس الاحد ، ويستظهرون الاجوبة الدينية المختصرة ، ويحتفلون بدروس الحساب ، ويلوحون كمساكنهم أشباها فى كل شىء وفقا للمكان الرتيب الذى يعيشون فيه !!

ولم يكن **پول** يذهب قط الى شارع كورديليا حتى أحس المطر قشعريرة من النفرة والكراهية ، اذ كان بيته مجاورا لبيت القسيس .. فاقترب منه تلك الليلة خاصة يملؤه شعور متبلد بالهزيمة واحساس قانط بالرجعة الدائمة الى جو الدمامة والبذاذة الذى يطبق عليه كلما قارب بيته . وما انحرف الى شارع كورديليا حتى أحس المطر فوق رأسه ، وشاع فى حناياه ذلك الهمود الذى يغشاه على أثر كل ملهاة قاصفة من ملاهيه تلك ، كأنه الهبوط البدنى الذى يعقب كل أسراف ..!! سرر متواضعة ، وأغذية شائعة ، ومسكن ينضح بروائح المطبخ ، ونفرة من كل ما لا طعم له ولا لون له ولا مزية فيه من انماط المعيشة المتكررة كل يوم على وتيرة واحدة ، واستولى عليه شوق جامح الى كل وثير مصقول ، والى الانوار الناعمة والرياحين النضرة المطلولة .. !

وكلما اقترب ناحية البيت تجسمت فيه تلك النفرة من كل ماتقع عليه العين هنالك ، من حجرة نومه الشوهاء ، وحجرة الحمام الباردة ، وأجانتها الكالحة القصديرية (طشت الغسيل) ومرآتها المشدوخة والفوهات المثرثرة .. وأبوه هنالك على رأس السلم يطل شعر ساقيه من قميص النوم ، وقد ماه فى مداسه المعهود من وبر السجاد !

لقد تأخر تلك الليلة عن موعده فوق ماتعود ، فلا مناص من الاسئلة والتأنيبات المألوفة . فتريث عند الباب ، وبدا له أنه غير مستطيع تلك الليلة أن يتعرض للموشح المنتظر ، وأن يتقلب على السرير الحقير . غيرمستطيع أن يدخل ، وسيخبر أباه أنه لم يجد أجرة السيارة ، وانه وجد المطر غزيرا، فذهب مع صديق له الى منزله وبات لديه ..

الا أنه كان مبتلا مبتردا فدارحول المنزل الى خلفه، وعالج الدخول من احدى النوافذ فانفتحت ، وتسلق فى حذر ثم هبط من جدار قبو الطعام الىالبلاط . وهنالك وقف يمسك أنفاسه مذعورا من وقع حركاته ، فلم يسمع صوتا فوقه ولم يسمع صريرا على السلم .. ووجد على مقربة منه صندوق صابون فحمله الى شريط النورالذى كان ينفذ الى المكان من باب الفرن وجلس عليه . وكان من طبعه الفزع من الجرذان ، فلم يحاول أن ينام فى موضعه، بل جلس متوجسا ينظر الى الظلام ولا يزال على وجل أن يكون قد أيقظ أباه !

فى أمثال هذه المآزق ، بعد التجارب التى تلف عليها الليالى والايام ، حول أوقات التقويم الموحشة ، اذ تصاب حواسه بالكلل ، يظل رأسه صحوا علىالدوام .. ماذا لو كان **أبوه** قد سمعه وهو يتسلق الى النافذة وأطلق النار عليه يحسبه من لصوص الليل ؟. بل ماذا لو كان أبوه أقبل نازلا وفى يده المسدس فصاح يبغى النجاة ، وأجفل أبوه رعبا اذ يرى أنه أوشك أن يقتله ؟ بل ماذا لو جاء يوم بعدذلك فذكر أبوه تلك الليلة ، وود لو أنه لم يكن سمعالصيحة التىكفت يده عناطلاق النار ..؟ وعلى هذا الخاطر بقى پول يحبكه فى نفسه حتى الصباح ..

كان يوم الاحد التالى جميلا يسرى فى هوائه نفحة منبقايا الخريف الصيفى تدفىء جو نوفمبر القارس ، وكان على پول أن يذهب الى **الكنيسة** يوم الراحة .كما هى العادة ، وكان من دأب سكان شارع **كورديليا** أيامالاحد المصحية أن يجلسوا بعد الظهر أمام المنازل على مقاعدهم المنقولة ، ويتكلم كل منهم الى جاره على المقعد القريب أو ينادى بعضهم بعضا من شاكلته الى شاكلته فى ألفة الجيران والاحباب . فيقعد الرجال على

الحشايا المزركشة التى توضع على الدرج الهابط الى المشاة ، بينا يقعد النساء فى صدارات الاحد على الكراسى الهزازة فوق الطنف ، مظهرات غاية الرضى والغبطة بمجالسهن ، ويلعب الاطفال فى الشوارع وهم كثار يخيل الى الناظر اليهم أنه أمام روضة من رياض الاطفال . وترى الرجال الذين على الدرج قد حلوا عرى قمصانهم ، ولووا أكمامهم ، وانفرجت سوقهم ، وامتدت أكراشهم أمامهم ، وراحوا يتحدثون عن الاسعار أويروون النوادر المستطرفة عن لباقة رؤسائهم أو أصحاب أعمالهم ، ويلتفتون لحظة بعد لحظة الى جمهرة الاطفال اللاغطين ، وقد تعالت أصواتهم الخنفاء ، ناظرين اليهم نظرات الحنان متفرسين أشباههم تتوارثها ذريتهم ، مستعيدين فى الذاكرة تبليغات الاساتذة عن درجاتهم المدرسية وتقدمهم فى الفصول ، مع ما يحكونه لهم من أساطير ملوك الحديد .

وجلس **بول** بعد الظهر يوم الاحد الاخير هذا على أسفل الدرج يحملق فى الطريق ، واخواته على كراسيهن يتحدثن الى بنات **القسيس** فى الدار المجاورة عما صنعن من القمص خلال الاسبوع ، وعما أكله بعضهم فى عشاء الكنيسة الاخير .. ويصنع البنات شراب الليمون اذا سخن الجو وبدت على أبيهن أمرات الرضى والانشراح ، فيحضرنه على الدوام فى قارورة حمراء تزينها الازهار على منديل مطرز الحواشى . وكان البنات يحسبنه لهوا ظريفا أن يمزح الجيران معهن حول ما فى لون القارورة من المعانى والاشارات .!

وفى ذلك اليوم كان والد بول على أعلى الدرج مشغولا بالحديث مع فتى يحمل طفلا فوق ركبتيه ، وينقله من ركبة الى ركبة لحظة بعد أخرى ، واتفق أنه كان الفتى الذى تعود المعلمون أن يتخذوه مثلا يحتذى به بول ، مجمر الطلعة مضغوط الفم ضعيف النظر يضع على عينيه نظارة يدور سلكها الذهبى على أذنيه ، وكان كاتبا لتاجر كبير من تجار الصلب ، معدودا فى الشارع من الشبان ذوى المستقبل ! ومن أقاصيصهم عنه أنه منذ خمس سنوات — وهو الآن لا يزيد على السادسة والعشرين — كان من شبان الهوى بعض الشىء ، فأشفق من عواقب المجون ، وبادر الى الزواج عملا بنصيحة رئيسه ، كبحا لنزواته ،

فاختار أول فتاة رضيته ، وكانت مدرسة نحيلة تكبره سنا ، وتضع مثله النظارة على عينيها، فولدت له حتى الآن أربعة أطفال كلهم قصار النظر على مثالها !

وفى ذلك اليوم كان **الفتى** يقص أخبار رئيسه الذى كان يومئذ يسيح على شواطىء البحر الابيض ويتلقى المعلومات يوما يوما منه عن سير العمل ، فيقول كيف أنه يرتب أوقاته على اليخت كأنه فى البيت ، وكيف يشغل باملائه كاتبين على الآلة الكاتبة .. أما والد پول فكانت قصة حديثه عن مشروعات الشركة التى يعمل فيها لتسيير سكة الكهرباء بشوارع مدينة القاهرة ـ فجعل پول يصرف أسنانه ويتوقع أن ينقلب المجلس قبل أن يفضى اليه . بيد أنه كان يحب أن يصغى الى تلك الاساطير عن **ملوك الحديد** ، يعيدونها من أحد الى أحد ، والى أخبار القصور فى **البندقية** وسفن اليخوت على شواطىء البحر الابيض ، وموائد اللعب فى **مونت كارلو** ، ويقع هذا الحديث موقع الارتياح فى مخيلته، ويشوقه مايقال عن موظفى الصندوق الفتيان الذين وصلوا من صناعة الصيرفة الى الشهرة، وان لم يكن من همه أن يعمل صيرفيا على صندوق .

وبعد العشاء راح مع أخواته يجفف الصحاف ، ويسأل أباه مضطربا : أيسمح له أن يذهب الى **جورج** ليستعين به على بعض مسائل الهندسة ، وسأله باضطراب فوق اضطرابه ذاك : أيعطيه أجرة السيارة ؟ واضطر الى اعادة السؤال الاخير لان أباه كان يكره أن يسمع سؤالا يتعلق بالفلوس كثرت أو قلت .. فقال أبوه : أليس فى وسعه أن يذهب الى تلميذ قريب من الدار ؟ ثم نهاه أن يؤخر عمل المدرسة الى يوم الاحد. الا أنه أعطاه الاجرة المطلوبة .

ولم يكن أبوه فقيرا ولكنه كان يطمع أن يصبح شيئا فى العالم ، ولم يأذن لپول أن يعمل فى قاعة الموسيقى الا لانه كان من مذهبه أن يحصل الولد على بعض الكسب كائنا ما كان ..!
صعد پول قفزا على السلالم، فمسح من يديه وضر الصحاف وغسلهما بالصابون الذى يكرهه لرائحته الرديئة ، ورش على أصابعه قطرات من ماء البنفسج الذى يخفيه بقارورته فى درجه،

وغادر المنزل وكتاب الهندسة تحت ابطه .. وما كاد يفارق شارع **كورديليا** ويركب السيارة الى المدينة حتى نفض عنه فتور يومين كاملين ، وثاب كرة أخرى الى الحياة .

وكان رئيس فرقة الشبان التى تمثل فى أحد المسارح بالمدينة من معارف **پول** ، وقد دعى الى الانشاد ليالى الآحاد كلما تيسر له الحضور ، وقد مضى أكثر من سنة على **پول** وهو يقضى كل وقت ممكن حول حجرة ملابس **شارلى ادوارد** ، وكان له بعض الحظوة فى صحبته ، لا لأن الممثل الشاب لم تكن له طاقة باستخدام وصيف يساعده فى اللبس ، بل لانه أنس من **پول** نوعا من « **الصلاح** » الذى يشبه مايسمى فى عرف **الكنائس** بالهداية !!

وانما كان **پول** يعيش حقا فى **المسرح** وقاعة **كارنيجى**. أما ما عدا ذلك فللنوم والنسيان . ذلك كان ((سر)) **پول** الذى كان له فى نفسه ما لسر الغرام الخفى. وما هو الا أن يستنشىء نكهة العشب والطلاء والمساحيق المتناثرة ، حتى يحس احساس السجين اذ يتنسم نسمات الحرية ويشعر من نفسه كأنه قادر على الكلم البارع والعمل العجاب ، ولا تكاد الفرقة الموسيقية تستهل العزف حتى تصدر منه السخائف والمضحكات ، وتلتهب حواسه ولكنه التهاب لذيذ !..

ولعله لاقتران الحياة الطبيعية بالقبح على الدوام فى نظر **پول** كان «العنصر الصناعى» ضروريا عنده للجمال ، أو لعله لامتلاء حياته فى غير هذه البيئة بمدارس الآحاد ، والاذكار الدينية ، وصغائر النفقة ، ونصائح النجاح فى المعيشة ، كانت هذه البيئة جذابة له بالحلل الانيقة التى يلبسها الرجال والنساء، وبتلك التفاحات أو الثريات التى تلمع على الدوام تحت أشعة الضياء!!

ومن العسير أن نبالغ فى تصوير شعوره بالافق السحرى الحق كلما عبر باب المسرح ، فلاشك أن أحدا من الرفقة لم يكن يتنبه لهذا الشعور فى طواياه ، وبخاصة **شارل ادوارد** ، فقد كان هذا أشبه بالاقاصيص القديمة التى كانت تحف باسم **لندن** الخفية ، وما احتوته من أولئك **اليهود** الخرافيين ذوى اليسار

الذين يلوذون تحت الارض بالسراديب ذات النخيل والاعشاب ، والنوافير والقناديل ، والحور الحسان فى الحلل والطيالس ، مقصورات تحت الارض لايبرزن الى النور . وكذلك كان **پول** يجد هيلكه المسحور ، وبساطه الطيار ، وفص الامانى والاحلام، بين تلك الشخوص والدواخين، ويعاين فيها ما يحلم به فى شواطىء البحر الابيض السابحة فى الاضواء ..

ولقد حسب كثير من معلميه أن خياله قد اختلّ بقراءة الاساطير وغرائب الاقاصيص ، ولكنه فى الواقع لم يكن يقرأ الا قليلا أو أقل من القليل ، ولم تكن الكتب الميسرة له فى البيت مما يغريه أو يفسد عقل الفتى اذا اطلع عليه . أما الروايات التى كان بعض أصحابه يستميله اليها فقد كانت بغيته من أمثالها تتحقق بالاصغاء الى **الموسيقى** : أى موسيقى من الفرق العازفة الى أرغن الطريق .. وكل ما كان يحتاج اليه شرارة تنقدح ثم يستولى خياله على حسه ويتكفل لنفسه بالصور والنوادر من خلقه وتوليده . كذلك لم يكن **پول** مفتونا بالمسرح على النحو المفهوم من هذه العبارة ، اذ لم يكن من أمانيه أن يشتغل بالتمثيل، ولا أن يشتغل بالموسيقى ، ولم تنبعث فيه رغبة قط فى صنيع من هذا القبيل، وانما كان همه كله أن يرى وأن يحاط بذلك الجو ، ويسبح على أمواجه ، ويذهب مرحنة فى اثر مرحلة بعيدا بعيدا من كل شىء !

وكلما قضى ليلة بين هذه المناظر عاد الى المدرسة أشد نفورا وكراهة مما كان .. ذلك البلاط العارى ، وتلك الجدران الجرداء، وأولئك القوم الذين لم يلبسوا قط حلة السهرة ، ولم يضعوا قط زهرات البنفسج فى عروة رداء، وأولئك النسوة فى مآزرهن الكابية وأصواتهن الناشزة ، وجدهن الصغير حول قواعد الاجرومية والاعراب ! وكان لا يطيق أن يتخيل التلاميذ الآخرون أنه يهتم جدا بهذه الخلائق ، ولابد له أن يوقع فى روعهم أنه مستخف بهم، وأن مقامه بينهم انما هو محض سخرية ومزاح . وقد كانت عنده صور مهداة اليه من جميع أعضاء الفرق المسرحيين . يريها لزملائه ويحدثهم عن ألفته لاصحابها أعجب

الاحاديث التى لا تصــدق ، ويحكى لهم مايروقه عن صداقته للمغنيات اللائى يأتين الى قاعة **كارنيجى**، وموائد العشاء معهن، وباقات الزهر التى يرسلها اليهن. فاذا فقدت هذه الحكايات فعلها فى نفوس زملائه ، ولم يكترث لهـا سـامعوه منهم ، ودعهم وانصرف ، وهو يزعم لهم أنه ذاهب الى ســياحة بين **نابلى وكليفورنيا ومصر** .. ثم يعود يوم الاثنين التالى مبتسما، شاعرا بموقفه ، معتذرا بمرض أخته الذى ألجـأه الى تأخير الســفر وارجاء السياحة الى الربيع ..

وظلت الامور تزداد ســوءا مع **بول** فى مدرسته وبين زملائه ومعلميه ، تستفزه الرغبــة فى اشعار معلميه انه يحتقرهم وأن له مكانة ومكانا بين سواهم ، فيقول أنه لا يستطيع أن يفرغ وقته لهذه النظريات والقضايا ، ويضيف الى ذلك وهو يزوى حاجبيــه ويمـزج كلامه بتلك اللهجة المترفعة التى تحيرهم أنه مشغول بمساعدة القوم فى الفرقة الموسيقية ، وانهم اصــدقاء له قدماء !!

ثم انتهت المسألة بذهاب **الرئيس** الى والد **بول** ، واخراج **بول** من المدرســة ليؤدى عملا من الاعمال ، وقيل لمدير قاعة **كارنيجى** أن يبحث عن حاجب مستقبل غيره ، وقيــل لبواب المسرح ألا يدخله اذا جاء ، ووعد **شارل ادوارد** على أسفه ألا يقابله بعد ذلك . وقد كانت **قصة بول** تسلية وفكاهة لاعضاء الفرقة حين سمعوا بها ، ولاسيما النساء ، فانهن جميعا نســاء عاملات جــادات يعملن ليعلن أزواجا كسـالى أوأخوة عاطلين ! وقد ضحكن كثيــرا ــ وان يكن ضحكا تخــالطه المرارة ــ لانهن دفعن الصبى على غير علم منهن الى اختراع تلك النوادر ، ووافقن ادارة المدرســة ووالد بول على أنه مثل ردىء ..

***

كان قطــار الشرق يخترق عاصفة ثلجية من عواصف يناير حين أخذت أشعة الفجر الراكد تتسرب الى الانظــار ، وصــفر القطار على مســافة ميل من نيــوارك . فانتفض **بول** على

مقعده حيث كان متحويا فى نومة قلقة ، ومسح بكفه زجاج النافذة وأطل يستطلع ماوراءه ..

كان الثلج يتساقط لفة لفة على الارض المبيضة مما تراكم عليها وعلى الحواجز ، الا أطرافا من الحشائش الميتة تطلع رؤوسها من فوق تلك الثلوج المتراكمة . ولاحت الاضواء من المنازل المبعثرة ، وراحت طائفة من العمال على الطريق تلوح بمصابيحها ...

ولم ينم **پول** غير قليل ، فأحس فى نفسه الكدر والتعب ، وكان قد عبر مسافة الليل فى مركبة صباحية ، لانه خشى اذا هو سافر بمركبة البلمان أن يقع عليه نظر رجل من رجال الاعمال فى **بتزبرج** رآه بمكتب **دنى وكارسون**، فلما أيقظته الصفارة أسرع بيده يلمس جيب صداره ويدور ببصره ، وهو يبتسم ابتسامة مترددة ... وكان الايطاليون الصغار الملطخون بالطين لايزالون مستغرقين فى النوم ، والنسوة الحشفات فى المشى يفغرن أفواههن ، وسكت حتى الاطفال الصاخبون الذين لاينقطعون عن البكاء ، فحاول **بول** ان يغالب قلقه ما استطاع .

فلما وصل الى محطة **چرسى** تناول طعام الافطار على عجل وامتعاض ، وهو لايكف عن النظر الى ماحوله ، ثم نزل بعد محطة الشارع الثالث والعشرين فدعا بسائق ، وركب معه الى دكان من دكاكين اللوازمات للرجال ، لم يكد يفتح بابه فى أول النهار ، فقضى ثمة اكثر من ساعتين مدققا مبالغا فى تدقيقه ، ولبس كسوته الخارجية الجديدة فى المقصورة ، وطوى معطفه وسائر ملابسه فى المركبة مع قمصانه الجدد . ثم ركب الى دكان للقبعات والاحذية ، وكانت وجهته التالية الى ((**تيفانى**)) حيث انتقى بعض الفرش المفضضة ودبوسا للفاعلم ينتظر ريثما تنقش على فرشته علامتها ، بل ذهب الى دكان الحقائب فوضع مشترياته فى أكياس متفرقة من أكياس الاسفار ...

كانت الساعة قد جاوزت الواحدة بقليل ، فركب الى ((**والدورف**)) وولج باب المكتب بعد محاسبة الحوذى ، وكتب امام اسمه انه قادم من واشنطون ، وزعم أن والديه مسافران فى

الخـــارج ، وانه قدم لانتظـاروصولهما على الباخرة ، وحكى قصته هذه بغير ريبة ، فقوبلت بغير مشقة ، لانه عرض عليهم ان يدفع الاجر عنهما سلفا،واستأجر حجرة للنوم وأخرى للجلوس مع الحمام !!

ولم يكن بول قد رسم هـذه الخطة للسفر الى **نيويورك** مرة واحدة ، بل مائة مرة ، وكان قد راجع تفصيلاتها مع **شارلى دوارد** ، وعنده فى دفتره بالدار صفحات وافيـة بوصف **فنادق** نيويورك مقطوعة من صحف الآحاد .

ولما قادوه الى حجرة الجلوس التى اختارها فى الطبقة الثامنة، وجد كل شيء على مايرام ، لايعوزه من الصورة التى رسمها فى ذهنه الا الازهـار والرياحين . فدق الجرس للغلام وارسله فى طلب باقة منها ، وظل يحوم قلقا حتى رجع اليه الغلام ، فجعل يخلع ملابسه الجديدة ويجسها بأصابعه فى ارتياح ، فلما جاءته البـاقة أسرع فوضعها فى الماء ،وغطس فى حمام سـاخن . ثم خرج من حجرة الحمام البيضاء متسربلا بملابســـه الحريرية القشيبة ، يلعب بأهـداب ثوبه الاحمر ، وكان الثلج يتســاقط دراكا خارج النوافذ يحجب النظر حتى لايكاد يرى ماهنالك ،ولكن الهواء فى الداخـــل ناعم عطر ،فوضع البنفسج والنسرين على الكرسى الصغير بجانب السرير ، وألقى بنفســـه وهو يتنهـد مستريحا ، ويجذب عليـه الملاءة الرومانية .. وكان متعبا بعـد الحركة المتلاحقة ،والتوتر اللاعج،والمسـافة الطويلة التى عبـرها خـلال الاربع والعشرين الساعة الاخـيرة ، حتى خلص الى نفسـه آخر الامر يفكر كيف كان ماكان ،وسـكن الى أصـداء الريح والى الهـواء الدافىء وريا الازهـار المعطرة الندية ، فاسترسـل فى المراجعة والاستعادة بين اليقظـة والتهويم .

لقـد كان الامر مدهشا لفرط بساطتـه ، فانه لمـا أقصوه عن المسرح وقاعة الموسيقى ،وحرموه قوام حيـاته ، تقرر كل شيء فى عزيمته ، فلم يكن مابقى الامسألة فرصـة تنتهز فى أوانها ، وانما أذهلتـــه جرأته ، لانه كان يدرك أنه طريد الخوف والجزع ، لكثرة ماكان يلفقـه من الاكاذيب التى كان خوفه من افتضاحها يلاحقـه

ويطبق عليه ، ويشد عضلات بدنه ، فلا تزال تضـيق به ثم تضـيق ، ولا يذكر حتى الساعةزمنا لم يكن فيه خائفا من شيء من الاشياء ،وكذلك كان منذ طفولتهيترقب ذلك الشيء المخيف وراءه أو أمامه أو على جانبيه ، فلم يكنله مهـرب من الركن المظلم الذى لايجسر علىمواجهته واستطلاعه ،ولـكنه لايفتـأ يتوهم أن أحـدا يواجهه منه ويستطلعه ٠٠وطالمـافعل ماليس بالمسـتحسن أن تقع عليه عيناه وهو أعلم بما فعل٠٠! أما الآن فقد استولى عليـــه شعور عجيب بالخلاص ، كأنما هوقد ألقى القفاز وتحدى ذلك الشيء المخيف وراء ركن الظلام !

على أنه لم يمض غير يوم واحدمنـذ كان يتلفت اليه وهو يتعقبه ويطارده ٠كان أمس عند الاصيلاذ أرسلوه بوديعة **دنى وكارسون** على حسب العادة ، وأمروه هـذهالمرة أن يدع الدفتر للموازنة ، وكان هنـــا لك أكثـر من ألفيريال محـولة ، ونحو الف ريال من ورق العملة ، أخذها جميعـاوحولهـا الى داخـل جيبـه ، واستخرج فى المصرف قسـيمةايداع جـديدة ، وبلغ من هـدوء أعصابه أنه عاد الى المكتب فأتمعمله والتمس الترخيص له فى الغيـاب يوم الغـد ـ وكان يومسبت ـ منتحـلا لذلك عـذرا مقبولا ٠ وقـد علم أن الدفتر لنيعاد قبل يوم الاثنين أو الثلاثاء ، وان أباه يومئـذ يكون غائبا عنالبلدة بقية الاسبوع ،ولم يداخله شعور الترددطرفة عين منذ وضعورق العملة فيجيبه الىأن استقل القطار الى "نيويورك !

وما أسهل ماحدث هذا كله ٠فالآن لا ايقاظ ولا أشباح تنتظره عنـد أعلى السـلم ، وظل يراقبنتف الثلج من وراء النـافذة الى أن استغرق فىالسبات العميق ٠

كانت الساعة الرابعـة بعـدالظهـر عنـدما أفاق من نومه ، فوثب فى قفزة واحدة.. لقد ضاع يوممنأيامه القلائل الثمينة، فقضى نحو ساعة يلبس ويتأنقويتطلع الى المرآة ٠ وتم كل شيء على الوجـه المطلوب ، فهو الآنذلك الفتى الذى طالمـا تمنى أن يكونه منذ سنوات !

واستقل مركبة بعد نزوله ، فاتجه بها الى الشارع الخامس

نحو **المتنزه** . وكان تساقط الثلج قد خف قليلا ، وانطلق السابلة والمركبات يذهبون ويجيئون هنا وهناك فى شفق الشتاء، وظهر **الغلمان** بملابسهم الصوفية يجرفون الثلج من درج الابواب ، ولاحت دكك الشارع بألوانها معارضة للبياض من جانب الشارع ، وبدت فى الزوايا **حدائق** الرياحين مزدهرة وراء نوافذ الزجاج التى كان الثلج يتساقط عليها ويذوب فوقها : بنفسج وورد وقرنفل وليلاق ، تتألق على نحو أبهج جدا وأفتن من معهودها ، اذ كانت على غير العادة تتألق بين الثلوج ، وكان المتنزه نفسه منظرا عجبا من مناظر الشتاء .. !!

ولما قفل راجعا كانت فترة الشفق قد انتهت وتغيرت نغمة الشوارع والطرقات ، وعاد الثلج يتساقط دراكا وفاضت الانوار من الفنادق التى ارتفعت طباقها تتحدى الرياح الغاضبة من قبل المحيط الاطلسى ، وتلاحقت أرتال من السيارات تقاطعها عرضا أرتال أخرى من مفارق شتى فى الطريق ، وكان على باب فندقه نحو عشرين مركبة مما اضطر حوذيه الى التريث حيث يشاهد الصبية خدم الفندق فى أكسيتهم الملونة يعدون مقبلين مدبرين على البسط الممتدة من الباب الى الطريق ، وفى كل مكان من فوق ومن الدخل وعلى الجانبين ضجيج وزحام يكتظ بألوف من الخلائق الآدمية ، كلهم متلهف كلهفته على المتعة والسرور ، ويدور بعينيه فلا يرى ثمة الا دلائل الصولة والحول والطول ، تثبت ثبوت اليقين سلطان الثراء القادر على كل شىء .. !!

وصرف **الصبى** أسنانه ، وضيق مابين منكبيه وانتابته نوبة ادراك وتصديق لما تمناه ، فهذا محور الروايات ، ومدار الاساطير ، ومادة العصب الذى يختلج بكل شعور يدور من حوله دوران الثلج المتساقط فى الهواء ، وكأنما هو هنالك وقود من الحطب فى اعصار .. !

ولما هبط **بول** من السلم لتناول العشاء ، قابلته أنغام الموسيقى من فتحة المصعد تحييه ، فتقدم الى الرواق المزدحم ، وجلس على أحد المقاعد عند الحائط يستعيد أنفاسه ، وخطر له لحظة أن هذه الانوار ، وهذه الاصوات ،

وهذه الروائح المعطرة ، وهـذه الألوان المتعددة ، فوق طاقتـه ووراء قدرته على الاحتمال . الا أنها لحظة .. لحظة ليس الا ..
فأنما كان هؤلاء جمهوره المختار كما قال لنفســه ، وتمشى بين الأروقة متمهلا خـلال حجرات الكتابة والتدخين والاستقبال ، كأنه يستكشف الغرف والحجرات فى قصر مسحور مشيد ومسكون من أجله دون سواه !

ثم بلغ حجرة المائدة فجلس الى مائدة بجـوار النـافذة ، وفاضت عليه أحلامه تذهــله لألائها من قبل هاتيك الازاهير النضرة ، وتلك المفارش الناصعة، وتلك القـوارير الملونة ، وتلك الحلل الفرحة ، وتلك السدادات الخافتة وهى تتفتح ، وتلك الانغام المتـرددة من جانب الفرقة وهى تعزف لحن الدانوب الأزرق . فلما أضيف اليها شعاع قدحه المتدفق بشراب الشمبانيا المورد، باردا فوارا ، يعلوه رغو الحباب، غلا به العجب أن يكون فى الدنيا أناس يدينــون بالامانة والربح الحلال !!

هذا كل مايقتتل عليه الناس.. هذا كل مايدور عليه القتال .. لقد كاد يرتاب فى ماضـيه ويتساءل : أكان قد عرف قط مكانا يسمى شارع **كورديليا** ؟ مكانا يتلاحق فيــه الأبذاذ من أحلاس الشغل وراء ســيارة الصباح الاولى ؟ ماكان هؤلاء كما تخيلهم **پول** تلك الساعة الاكالمســامير فى الآلة الـكبرى ، يقززون الناظر بنثار الشعر على معاطفهم من أمشاط صـغارهم ، ورائحة المطبخ فى ثيــابهم .. شـــارع **كورديليا** ؟! آخ . ذلك شيء فى زمان غير هذا الزمان ، ومكان غير هذا المكان ، وهل أتى عليه حين من الدهر قط لم يعش فيه حيث هو عائش تلك الساعة ولم يسهر فيه غير سهرته تلك الليلة بعد الليلة ؟ وهل يعود على مدى الذاكرة الى بيئة غير تلك البيئة حيث يلمس ماهو لامسه الآن بين ابهامه وبنصره من ذلك القدح الدهاق !

ولم يدر بخلده قط انه متهيب أو منفرد ، ولم تساوره رغبـة خاصة أن يعرف أحدا من هؤلاء الناس ، . كل ماكان يحيــك بصـدره أن يســتمتع بالنظر والتأمل وان يشهد ذلك الموكب بعينيه ، وحسبه المنظر المعروض أمامه ، فهو غاية مايصبو اليه !

وما دار بخــلده كذلك أنه متهيب أو منفرد فى مقصـورته

بدار الاوبرا ذلك المساء ، بل خلص تماما من هواجسه ومن نوازع التهجم بالاساءة كى يرى مخالفا لما حوله . بل كان يحس أن ماحوله الآن يفسره ويشرحه ويوائمه ، وما من أحد يرتاب فى حلة الأرجوان . فانما عليه أن يلبسها غير متفحم ، وهذا يكفيه ! عليه أن يرمق كسوته الانيقة ليكون على ثقة أنه فى سمته هذا لن يتعرض للاستخفاف من أحد أو للنظر اليه من عل ..

وشق عليه تلك الليلة أن يفارق ردهة الجلوس الجميلة الى حجرة نومه ، فلبث برهة يرقب العاصفة الهائجة من نافذة البرج ، فلما ذهب الى الفراش أدار النور عليه ، لما طبع عليه من الخوف من جهة ، ولكيلا يخالجه الشك طرفة عين اذا استيقظ أنه سيرى هنالك ورق الجدار الاصفر وصورة **واشنطون وكلفن** فوق سريره .

وأصبح يوم الاحد والمدينة غارقة فى الثلوج ، فتناول **پول** طعام الافطار متأخرا ، وصادفه بعد الظهر **فتى** طالب حديث من **سان فرانسيسكو** ، قادم الى البلد ، قال له انه أفلت فى سبيل جولة أحدية ، وعرض عليه أن يطلعه على أسرار الليل فى المدينة ، فذهبا معا الى العشاء ، ولم يعودا الى الفندق الا الساعة السابعة من الصباح ، وكانا قد ابتدأ الصحبة فى حماسة الشمبانيا ، ثم افترقا افتراقا فاترا عند المصعد ، فأسرع الفتى الطالب الحديث يدرك قطاره اذ قصد **پول** الى حجرة نومه . فلما استيقظ حوالى الساعة الثانية بعد الظهر ، أحس الظمأ والدوار ، ودق الجرس للخادم يأتيه بماء مثلج وقهوة مع صحف **بتسبرج** .

ولم يشتبه به أحد من جانب ادارة الفندق ، فانه مما يرى عليه قد أحسن لباس كسوته فى لياقة وكرامة ، ولم يلاحظ عليه مايلفت اليه الرقباء بصفة خاصة ، وانحصر نهمه فى سمعه وبصره ، فلم يكن فى افراطه مايسىء الى أحد . وأسر ماكان يسره هنالك منظر الشفق الاشهب من نافذة حجرته ، ومتعته الهادئة بالازهار والملابس والايوان الواسع ، وسجارته ، وشعوره بالاعتزاز والوجاهة ، ولم يذكر أنه شعر قط بمثل

هذا الوئام والسلام مع نفســه فيما مضى من حياته ، فان مجرد الخـــلاص من اضـــطراره الى الاكاذيب الحقيرة كل يوم ويوما بعد يوم أعاد اليه الثقة بكرامته ٠٠٠ وما كان يكذب من قبل بمشيئته واختيـــاره ، حتى فى المدرســة ، لمحض اللذة ، الا أن يكون ذلك لفتا للانظار والاعجـاب ، ليؤكد لزملائه أنه شيء آخر غير سائر الصبية من شارع **كورديليا** ، فهو الآن أوفر رجـولة وأوفر اخلاصا وصدقا ، حين لايشعر فى قرارة ضميره بالحـاجة الى نفخة الابهــة والادعاء ، أو الى « لبس الدور » كما كان أصحابه الممثلون يقولون ٠٠ وتوالت أيامه الذهبية دون أن تشوبها شائبة من ندم أو أسف ، بل كان يجتهد اجتهاده أن يستوفى كل يوم من أيامه الى الثمالة ..!

وفى اليوم الثانى لوصوله الى نيويورك وجد الحكاية كلها مستغلة مفصلة بكل اسهاب ، فى صحافة **بتسبرج** ، مما يدل على أن الحوادث المحلية المثيرة كاسدة فى تلك الايام ٠ وقد أعلن مكتب **دني وكارسون** أن والد الفتى سدد الغــرم ، وليس لدى المـكتب نية المقاضــاة ، وحودث **قسيس كمبرلاند** ٠ فاعرب عن أمله فى استرجاع الفتى الذى فقد أمه ، وعزز هذا الامل تصريح من ناظر **مدرسة الاحد** ، وقد ترددت اشاعة فحواها أن الفتى شوهد فى أحد الفنادق بمدينة **نيويورك** ، فسافر أبوه شرقا ليبحث عنه ويعيده الى داره ٠٠٠٠

وكان **پول** على أهبــة اللبس للعشاء ، فجلس على كرسي يعييه الوهن فى ركبتيه ، ويسند رأسه الى يديه ، وخطــر له أنه لشر من السجن أن يعود الى شــــارع **كورديليا** ، وتوصد عليه تلك البيئة أبدا بغير أمــل فى مفارقتها ٠ وتمثلت له المعيشة الرتيبة سنوات متتابعات ، لاتتخللهــا سلوة ولانجاة ، وتمثلت له **مدرسة الاحد**، واجتمــاعات الشبيبة ، والورق الاصفر على الجــدران ، وفوط الغسيل المبللة بعد مسح الاطباق ، فهجمت كلها على مخيلته واضحة حيث تسقم وتقزز بفرط وضوحها وحياتها ، وعاوده الشعور القديم بسكوت الموســيقى والهبوط النفسانى الذى يستولى عليه كلما اقتربت نهاية التمثيل ، فتفصد جبينه عرقا ووثب واقفا ، والتفت الى المرآة ٠ ثم ركن الى تلك العقيدة الصبيانية فى المعجزات التى كان

يركن اليها كلما قصد الى المدرسة خاوى الذهن من دروسه ،فارتدى ملابسه ، واندفع يصفر الى الرواق متجها الى المصعد ،ولم يكد يدخل حجرة العشاء ويندمج فى نغمات الموسيقى حتى انتعشت ذاكرته بتلك القدرة المرنة فيه على التفرغ للخطة الحاضرة ، والصعود معها الى حيث تصعد ،والعكوف عليها دون ماعداها .. واستعادت تلك الاضواء ، وذلك اللألأ والبريق ، وتلك المناظر والحواشى التى الى جانبها ، كل سلطانها الاول ، وتخيل فى نفسه أنه صيد طريد ، وانه سيختم كل شىء أوفق ختام ، وشك أكثر من ذى قبل فى وجود شارع **كورديليا** ، فأسرف للمرة الاولى فى معاقرة خمرته ، ... أليس هو واحدا من هؤلاء القوم ؟ .. وجعل يرافق الموسيقى بنقرات عصبية ، ويقول لنفسه مرة بعد مرة ان الغنيمة تساوى ثمنها فلا أسف ولاندامة !!

لقد سنحت له سانحة ، وهو كالنعسان من الخمار ، يستجيب لعزف القيثار ونشوة الشراب ،انها كان يمكن أن تدبر أحكم من هذا التدبير ، وانه كان أخلق به أن يركب احدى البواخر الى حيث ينجو من مخالبهم ، لولا انه لم يكد يسترسل مع هذه السانحة حتى تخيل العدوة الاخرى من الدنيا بعيدة بعيدة ليس لها قرار ، وعلم انه لم يكن مستطيعا أن يصبر حتى ينتقل اليها . فقد كانت لهفته سريعة عاجلة ، فلو انه اختار مرة أخرى مايعمل لما اختار غير ما عمل ، وأجال عينيه فى حجرة المائدة اذ كان يغشاها تلك اللحظة دخان ذهبى رقيق ،فعاد يقول لنفسه :آه . ان الغنيمة قد استحقت ثمنها بغير كلام !

وأفاق صباح اليوم التالى على نبض أليم فى رأسه وقدمه ، اذ كان قد ألقى نفسه على الفراش بملابسه دون أن يخلع حذاءه ، فأحس ثقلا رصاصيا فى أوصاله وأعضائه ، ويبسا فى لسانه وحلقه ، وملكته نوبة من نوبات الصحو الذهنى من دأبها ألا تنتابه الا حين يعيى بجسده المتهالك وأعصابه المنحلة ، فاضطجع هناك وأغمض عينيه ، واستسلم لمد الحوادث يغمره ويحتويه ...

ان أباه فى **نيويورك** ...

لعله الآن يتنقل من هذا المنعطف الى ذلك المفترق ..

وتعاقبت أمامه ذكريات فصول الصيف المتوالية على المقاعد القائمة أمام الدور ، فكأنما أغرقته هذه الذكريات فأثقلته بطوفان من المياه السود ، ولم يبق معه من المال مائة دولار ، بعد أن عرف الآن – فوق معرفته بذلك فى كل زمان – أن المال هو كل شيء ، وانه السور الفاصل بين كل مايشتهى وكل مايكره ، ودارت البكرة الى نهايتها ، وكان قد فكر فى ذلك منذ ليلته الاولى الفاخرة **بنيويورك** ودبر بعض التدبير لاطالة الخيط ماوسعه أن يطول ...

وهاهى تلك البقية ملقاة على المنضدة أخرجها بالامس بعد أن صعد على غير هدى من حجرة المائدة ، فكان مرأى المعدن اللامع يؤذى عينيه ، وينأى ببصره عنه ويخشى أن يلتفت اليه ... !

ونهض يتمشى بجهد أليم ، ينتابه من لحظة الى أخرى غثيان بغيض . انه الوجوم الآن مضاعفا يتزايد ويتجدد ، وكأنما الدنيا كلها قد أصبحت شارع **كورديليا** . الا أنه على نحو ما لم يكن متخوفا من أمر معلوم ، وكان على طمأنينة لانه على مايظهر قد نظر الى الركن المظلم أخيرا وعرف ..

لقد كان فيما رآه الكفاية من السوء ، ولكنه ليس من السوء بحيث كان يتوقع فى مخاوفه الكثيرة . لقد وضح أمامه الساعة كل أمر ، وملأه الشعور بأنه قد استخرج منها أحسن مايمكنه ، وعاش تلك العيشة التى تمناها ، وقضى نصف ساعة يفتح حماليقه على **المسدس** أمامه ، ويثوب الى نفسه فيقول : كلا . ليس هذا هو الوسيلة ، ثم نزل واستقل مركبة الى العدوة ، – فانتقل الى الجانب الآخر الذى يلى السكة الحديد ...

واستقل مركبة أخرى وأمر الحوذى أن يساير خط **بنسلفانيا** الى ظاهر المدينة ، حيث تراكمت الثلوج على السكة الحديد وأطبقت على الحقول فى الخلاء ، ولم تكن الحشائش الميتة والاعشاب الجافة تطلع من تحتها الا على بقعة هنا أو بقعة هناك ، وقد اشتد سوادها بازاء ذلك البياض ... !

فلما أفضى الى الخلاء صرف الحوذى ومشى يتعثر على مدارج الطريق ، مشتت الذهن بين أمور مبعثرة لا ارتباط

لبعضها ببعض ، وخيلّ اليه انه يحتفظ فى دماغه بصورة واقعية لكل ما وقعت عليه عيناه منذ الصباح : فتذكر كل لمحة من ملامح **الحوذيين** ، وتذكر **العجوز** الهتماء التى اشترى منها الزهر الاحمر المعلق فى عروته ، وتذكر **العامل** الذى أخذ منه التذكرة ، وجميع زملائه فى معبر العدوة . . . وكلت قواه الذهنية عن مواجهة الواقع المشهود امام عينيه ، فاشتغلت بمتابعة هذه الذكريات القريبة وترتيبها وتصنيفها ، وكأنما اختلطت جزءا من اجزاء الدمامة والقبح فى تركيبة هذه الدنيا بكل ما رحبت ، مزيدا عليها صداع رأسه ومرارة لسانه والتهابه ! وانحنى فتناول قبضة من الثلج ووضعها فى فمه ، ولكنه خيل اليه انه ملتهب كلسانه .

وبلغ الى هضبة تسير السكة تحتها بنحو عشرين قدما ، فتوقف وقعد ..

وكانت القرنفلة فى عروته تذبلت فمالت من البرد ، ولاحظ هذا كما لاحظ انطفاء لونها ونصول صبغتها ، وقام بخاطره ان الازاهير التى عاينها جميعا فى الليلة الاولى قد اصابها ما اصاب هذه القرنفلة منذ حين ، فما حياتها جميعا غير نفس واحد على الرغم من جرأتها بالسخرية والتحدى على الشتاء وراء الزجاج ، وانها لفى النهاية لعبة خاسرة تنتهى اليها هذه الثورة على العرف المتواتر الذى يطرد عليه مسير هذه الدنيا ، ومد يده الى **زهرة** من تلك الازهار بعناية ورفق ، وحفر فى الثلج حفرة صغيرة ودفنها فيها . ثم استرسل يتأمل هنيهة فى تلك الحالة الهزيلة غير شاعر ببرد الهواء ..

ثم أيقظه من ذهوله صوت **قطار** يقترب ، فوثب قائما على قدميه لايذكر شيئا غير ما انعقدت عزيمته عليه ، يخشى ان يفوت الوقت فلا ينجزه فى اوانه . ووقف يرقب القطار المقترب ، وقد اصطكت أسنانه وانفرجت شفتاه عن ابتسامة رهيبة ، والتفت مرة او مرتين الى جانبيه كأنه يوجس هنالك من رقيب . فلما

حانت اللحظة المحتومة **قفز** . . . فلما سقط ومض فى ذهنه حماقة العجلة التى أقدم عليها بوضوح لا يرحم ، وانبسطت امامه مساحة ما تركه وما فاته ان يتمه فسيحة رحيبة .. ولمعت بين ثنايا رأسه اوضح من كل وضوح زرقة البحر الابيض وصفرة رمال الجزائر على شاطئه !

أحس شيئا يصدم **صدره** .. . احس بدنه مقذوفا فى الهواء يعلو ويعلو ، وتتراخى فى الوقت نفسه اوصاله وجوارحه . وتحطمت الآلة التى تصنع لذهنه الصور ! فارتجعت الصور المضطربة الى سواد .. وآب **پول** مع الظلام الى قرار كل شيء!

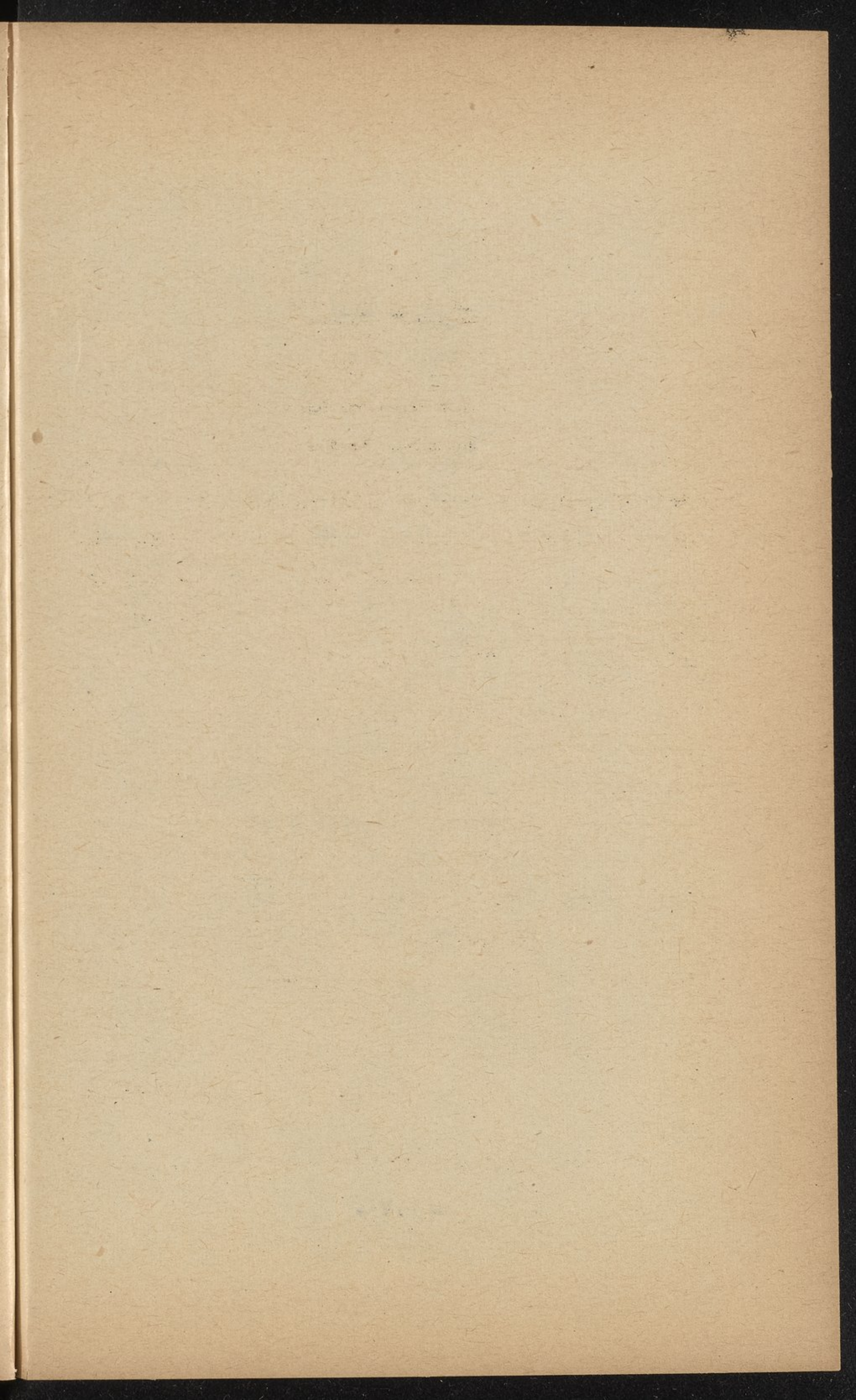


ادنا فيربر

Edna Ferber

١٨٨٧ -

قصصية مسرحية، ولدت فى **مشيجان**، وألفت روايتها الاولى وهى فى نحو الثالثة والعشرين، ثم عــدلت الى كتــابة القصص الصغيرة ، فاتخذت لها **بطلتها** من شخصية المرأة « **ربة الاعمــال** » باسم **أما مكسنى** Mcchesney
وألفت قصصــا أخرى جمعتهــا بعنوان « **الام أدرى** » ، وأصدرت خلال ذلك روايات مطولة أدارت أكثر موضوعاتهــا وموضــوعات قصصها الصــغيرة على الفوارق الخلقية والاجتماعية بين الاجيــال المتعاقبة من النســاء عامة ، ومن الرجال فى بعض الاحــوال :٠٠ وربما ألفت الرواية لبيــان هذه الفوارق فى أربعة أجيال متعاقبة! وقصتها التاليــة تلمس موضوع الاجيال من بعض نواحيــه ، وقد حولتها بمعاونة **جورج كوفمــان** Kaufman الى مسرحيــة ملحنه (سنة ١٩٢٤) ٠٠ وكان كتابها الذى ترجمت فيــه حياتها بعنــوان « ذخــيرة خاصــة » ،وأصدرته بعدأن جاوزت الخمسين، تطبيقا لدراسة الاجيال على نفسها من بعض الوجوه ٠



الشيخ مينيك

لأدنا فيربر

Old Man Minick

By Edna Ferber

كانت زوجته تبالغ فى تدليله ، وتفرط فى مبالغتها . كذلك كانت ولا نكران !! اليك مثلا مسألة الوسائد : لقد كان مينيك الشيخ ينام ورأسه مرتفع ، او هكذا كان يخال . كان يحب ان يرى الوسادتين الى جانبه على فراشه الكبير العتيق المصنوع من خشب الكريز .. ثم يغوص فيهما ويغط غطيطه بين الزفير والشهيق ، مسترخى الاسارير مستريح الجوارح للرقاد . . فاذا ما جاء الصباح كانت احدى الوسادتين ترى دائما على الارض ، اذ كان يلقيها هنالك . فلا تفتأ صباح كل يوم راقدة على الارض ، وقد صعرت وجنتيها البارزتين كأنها تؤنبه الى جانب الفراش .

وكانت مدام مينيك تعرف ذلك — بطبيعة الحال — بعد ان رافقت سرير الكريز زهاء اربعين سنة ، ولكنها لم تنفس عليه قط هذه الوسادة ، بل كانت تلتقطها كل صباح وهى فى طريقها الى النافذة تغلقها ، وتعيدترتيب الفراش بالوسادتين كما فعلت بالامس ..

ويأتى دور النافذة ، فان مدام **مينيك** تحب أن تكون مفتوحة على مصاريعها . ولكن مينيك **الشيخ** على ادعائه أنه رجل عصرى ، وانه من رجال الساعة على حد تعبيره ، كان يخشى هواء الليل ، ويتوجس منه ، ويقول ان هذا الهواء يخفى فى

طياته ادواء لا يتقى خطرها : من البرد ، والرطوبة ، والعفونة ، والحمى ، وسائر هـذه الامراض ٠ ٠

ولـكن **مدام مينيك** كانت تراجعـه ، مؤكدة له أن هواء الليل كغيره من الاهوية ، ولم تكن **مدام مينيـك** امرأة جيزبونا لاتفقـه الامور ، فهى عصرية من قبيـل زوجها ٠ فاذا ذهبـا الى الفراش كانت النافذة مفتوحة ، وما يزالان يتبادلان أطراف الحديث فى شتى الامور بهـدوء ودعـة ، كما هو مألوف بين زوجـين عاشا معا فى سلام نيفا وأربعين عاما لاتشوبها شائبة ، الا ما يأتى من حين لآخر من شـجار يسـير كأنه توابل الطعام !

ـ لاتنسى أن تذكرينى أن أدعو **جيرسون** غدا ليصـلح القفل الذى فى الدور الاول ٠ ان الصحف مستفيضة بأخبـار اللصوص ٠٠

فتجيبه : سأفعـل اذا تذكرت ذلك ٠

وهى لاتنسى أبدا !

ـ **جورج دنتى** لم يحضر الينا منذ أسبوع ٠٠!

ـ آه يالهؤلاء الشباب ٠٠ هل ذهبت **الى كورتز** ودفعت اليـه خمسين سنتا لكى بدلتك ؟

أو ! يالله ٠٠ لقد نسيت مرة ثانيـة ٠٠ وسـيكون أول ما أنا صانع صباح الغد ٠٠

ويشمان رائحـة فيقولان : تلك رائحة منبعثـة من الافنية ، انها لشيكاجو ٠٠!

ـ لابد أن الرياح تهب غربا ٠

ثم يدنو الرقاد وئيد الخطى ، ولـكنهما يصابرانه شيئا فشيئا حتى يلقى أكنافه عليهما ، فيناما غير مستغرقين ٠٠

وكثيرا ما يستيقظ **مينيك** ويقوم من تحت أغطيته الى النافذة المفتوحة يغلقها ، فلا يبقى منها مفتوحا غير قيراطين ٠ وكانت مـدام **مينيك** تسمعه أحيانا ، الا أنهـا كانت عجوزا عاقلة تروض الامور بحكمة وروية ٠ وكانت أعقل من أن تدع راحتها وسلامتها عرضة للكدر من جراء نافذة تغلق أو تفتح ٠ ولطالما تبسمت فى شىء من الحرد تحت

أطباق الظلام ! ومامن علامة تدل على يقظتها اذ تفكر قائلة : ان النافذة المغلقة لن تقتلني على كل حال ...

وربما حدث من قبيل الجزاء ،ولكي تقنع نفسها انها ليست لعبة في يد أحد ، أن تتمهل حتى يغفو مرة ثانية وتنسل شيئا فشيئا نحو النافذة ترفعها قيراطا أوقيراطين .

يقول في الصباح وهو لايحسن المداراة : كيف فتحت هذه النافذة؟

ـ النافذة ؟ انها كما هي منذ المساء، ثم تنحني فتلتقط الوسادة وتعيدها الى موضعها ..

وقلما كانا يطرقان حديث الموت ، فلايسمع له ذكر بين هذا **الزوج** القرير العين ، الدائب على العمل ، الموفور العافية ، الذى يناهز السبعين، وبين تلك الزوجة الممتلئة التى ناهزت السادسة والستين ..

الا انه كان مفهوما كما هي العادة بين الزوج والزوجة ، ودون أن يصرحا به بينهما ، أن الشيخ **مينيك** هو السابق الاول ، لا لان أحدا منهما يريد أن يسبق أويلحق ، بل يتفق أحيانا أن يهيئا العدة لقضاء الشتاء فى **كليفورنيا** والبقاء هناك أبدا اذا راقهما المقام ، ولم يستشعرا الشوق الى **جورج دنتي** ، ودخان **شيكاجو** ، وضجة شيكاجو، وروائح شيكاجو ومافيها من زحام وأقذار . ولكن مقدار التأمين الذى يدفعه الشيخ **مينيك** كل عام ، يدل دلالة واضحة على انه يريد أن تعيش زوجته من بعده فى أمن وراحة .. والدنيا مع ذلك ملأى بالنساء الارامل . وكل يرى ذلك . ولكن كم من الارامل الذكور ؟ انهم قليل عددهم . ان النساء الارامل تعد بالالوف ، يعشن وحيدات أويقمن فى الفنادق ، أو عند بناتهن المتزوجات وأزواج بناتهن ، أوأبنائهن المتزوجين ، أو أزواج بناتهن . ولكن الحيرة كل الحيرة فى حياة الرجال الارامل الذين فى مثل حالتهن . أما السبب فى ذلك فلا من يعرفه . ولم تتم رحلتهما الى **كليفورنيا** فى عامهما ، . ثم جاء العام الذى تلاه غامضا . محيرا **للشيخ** ، فأول مايذكر عنه أنه كان العام الذى هبط فيه سعر الاوراق المالية وقصم ظهور أصحابها . وقد ظهر أن **أسهم التأمين** لم تكن فى واقع الامر الا زيفا لاقيمة له . لقد انصرف **مينيك الشيخ**

وانقطع عن أعمال الحياة المجهدة قبل ذلك بعام واحد ، ليعيش عيشة هادئة مطمئنة من ثمار عمله فى الحياة العامة نصف قرن كامل . وهاهو الامر يتكشف فاذا هذه الثمار قد اعتراها العطب ، وتبين له انها لم تكن تحمل فى كيانها مايضمن لها البقاء . !!

وذهبت **مدام** مينيك ذات يوم نحو المدينة لتقابل الطبيب **ماثيو** وتعرض عليه ماحل بها من الالم المبرح .وعادت الى المنزل وقد بدا على وجهها التغضن وأخذت تهذى وترتعد وتتجنب نظرات الشيخ **مينيك** .

وحلت الشهور التالية تحمل معها مجموعة من الآلام : أشعة اكس، أمل، يأس ، مخدر، مسكن ، ثم موت ...

فلما انقضى كل شىء وقف **مينيك** الشيخ فى ذهول يقول :

- ولكننى كنت أحسب انى سأبقها !!

بيع المنزل الذى كان يقيم به فى شارع **اليس** قريبا من الحى التاسع والثلاثين بماقدر له من ثمن . فقد كان **جورج** يقول وهو يعرف مالا يعرفه غيره عن حقيقة أثمان العقار فى شيكاجو : يجب أن تقبلوا أى ثمن يدفع لكم .فان الاثمان آخذة فى الهبوط ، وسترون صدق ماأقول . سوف لايحصل أحد على المال عدة سنين، وان شئتم فانظروا أثمان البيوت التى تليكم ..

وكان **الشيخ مينيك** يقول ان **جورج** على حق . كان يقول ان الناس على حق . ولم يكن من السهل ان تتبين فيه وفى وجهه المتغضن ذلك الشيخ الكيس الذى كانت تدلله مدام **مينيك** وتدخل على قلبه السرور والابتهاج . كان يقول : أنت تعرف مالايعرفه غيرك **ياجورج**، أنت أدرى **ياجورج**. ولطالما كان يقف فى وجهه قبل موت مدام **مينيك** ويقول له :اسمع يا بنى أنت لا تعرف كل شىء .

ولقد كان كل مابقى من المال لدى **الشيخ** بعد مادفع من أجر **للطبيب** وللمستشفى والممرضات والدواء ، وماهنالك من التكاليف التى لاتحصى ، مقدار خمسمائة ريال فى العام ...

قال **جورج ونتى** : سوف تقيم معنا ياأبتاه .

وقالت **ألما** بنته المتزوجة : هذا خير ماتصنع ، وان كنت تعلم انني وفريد يسرنا كثيرا أن تقيم لدينا ٠٠٠٠

ـ ستيل ٠ آخر الدنيا ! ٠ كلا كلا !!

قال ذلك محتجا وقد علقت كل وشيجة في جسمه بماألف من مقام ، ثم عاد يقول : ؟

ـ ستيل ؟ ٠٠٠ وفي السبعين ؟

ثم دار بعينين بائستين نحو جورج وزوجته **نتي** فقالا له مؤكدين : ستكون معنا ياأبتاه ٠

وانثنى يشكرهما ، واستقر الامر على ذلك ، فعادت **الما** الى منزلها بين زوجها واطفالها ٠

وهكذا أقام مع **جورج ونتي** في مسكنهما ذي الحجرات الخمس في شارع « **ساوث بارك** » الذي يمتد من وشنجتون بارك حيث لاتوجد وسادة يلقيها على الارض ٠

لم ترفض **نتي** أن تعطيه الوسادة الزائدة ، فقد أخبرها انه يضع تحت رأسه وسادتين ،وقد أعطته وسادتين في الاسبوع الاول ، ولكنها كانت تجد احداهما تحت السرير ٠

قالت : كنت أظنك تنام على الوسادتين ياأبتي ؟

ـ نعم هو ذاك ٠٠

ـ ولكني أجد وسادة على الارض كل صباح ٠ أنت تلقي واحدة على الارض دائما ٠ الحقيقة انك تنام على وسادة واحدة !

ـ كلا ٠ بل وسادتين !

فلما جاء الاسبوع التالي لم يكن لديه غير وسادة واحدة ٠ تبرم بالامر ، وراح يتقلب على فراشه القريب من المطبخ ٠ الا أنه تعود ذلك على مر الزمن ٠ تعود ذلك وان لم يسترح اليه كل الراحة ٠ ٠ ولكن ماالجدوى ؟

لم يكن فراشه بجوار المطبخ حقيرا كما تتوهم ٠ لقد كان في الحقيقة فراشا مكنونا أنيقا ٠ وكان في المسكن حجرة للجلوس ،وحجرة للنوم ، وأخرى للطعام ، ومطبخ ، وحجرة للخدم ٠٠٠

أما الحجرة المجاورة للمطبخ فهى المعدة للخدم ، ولاخدم عند **نتى** وجورج ، اذ كانت أعمال جورج قد أصيبت بالخسائر التى أصابت غيره ، وربما قالا له حينا بعد حين : وددنا لو كانت لنا حجرة أمامية لك يا أبتاه !! ولو أننا تحولنا الى حجرتك ، غير انها لاتتسع لاثنين ... كانا يقولان ذلك ويعنيانه ، أو يظنان أنهما يعنيانه . ويقول **مينيك** الشيخ :وأى عيب فى هذه الحجرة ؟ انها حسنة . انها ملائمة لاى ساكن . وكان فى هذه الحجرة سرير ضيق، أبيض الطلاء ،ومزينة ومنضدة . ولكن **نتى** وضعت لها الاغطية والستائر من الكريتون،ووضعت مصباحا صغيرا للقراءة على المنضدة ، ورتبت أدواته عليها ،وجعلت صورة **مدام مينيك** على المزينة . وقد بدت بفمها المطبق أصغر من سنها ، أو لم تكن هى صورتها الاخيرة ، فزينها **جورج** ونتى بأطار ، وجعلاها هدية المفاجأة **للشيخ** ، وطالما كانا يلحان على **السيدة** أن تتخذلها صورة شمسية ..

لم يهتم الشيخ **مينيك** كثيرا بهذه الصورة ، وان لم يصرح لهما بقلة اهتمامه . وما كانت به من حاجة الى صورة لقرينته . فلديه عشرات من الصور .. بل متحف كامل فيه ألوف وألوف يستعرضها وهو على وسادته الواحدة، ويستعرضها فى الظلام: باسمة ، عابسة ، غاضبة راضية،فهو فى غير حاجة الى صورة توضع فى اطار ...

لقد كانت **نتى** فتاة جميلة طيبة . وكان ينظر اليها كأنها بنت ناشئة وان كانت قد جاوزت الثلاثين . وقد تزوج **جورج ونتى** متأخرين ، وكان هذا هو العام الثالث لزوجهما. أما ابنته **الما** فقد تزوجت صغيرة . وظل جورج أعزب فى المنزل القديم بشارع **اليس** ، حتى بلغ السادسة والثلاثين . وكانت كل بنات صديقات أمه يحاولن أن يتصلن به ولكن على غير جدوى ..

وكان كبار السن ينصحونه بالزواج ، ولايزالون يحسون به منفردا فى هذا البيت الواسع ،لانه كان يصفر وهو يلبس ، ويغنى وهو فى الحمام ، ويرفع عقيرته بالغناء وهو هابط على السلم ، وينادى **أمه** سائلا : أين القمصان المغسولة ؟ وكان جرس

التليفون يستدعيه **وأمه** تهيىء لهصحافا من الطعام المختار ،وربما قالت له الخادم : ماذا صنعت ياجورج ؟ لقد ملأت بالوضر بلاط مطبخي النظيف ٠٠٠ ثم تمسحه مفتونة بالنظر اليه ، بينما هو يقهقه ويزدرد الطعام من قدر أوحلة طبيخ !

أما **نتي** فكان في أمرها بعض الغرابة ٠ كان **جورج** يشتغل بأعمال الاوراق المالية ،وهي تعمل معه في مكتب واحد ٠ وانها الفتاة بضة غضة ، ساجية العينين ،تفتح الشهية كما كان الشيخ مينيك يقول ، ولها خلف رأسها ضفيرة معقوصة من الشعر الفاحم الجثل ، كساؤها ملبس مجهز بسيط ، وفهمها للاوراق المالية فهم رجال أعمال ، وان كانت غلبت عليها الانوثة في سائر أحوالها ، وقد حظيت عند الشيخ **مينيك** ، على خلاف امرأته فانها لم تكن تحبها كحبه اياها ٠٠

وتعودت **نتي** أن تدعوه **بوب**، وتغازله عابثة كمغازلة البنات للآباء ٠ وربما طاب له أن يقرص ذراعها البضة ويجمش خدها الناعم ، فتضحك منه ، وتربت على كتفه ، وتنبسط تلك الكتف وتتحرك رأسه حركة فيها محاكاة للكلاب ٠٠ !

ويصيح الجالسون في الحجرة: أنظر **ياجورج** ان أباك سيغلبك على فتاتك حذار انك ستفقدها ! !

وتبسم **نتي** عن ثناياها ، ويضحك **الشيخ** مينيك ، ويغمز بعينيه مستريحا راضيا عن نفسه، وتقول **نتي** : انتما متفاهمون **يابوب** أليس كذلك ؟

كانت **نتي** في السنين الاولى من زواجهما تمكث في المنزل مبتهجة بمسكنها الصغير ،تتبادل مع العائلات الزيارة ، وتلعب البريدج ، ويبدو عليها حب الراحة والاستجمام ، والولع بصغائر الترف ، ٠٠٠

وكانت هي وجورج متحابين متآلفين ٠ أما قبل زواجها فقد كانت تسكن في بيت مستأجر في شارع ميشجان ، وهي الآن تقطب عند ذكره ٠ ولم تحاول مرة ان تخفي حبها لحجراتها الخمس التي تجملها النظافة والسكون والاناقة : كانت حجرة الجلوس

مفروشة بالمخمل ، مظللة المصابيح بالحرير ، موزعة فيها هنا وهناك مناضد عليها الكتب والمجلات وعلب السجاير والحلوى : طراز حديث ، ومائدة حديثة فى حجرة الطعام ، وحجرة نوم من خشب الجوز الاحمر القاتم الناعم الملمس • وكانت تحبها • وانها لامرأة منظمة تضع كل شيء فى مكانه • وماتكاد تدنو الساعة الحادية عشرة حتى يكون هذا المسكن الصغير يلتمع نظافة وبهاء ، فلا بقعة ولا لوثة • وقد نضدت الوسائد ومسحت كسر الخبز ، ووضعت الخضروات فى الماء البارد •••

وينادى صوت من جانب التليفون : هالو •• هللو •• بيس •• أو منذ بضع ساعات •• لاشيء على الاطلاق ••• اذا أراد **جورج** •• سأناديه وأسأله فى ذلك •• اننا لم نر أى فلم من الافلام منذ أسابيع ••• سأطلبك بعد نصف ساعة •••• كلا أنا لم أعزم على شيء ••• نعم نتناول الطعام فى المدينة ••• نتقابل الساعة السابعة !

وهكذا قضى على هذا **الشيخ** الحائر أن يندمج فى تلك الحياة الرتيبة المنظمة • فلم تعد **نتى** تناديه بوب • ولم يعد يحلم قط بأن يقرص ذراعها الغض أو يجمش وجناتها • فقد بدأت تدعوه **الاب** • وأحيانا بأبى **جورج** ، ويسمعها تقول فى التليفون : أنا لا أستطيع ، أنت تعلم ان **والد جورج** يعيش معنا ••••

كانت **نتى وجورج** يتلطفان فى معاملته غاية التلطف ، وكانا يستبقيانه للجلوس معهما : لا تبرح مكانك معنا ! لماذا تعجل بالذهاب الى حجرتك ؟

ولقد تذكر أن **نتى** فى العام الماضى كانت تقول شيئا عن عودتها الى العمل ، فانها لم تجد ما تشغل به نفسها فى المنزل • ولقد ضاقت بالاجتماعات بعد الظهر واضاعة الوقت فى الحياطة والاكل ، ولاشيء سوى ذلك •• والقيل والقال ولعب البريدج • وانظر بجانب ذلك الى ماتستفيده من الاجر •• الا أن العودة الى الاعمال كانت فكرة نابية لاتطاق ، يستنكرها **الشيخان** الكبيران ، وجورج أشد منهما استنكارا لها ، كأنها من العار ! وربما قال

الشيخان : يالشباب هذه الايام•فيم يفكرون !! أو يقول الشيخ : لقد كان لك فى مثل سنهاأطفال!

لم يرزق **جورج** ونتىأطفالا•وكانت **نتى** فىأولَ الامر تقولُ :

انني جد سعيدة • • أريد فرصة للراحة والاستجمام • لقد ظللت أعمل منذ كنت فىالسابعةعشرة من عمرى،وأريد أنأستريح أولا .•••

ثم مضت سنة وثانية وثالثة••• ثم جاء الاب **مينيك** ••

كان لدى **مدام** مينيكفى بيتهماالقديم بشارع **اليس** مخازنملآى بالاطعمة والمآكل • وانكانتغيرمعثرة ،فانها كثيرة يشبعانمنها شأن المسنين • وكان **مينيك** الشيخ علىالاخص يحب أنيمضغ شيئا ، فيأخذ من على الرفحفنةمن الزبيب ومن الاناء حفنة من البندق ، ويلوك فى فمه قطعة منالحلوى •وقد يلتهم اناء منالحساء الساخن ! وقد يكونذلك فىنهايةالطعام أو عند الظهر ، ويملأ جوفه من هنا ومن هناك •وتقولله مدام **مينيك** • • ماهذا ياجو ؟ انك لاتأكل ! ولقد يكونمتخم الجوف وهى تقول له ذلك ، لانها كانت تحب أن تراه يأكلأكلا لما •• وانها لعلى خطأ بطبيعة الحال •

أما الامرعند **نتى** فجد مختلف• فالطعام عندها كاف ، ولكن بمقدار ، وعندها ان كثيرا منالاطعمة تعدل فى غذائها المقادير الكبيرة من شرائحاللحم ••كانتتعرفكثيرا من « أسعار» الحرارة، والفيتامينات ، والمسائلالغامضةالتى من هذا القبيل ، وتتحدث عنها فتقول ان هذا الطعام فيهكثير من سعر الحرارة ، وفىهذا الطعام كثير من الفيتامين • ولكنالشيخ **مينيك** لم يكن يقتنع بهذه الاغذية التى يقال انها تكمن فىطعامه ، فقدكان يفكر فىالسبانخ كسبانخ ، والشرائح كشرائح ،وكان**الاثنان** يتناولانالطعام معا• لان **جورج** فى المدينة بطبيعةالحال، وكان طعامنتى طعامأنثى : قليل من شراب التفاح ••• فنجان منالشاى • قطعة من الخبز المقدد المتبقى من طعام الافطار • هذاطعامها فى غالب الاحيان ، بينما يلعق الشيخ **مينيك** قدحا مملوءابالحساء الساخن،أوبيضةمشوية• وكثيرا ماكانتتغلظ عليهأنيتناولقطعة من اللحم البارد المتبقىمن

الليلة الماضية ، أو بقايا الخضر أو المكرونة . ويرى حول انائه الكبير أسطول من الآنية الصغيرة، المتجمد من المرق والتوابل ، يغوص فيها وينقض فى غير راحة وان كان يستلذ طعمها ! وقد ينظر اليهـا بشىء من الغيظ حين ينتهى من تناول طعامه ...

ـ ماذا تريد يا أبى . هل أستطيع ان أقدم اليك مزيدا من الطعام ؟

ـ كلا .. يانتى كلا .. اننى مستريح .

وتنتهى من تناول طعامها وتجلس فى انتظاره ...

كانت هذه العيشـــة المنظمة « العلمية » لا تضايقه ، فلما أقبل الشتاء بدا عليه كأنه قد استرد قوته ونشاطه .. فتى شيخ أنيق محمر الوجه كالتفاحة النضيرة . . فيها بعض الغضون نعم .. ولكنها ما زالت مترعة بعصارة الحياة .

ويجدر بالذكر أنه كانت فى خده نونة تبرق على غير انتظار حينما يبتسم ، فتكسو ملامحه بشىء من الشيطنة الصبيانية تجتذب الناظر اليه ، ولا سيما النساء . ولقد كان أكثر مايناله من تدليل السيدة مينيك شغفا منها بتلك اللمحة الصبيانية !

كان الربيع عنده ينبوع ثروة حية . ولكن هذه الشهور الستة التى قضاها مع جورج ونتى قد اشتد وقعها عليه . فلا تدليل ولا من يجعله شغله الشاغل . كان يجد اللطف والمودة ، ولكنه كان يشتاق العاطفة والحب . ثم لاتنس أنه هرم ثرثارة لايكف عن الكلام ..

ولقد كانت فى منزله القديم بشارع اليس زيارات متبـادلة بين الرجال والنساء ممن هم فى سنه وسن السـيدة مينيك ، وكانت له فى هذه الاجتماعات خطب ومساجلات يسـمعونها ، من موافقين ومخـالفين ، لكنهم يلقونها باحترام على الدوام . سواء أكان يتكلم عن قيمة العقار الحقيقيـة ، أم عن الفسـاد الاجتماعى ، أم عن تحريم الخمور ، أم عن شـئون المصـارف وتسعير العملة الاوروبية . وكثيرا ما يرفع عقيرته قائلا :

ـ أقول لكم أنه لا بد من شىء يعمل قبل ان تثوب هذه البلاد

الىقرار يطمأن عليه فى شئونها المالية . كيف لا .. ؟ هاكم روسيا مثلا ..

أو يرفع عقيرته قائلا :

ـ يا لشباب هذه الايام .. ! انهم لايفهمون ما هو الاحترام. أقول لكم لابد من تغيير ، وسيكون هذا التغيير .. وانما يأتى به الجيل القديم ! ماذا يعرف هؤلاء الشباب عن مصاعب الحياة .. ؟ ماذا يعرفون عن العمل .. ؟ العمل الصحيح ! ! أكثرهم لم يستوف عمل يوم قط ، وكل مايفكرون فيه رقص وعدو ، وجولان ومعاقرة .. انظر الى زيهم .. انظر الى ...

ويؤمنون على كلامه قائلين :

ـ هذا هو الواقع .. لقد كنت أقول ذلك أمس .

ثم لقد كان له مشاركة فى الاعمال المالية منذ سنة أوسنتين، ولم يعتزل العمل الا استجابة لرجاء السيدة **مينيك** والاولاد حينما أقنعوه بالكف عنالجهد والتماس أسبابالراحة والتسلية .. والآن وقد استعاد صحتهواسترد نشاطه شيئا فشيئا ، بدأ يخرج فى نزهات صباحية . ومن ثم أخذ يعنى بملبسه وحسن هندامه .. وقد اعتادأن يحلق لحيته بنفسه ، وظل مثابرا على هذه العادة . وكانيحتل حجرة الاستحمام بكل ما فيها ساعات طويلة من النهار ،مما كان يثير ثائرة **نتى** ، فتكاد تجن ، وان كانت لا تقول شيئا.. كان ينغمس فىالماء ويريقه، وينفخ ويتلبط ، ولا يزال له ضجيج مسموع ، ويتناثر منه رشاش المياه هناوهناك ، ويبللالسقف والجدران ، فتناديه **نتى** من وراء الباب المغلق :

ـ أأنت متعب يا أبتاه ..؟

ويجيبها والمياه تتساقط من حوله : كلا يا بنية ..

ـ لم أكن أعرف .. ! لقد لبثت كثيرا .. !

انه لشيخ نظيف ، وان كان صداره أوسترته أو رباطعنقه لا يسلم من بقعة هنا ، ولوثة هناك . وكانت مدام **مينيك** تزيلها وهو يرتدى ملابسه أو يخلعها ، وتمسحها متذمرة

متبرمة لاهماله العناية بملبسه ، وانه لراض عن تبكيتها الخفى ، مستريح الى ما فيه من أمارات الاهتمام والعناية .

أما **نتى** فلم تكن لتزيل تلك البقع بنفسها على الاطلاق، وان كانت تقول له فى بعض الاحيان : أترك هذه البدلة يا أبى اذا سمحت لارسلها مع جورج الى « التنظيف » ... وسيحضر الرجل غدا .. فينظر الى ملابسه عاجلا ويزيل بأظافره بقعة هنا وبقعة هناك ..

فاذا انتهى من ملبسه وهندامه ، انصرف الى الشارع الحادى والخمسين . فاذا جلس فى القطار اتخذ فى مجلسه هيئة الجد والانتظار ، كأنه يسعى لمصلحة هامة ، فيطل من النافذة آنة بعد أخرى ، وينظر الى ساعته حينا بعد حين ، فيخيل اليك وأنت تنظر اليه أن هذا الرجل الوسيم الذى تلوح عليه دلائل العناية بشأنه رجل من رجال الاعمال فى طريقه الى عمله بالمدينة .

أقام فى شيكاغو خمسين سنة ، فهو يذكر شارع الدواوين منذ كان حيا تعمره الاكواخ وتظلله الادواح . كذلك كان من مألوفاته كل ما يحيط به من زحام وضوضاء . أما الآن فربما بدا له أن طريق المدينة شاق خطر بين زئير القطارات المتتالية وأصداء الابواق العالية ، وفرقعة المركبات .. مارستان يزعجه ويخيفه من أمر شيكاغو تلك ! !

ويقفز الى الشارع كالارنب المذعور ، ناسيا حركة السيارات، غير آبه بما ينصب عليه من سباب ركابها: « ويلك .. ! فتح .. ! حاسب يا ... » ويأتى **الشرطى** اليه أحيانا يعرض معونته ، فيرفض بإباء ، ويخاطب ذلك الشرطى - وانه لرجل طوال جاد براء من صخب الشرطة على الجملة فيقول :

- انى كنت أعبر هذه الطريق قبل أن تولد يا صاح .. ! فدعنى من مساعدتك ..! اننى لست هنا بالقدم المقبل من الريف ..

وانه ليزور دار العملة فيغتم ويحزن ، لان الاسهم لم تزل فى هبوط بعد هبوط ..

ان خمسمائته السنوية لمصونة، ولكن البقية ضائعة أبدا فيما يحسب . ويتجه نحو مكتب **جورج** وفيه نخبة أنيقة من الشباب ، بين فتيان وفتيات ، فى تلك الحجرة الواسعة التى تفيض عليها الاضواء . وقد علقت على جانب من كل مكتب لوحة معدنية عليها اسم صاحبه : مستر **ادين** . مستر **سترلى** . مستر **جيمس** . مس **روش** . مستر **مينيك** ... »

ويبتدره **جورج** : «هلم ياأبى. ما الذى أتى بك الى هنا ؟ »

ـ لا شىء .. لا شىء . كانت لدى بعض الاعمال الخاصة بالاوراق المالية ، فخطر لى أن أمر بكم .. كيف تسير الاعمال؟

ـ سيئة .. !

ويقول الشيخ **مينيك** موافقا : أظنها كذلك . أظنها كذلك .

ولقد ود **جورج** لو أنه لم يحضر اليه ، فلا قبل له بهذه الزيارات ، ولا سيما حين يدلف الشيخ **مينيك** الى المكتب الذى نقش عليه اسم **سترلى** أو **أوين** أو **جيمس**، فيومىء اليه أولئك الشباب بنظراتهم ، ثم يكبون على أوراقهم وملفاتهم . ويقف **مينيك** الشيخ ويزن قامته من فرعه الى قدمه، وينفث نفثة فى الهواء ، ويبدو ممتقع اللون قليلا ، متضائل الجسم تحت الاشعة المسلطة على الزجاج . ولعل منظره هذا من وحى المناقضة بينه وبين ذلك الشباب الوضىء ...

وتراه ينظر الى أحدهم ويقول :

ـ هاأنت هنا اليوم يامستر **سترلى** .. كيف حالك .. ؟

وينصرف عنه مستر **سترلى** ، ولاينظر اليه وهو يقول :

ـ اننى على مايرام .. ليس عندى ما أشكوه ...

ـ حسن .. حسن .. !

ـ هل من شىء أستطيع أن أؤديه لك .. ؟

ـ كلا . لا شىء على الاطلاق . أنا حضرت لارى ابنى لحظة .

ويتمالك الفتى لهجته قليلا **ومينيك الشيخ** يترنح الى جواره ثم يلقى عليه نظرة عابسة قائلا :

ـ أجل أن ابنك مكتبه هنالك .. أظن هذا ...

وكان **لجورج ونتى** مناجاة ليلية حول هذه الزيارات، وتقول **نتى** فى لطف : ان زيارة الاصدقاء والاقارب ممنوعة فى المصرف، فهى على خلاف أصولهم وأنظمتهم ، ولقد كانت كذلك حين كنت أعمل بها . ولم أزرجورح غير مرة واحدة منذ زواجنا .

ـ اجل .. أجل .. انه نظام الشغل منذ كان .. زحام وانهماك ولا متسع فى الوقت لغير ذاك ..

واشتد الشتاء هذا العام وأربى على كل شتاء مضى بثلجه وقارس برده ، فاعتكف بين جدران المنزل بضعة أيام ... أن امرأة فى مثل سنه كان فى وسعها أن تشغل نفسها بعمل نافع من الاعمال البيتية، وهى سعيدة راضية : ستارة تخيطها وتنسجها، أوحجرة تنظفها ، أوطعام تطهوه وتقوم بتحضيره أو فستان قديم تحيله جديدا ، أو تستطيع أن تشغل نفسها فى استقبال اترابها .. ولكن شيخا مثل **مينك** لا يجد فى المنزل أعمالا تشغله ليحتمل البقاء فيه . انه لايقدر على أى عمل من هذه الاعمال الصغيرة .. دق مسمار فى الحائط مثلا ، أو رسم صورة ، أو عمل كائنا ما كان من هذه الهنات .. وان **نتى** لتستطيع أن تدق مسمارا خيرا منه ، وقد تأخذه من يده وتقول :

ـ لا يعنيك هذا يا أبتى ..

وتدقه بنفسها :

ـ اجلس أنت واسترح .. أليس هذا وقت قيلولتك .. ؟

وتنتفخ أوداجه قليلا وهو يقول :

ـ النوم .. ؟ لقد استيقظت الآن من رقادى .. لا أريد أن أقضى حياتى نائما ..

كان **لجورج ونتى** بعض الاصدقاء يترددون عليهما فى المساء ، فيلعبان الردج أو البوكر ، ويتبادلان معهم الاحاديث . .
ويدعوه جورج : هلم ياأبى .. أنتم تعرفون والدى؟ ألاتعرفونه؟ ويجلس فى تردد، ثم يحاول أن يتكلم ويفيض كما كان يفعل فى منزله

القديم بشارع **اليس** : أريد أن أقول أن هذه الامة ستصل الى ... ولكنهم يستطردون فى أحاديثهم ولا يأبهون لكلامه .. وربما قاطعوه وأعرضوا عنه فى شيء من الادب .. وهكذا كان يجلس فى الحجرة كما مهملا .. وربما كانت الاحاديث تدور حوله وهو ضائع بينهم كل الضياع . ويلتفت اليه **نتى** و **جورج** من آن لآخر ، ويرفعان صوتهما (ولم يكن أصم ، وبذلك كان يفخر) :

ـ انهم يتحدثون عن هذا الامر يا أبى .. انهم يقولون ...

فاذا بدرت من أحدهم نكتة، وانفجر القوم يقهقهون ، ابتسم وهو لايدرى ما يقال ، ويقلب نظره بين وجوههم واحدا بعد واحد ، وهو لا يدرى مايدور حوله. ثم أخذ من بعد يكثر الجلوس فى حجرة نومه ليدخن ، أو يقرأ صحيفة من صحف المساء . وقد توثقت الصلات بينه وبين الجارية الغاسلة فى هذا الشتاء ، وهى تأتى لغسل الملابس داخل الحمام مرة كل أسبوع ، ولكنها تغشى المطبخ لتناول الطعام : جارية سوداء تلبس صدارا من الجلد ، ذات صوت خشن ، وعين نفاذة ، وقلب طيب .. وهو ينتظر قدومها دائما على الدرج ..

ـ أو .. كيف حال السيد مينيك اليوم .. ؟ عجبا لك أيها السيد .. اننى لم أر رجلا فى سنك وفى مثل رشاقتك ولطفك! فيبسط كتفيه ويهز رأسه عند سماع هذا الثناء الذى يندر أن يطرق أذنيه . وتستلقى **كنارى** برأسها الى الوراء ، وهى تقهقه بصوتها الاجش . ثم تجىء **نتى** تقول :

ـ ان كنارى تتناول عشاءها ، ألا تقبل وتجلس فى حجرة الاستقبال .. ؟ سوف نتناول عشاءنا بعد نصف ساعة ..

فيتبعها طائعا .. ان **نتى** قد أصبحت تنظر اليه كأنه طفل متعب ظريف . طفل لا يكبر أبدا . واذا كانت تفكر فى هذا الرأس الاشيب فانما تفكر فيه لتعطف على شيخوخته . وانها لاتدرى أنه قد نفذ الى أغوارها وانه قضى بحكمه عليها فى غير رحمة ، فما كان لها أن تستشف ما ينطوى عليه هذا الرأس من الرأى الحصيف .

انه يعرف النساء .. ! انه كان زوجا لامرأة . وكان أبا لاطفال .. وهو ينظر الى هذه المرأة ــ كنته ــ تروح وتجىء بين حجراتها الخمس ، وتفكر ما تفكر عن الابناء ، ويسمعها حينما تشرح آراءها فى الطفولة والاطفال ، وأنهم لايصلحون الا على هذه الحال ، وتلك الحال ، ولا غنى فى تربيتهم عن المال .. أجل .. انه وزوجه كان لهما ثلاثة أطفال : **بول** الثانى وقد توفى فى الثالثة عشرة من عمره . وكانت ضربة قاسية . ولم يفكر يوما ما كيف يربى الثلاثة الآخرين . وما كان ليرسم قبل مولدهم خططا عن تربيتهم كيف تكون ، والنفقة عليهم من أين تأتى ..؟ ولكن هذه الخطط ترتسم بعد مولدهم على نحو من الانحاء ..

ان أمر الاولاد يدبر بأى طريق . وهذه الكرة الحمراء من اللحم والدم تهتدى الى طريقها فى الحياة بغير تدبير . وهذا **جورج** حينما ولد منذ تسع وثلاثين سنة لم يكن أبوه وأمه على حالة يحسد عليها انسان .

.. كان يجلس فى مكانه صامتا وقد أهملته **نتى** . الا أنه ما فتىء يتفحص خبايا نفسها ، ويعرف ما فى كلامها من التمويه : امرأة غضة الاهاب . وسط بين الطول والقصر ، عريضة الردفين .. انثى مهيأة للحمل والولادة . وها هى ذى تعمل موظفة فى مصرف .. أكان فى التوراة ذكر لامرأة تعمل فى المصارف .. ؟ هذه امرأة خلقت لانجاب الاطفال ..

كان هذا تفكيره ، بينما كانت هى تظنه شيخا هرما لا يلقى اليه بال ، فلما جاء شهر مارس دعت **نتى** خياطة تقضى بمنزلها أسبوعا ، كما كانت تفعل مرتين أو ثلاثا كل عام . . لها ملامح صقرية ، فى نحو التاسعة والاربعين ، وجهها كالقارورة الزرقاء ، وعيناها ضاريتان : تخيط الثياب فى حجرة الطعام ، فيسمع فى البيت طنين آلة الخياطة والمقصات ، ولغط الاحاديث وحفيف الحرير .. فاتصلت الصحبة بينها وبين الشيخ مينيك ، فأصبحا صديقين . . وكثيرا ما كانت تستعين به على لف الخيط او سحبه ، وتطارحه الاحاديث ، حينما تخرج **نتى** فيما بين الثانية والرابعة بين الوجبات .. ويهز رأسه ويقول :

ـ لابد ان أتقاضى أجرا دائما على هذه المساعدة ..

ـ أظنك لست فى حاجة الى الاجر يا سيد **مينيك** . انك فى يسر ودعة ، على ما أرى .

ـ أجل اننى لاأستقل خمسمائةفى العام ، ولاأشكو بحمد الله .

ـ الشكوى ! اننى لا أشكو . لوكان الامر أمر شكوى لتغيرت الحال . فأنا أواصل العمل طوال يومى لأكسب ما يقيم أودى، واذا دخل الليل فلا يدخل على أحد ..

ـ أنت أرمل ؟..

ـ اننى أشتغل وأشتغل منذكنت فى العشرين من عمرى، هذا كل ما لدى ، ثم الوحدة .. لاأخالك تعرف ما الوحدة .

ـ أنا لا أعرف ؟ وتسقط لفافة الخيط من يده ..

ثم تلقى عليه نظرة من تلك العين الضارية ، وتقول :

ـ ربما كنت تعرف ..

لا أظن المعشة هنا بين الابن وزوجه مما يروقك ويلائمك مع مالديك من مال ؟ . أما أنا فعلى الدوام أدبر مسكنى الصغير ، حتى أستطيع أن أقول أن لى بيتا آوى اليه : حجرتان فحسب . وليس عندى ما يسلينى . الا أنه بيت على كل حال .. أقضى ليالى فى مزاولة الطبخ . وليس عندى ما أشغل به نفسى ، ولكنى أجد ما يشغلنى . ان الطبخ هو الشىء الذى أحب أن أزاوله .. الطعام الوفير هو مايحتاجه الناس ليقيموا أودهم ويحتفظوا بقوتهم ..

ولقد كانت أكلة **نتى** ضئيلة فى هذا اليوم .!!

ظلت **الخياطة** لديهم أسبوعا . وكانت تغتاب **نتى** فيقاطعها معترضا ، ولكن فى غير جد . فتسائله : هل تقدم اليك ماتشتهى من البيض واللبن ؟ هل تزودك بكأس من النبيذ المشعشع بالماء الساخن ؟ هل تواليك بالحساء والاطعمة الدسمة على اختلافها واللحوم والعصائد؟ هذا مايحتاجه الناس حينما يتخطون سن الشباب ؟

ولم تكن تقول أنه شيخ على الاطلاق . بل أنه أكثر اشراقا من الصبية . وتكاد تصرح بأنه أجمل من ابنه !

كان يتقبل هذا الكلام بنهم الجوعان . وفى اليوم الثالث من اقامتها بدأت تلقى عليه نظرات ذات مغزى وهى جالسة على مائدة الطعام . فلما جاء اليوم الرابع بدأت تضغط قدمه تحت المائدة ، وفى اليوم الخامس ، **ونتى** غائبة ، قامت وهى تتظاهر بأنها تبحث عن قطعة من القماش ووضعت يدها على كتفه ثم عادت تضغطها قليلا ، ونظر اليها مرتاعا . لقد كانت تلك النظرات التى تلقيها عليه من فوق المائدة تتخطى رأسه وتمر فى سبيلها ، والقدم التى تحت المائدة قد تمسه على غير عمد . ولكن هذا أمر صريح لا مغالطة فيه . فوقف وقد اعترته رجفة ، واذا تلك الملامح الصقرية أمامه وجها لوجه ..

قالت : أنت فى حاجة الى من يحبك . أنت فى حاجة الى من يعمل لاجلك ويحبك .

واقترب منه وجه **الصقر** قليلا ، ولكن كان يلمح بينها وبينه وجه السيدة **مينيك** ، غضا ، بضا ، صابرا ، مازحا . فأشاح بوجهه فى حدة ، والقى يدها الدافئة بعيدا عنه — وكانت قد أخذت بيده ، وصاح بها :

— أيتها المرأة ايزابل !!

سمع الباب الخارجى يغلق ، ودخلت **نتى** ، فانصرفت المرأة مسرعة الى أعمالها . أما **مينيك** فارتجف وبادر الى حجرة نومه ..

قالت **نتى** ، وهى تضع اللفافة التى معها على المائدة :

— أجل . هل تناولت ما فى انائك من قطع الكباب ؟ لماذا لم تأكلى .

— أشعر بأننى لست على ما يرام ، وان هذا الغذاء لا يلائمنى ..

— انها وجبة بسيطة ، وليس فيها ما يتعب .

---

(١) امرأة جريئة عاصية ، ورد ذكرها فى سفر الملوك من العهد القديم .

فلما جاء اليوم التالى لم تحضر لانجاز ما تبقى من عملها ، وأبلغتهم بالتليفون بأنها مريضة .. !

فقالت **نتى** : أنها قحـة ! وأنجزت بقية الخياطة بيدها على مضض ...

أما الاب **مينيك** فانه لم يقل شيئا ، ولكن عيناه كانتا تبرقان ، ويتهانف من آن لآخر ، مما ضايق نتى وان لم تنبس بكلمة . وهمس وكانه يخاطب نفسه وهو يقهقه : تريد أن تتزوجنى تلك المرأة السليطة !!

***

لما كان آخر أبريل اكتشف **الشيخ** مينبك متنزه **واشنجتون** ناديه . ومنـذ ذلك اليوم تغير مجرى حياته : انتهز غرة الربيع وشمسـه المشرقة لينزه خارج البيت كما أقترحت عليه **نتى** ، وكانت تقول له : « لماذا لا تذهب الى المتنزه يا أبتاه ؟ ان الجـو دافىء ، والشمس مشرقة تفيدك » ..

ولبس أثقل قميص لديه وارتدى سترة **جورج** الحمـراء ، وفى الصدر منهـا علامة **س** . تشير الى براعته الرياضية أيام كان فى **جامعة** شيكاجو . وفوق كل ذلك معطفـه الثقيـل ، وفى يديه القفـاز ، وهـو يتوكأ على عصاه المتوجه بالرأس السلوقى . ثم خرج بعد أن تزمل على هذا المنوال سائرا سادرا الى المتنزه ، فاذا هو يصيب هنالك حيـاة جديدة ! حياة جديدة فى حياة قديمة . فقد كان المتنزه حافلا بالشيوخ يحمل بعضهم العصا المتوجة بالرأس السـلوقى . ويرتدون ستر غيرهم وقمصانهم تحت المعاطف ، ويلبسون ملابس القطب الشمالى وان كان الجـو صحوا . وقد بدت أيديهم وعظام خدودهم مصقولة ضـامرة على الرغم من غضونها وأخاديدها ، وظهـرت فوق أيديهم وعـلى جباههم رقطات رمادية ، وارتخت على كعـوبهم جوارب رمادية أو سمراء .

منذ هذا الصباح من شـهر ابريل الى الشتاء كان المتنزه يرى وجه **مينيك** الشيخ كل يوم ، بل كل ساعة من ساعات النهار ، عدا وقت الطعام وساعة القيلولة القصيرة .. أما ماعدا ذلك فقد كان وقته كله مقضيا هناك .

ففى هذا المتنزه يجتمع **مينيك الشيخ** بأمثاله من الشـــيوخ ، ويجعلونه منتـدى للمناقشـات البريئــة التى ينفسون بها عن أنفسهم ..

ولم يمض وقت طويل حتى عرف أن المتنزه يجمع فريقـين من الشيوخ :

الشيوخ الذين يعيشـون مع أبنائهم المتزوجين وزوجاتهم ، أو بناتهم المتزوجات وأزواجهن .

والشيوخ الذين يعيشون فى النـزل المعد لـكبار السن ، وهو على مقـربة من المتنزه ، ويراه الناظر اليه من خلال الاشجار .

أما الفريق الاول فهجيراهم من الحـديث « أى ديدنهم فى تـكرار الكلام » مايلى :

– « ان ابنى وابنتى يأبيـان على أن أقيم فى مسكن عام . كلا ياسيدى انهما يأبيان الا أن أكون الى جوارهم وفى مســكنهم .. هؤلاء أبنائى وتلك خصالهم » !

أما الفريق الثانى فهجيراهم من الحديث غير ذلك .. يقول أحدهم :

– « أنا لا أقبل أن أعيش مع أحد من أبنـائى أو بنـاتى ! الاستقلال خير من كل شىء . هذه طريقى وذلك مسـلكى . لا أريد أن أرى أحدا يرشـدنى الى ما أفعل ومالا أفعل . ويعاملنى كأننى طفل صغير .. لست ملكا لاحـــد .. أدفع نقودى وأعيش عيشتى » !!

ولشد ما يأخذك العجب حين ترى الفريق الاول ، وعلى ملابسهم بعض البقع وقد تنسلت أطواقهم وراحوا يؤدون لكنـاتهم بعض الرسالات : رغيف خبز ، أو بكرة خيط ، أو يقودون الأطفـال الكبـار الى بركة البط ، وهم يمشون كالاطفـال ، وهـؤلاء الاطفال بينهم : لاتدرى أيهـم يقود ، وأيهم يقاد ؟

أما الفريق الآخر فتبدو أحذيتهم نظيفة ، وتنظر الى ملابسهم القطنية فلا تجد عليها بقعة من الاوساخ ، فضلا عن ملابســهم الصوفيـة . ليس وراءهم تلك الواجبات الصغيرة التى يكلفهـا الفـريق الاول . فراغ عظـيم وأحاديث عظمـــة ، لم تـكن مقصورة على المسائل الدوليـة فحسب ، بل كانت عالميــة أو

كونيـــة فى بعض الاحايين : ـ الحرب ! السلم ! نزع السلاح ! الصين ! فقاقيع تتصـــاعد فى الهـواء ، ثم تنفجر ، ولا يبقى غـــير الزبد والرغاء . وكان فى هؤلاء الغذاء الصالح لمينيـــك **الشيخ** الذى صـــبر أمدا طويلا على غذاء الاطفال !

كان هذا الفريق يجتمع مابين الرابعة والخامســـة ، فى مكان يسمونه : تحت ظلال شـــجرة الصفصاف . ويكون اجتماعهم فى شبه منتدى ، يشـــتمل على فريق من الاشـــتراكيين وثوار الحجرات والمقاصير .. نسيـــق متصل من الاحاديث ، يظـلون منصرفين الى هذا عاما بعـــد عام . . !!

وقد تعلم **الشيخ** مينيـــك أمثال هذه الكلمات الطنـــانة : السادة .. الديمقراطية .. كدح الكثيرين لمنفعـة القليلين .. الطبقة .. الحـــاكم .. حرية القول .. الشعب .. الخ ..

كان أصحاب العنـــاد منهم يثبتون عـــلى لجـــاجتهم ، أما الضعاف فيحومون حول الحواشى ويلوذون آنة بعـــد أخـــرى بكنف حفيد واسع العينين . ولم تكن هـــذه الاحاديث تصـــطبغ بالصبغة العامة ، ولا تحتدم جدا وحماسة الاحوالى الحادية عشرة من الصباح . اذ يتكوف هـــؤلاء الشيوخ جماعات صـــغيرة من شخصين أو ثلاثة أوأربعة ، على المقاعد الخشبية تحت الشمس . وتبدر منهم أحيانا كلمات بذيئة ، غير حافلين **بالســـيدات** الشيب اللاتى يستمتعن مثلهم بأشـــعة الشمس ، ويرقبون **الفتيـــات** اللاتى يطفن بمقاعدهم ويعجبون بقاماتهن وكعوبهن الصقيلات !!

كان اليوم الذى يقضونه بتلك الضاحية القريبة ، من أســـعد أوقاتهم ، يتهانفون بينهـــم ، ويعلقون بمـــا يطيب لهـــم من التعليقات الخبيثـــة .. رءوس بيض ، وشيوخ متهدمون ، الا أنه قد تخلفت فى عقولهم نزوات الذكران ! وكأنهم أطفال شياطين يلفون بينهم فى الخلاء !

وسرعان ماحصـــل **الشـــيخ مينيك** على مكان الصـــدارة فى الاحاديث التى كانت تدورهناك . . وانه ليحب الكلام دائمـــا . وكانت هذه السنة الاخيرة عنده بمثابة سجن لايطاق ..

فكر بادىء الامر مترددا فيمن هم على شاكلته ، ولشد ما كانت تستثيره محادثات أولئك الشيوخ الذين يجلسون على مقاعدهم فى انتظار موعد الطعام يراقبون كل ما يمر على أعينهم :

ـ هذا قارب لطيف . ڤيلافى قارب !

ويسكتون لحظة ثم يضجون بالضحك !

وبعد خمس دقائق :

ـ أنظر هؤلاء الجالسين على الحشائش ما خطبهم ، ألا يحسون حرارة الجو ؟ .. هاهم ينهضون ..

وتمر فرقة من الفرسان بالطريق المقابل للبركة .. تسمع لها أصوات تفسد زهو الربيع . بينهم نساء يرتدين الثياب القرمزية أو الخضراء النضرة تستوقف النظر .. :

ـ فرسان !

ـ أجل !!

ـ جو يلائم الركوب ..

وهنا رجل يصطاد السمك قريبا منهم :

ـ جو بديع يلائم الصيد !

ـ أجل ..

ـ كم الساعة ؟

وينتزع أحدهم ساعة ذهبية كبيرة من جيبه :

ـ أحد عشر ودقيقة ..

ويسحب الشيخ **مينيك** ساعة ثقيلة :

ـ عندى أحد عشر !

ـ عندك تقديم على ما أظن ..

وكان مينيك الشيخ يشمئز من هذه الاحاديث ، ويتململ ويقول فى نفسه : ليست هذه أحاديث ! هذا موت شفوى !

وان كان لايظهر امتعاضه . فاتصل بالفريق الآخر الذين كانوا يتباحثون فى تحضير الارواح . فأصغى اليهم ، ثم أبدى رأيا قوبل بالاحترام ، ثم هوجم بعد ذلك بغير شفقة ، ورفع عقيرته بالكلام فاكتسب النقاش ..

قال أحدهم :

ـ أظنك تسكن النزل . أليس كذلك ؟؟

فأجاب الشيخ مينيك فخورا :

ـ كلا . اننى أعيش مع ابنى وزوجه . انهما لايرضيان بغير ذلك ..

ـ أو .. أنا أحب أن أكون مستقلا ..

ـ ألا تجد بعض الوحشة ؟!

ـ تقول وحشة ، أيها السيد؟ قلت لى اسمك ؟ **مينيك** ؟ وانا اسمى **هيوز** . اننى لم أشعر بالوحدة طوال حياتى الا ستة أشهر عشتها مع ابنتى وزوجها وأطفالهما الخمسة ... هذا ما أسميه وحدة ووحشة !!

وكان **جورج** و **نتى** يقولان له : لقد استفدت يا أبت من نزهتك فى الهواء الطلق .. وحقا قد بدأ فى عينيه بريق ، وانتصبت قامته ، وأشرقت بشرته . وكان ذلك هو اليوم الذى تناول فيه موضوع الهجرة فصيحا مفيضا فى الحديث .

وطفق مثابرا على المجلات والصحف ، ورسالة من هنا ورسالة من هناك ، ليحتفظ بمكانته ، ويتابع أحدث الموضوعات .. وأقبل يلتهم الكتب والنشرات التى تتناول شئون المال والشركات ، ممايجلبه جورج الى المنزل . فأصبح لديهم فى المتنزه مرجعا فى مشاكل المصارف والاسهم والاوراق المالية . ويقضى الاسابيع هو ورجل من رجال المصالح المتقاعدين يدعى **مورى** فى مناقشة مسألة واحدة لايختمانها .!

واستراح **جورج** و **نتى** الى هذه النزهات . وظنا أنه يقضى هناك ساعات مهومة مع أصدقائه الشيوخ ، لايبحثون فيها شيئا

ذا بال .. كان فى تلك الايام يلتهم وجباته من الطعام ، ولا هم له الا أن يملأ جوفه ويعب ملأه من الشراب !..

انتهى الصيف وانصرم ، وأقبل الخريف يحمل هما جديدا للشيخ مينيك . أين يذهب اذا حل فصل الشتاء ؟ أليس مصيره الى ذلك المسكن ذى الحجرات الخمس يأوى اليه طوال النهار ؟ حيث الفراش الصغير وحيث العدم ؟ لقد دارت بخاطره أغنية كان الاطفال يرددونها قديما ويتغنون بها فى المدرسة. أغنية تفهة لاطعم لها ..:

« أين تذهب العصافير ؟

اننى أعرف ٠ اننى أعرف ! »

لكنه لم يعرف . واستولى عليه رعب وفزع .. وأقبل شهر أكتوبر وأدبر ، واستحال فى أوائل نوفمبر الذهاب الى المتنزه حتى عند الظهيرة ، وحتى اذا ارتدى المعطف والصدار . واسود فى نظره لون الجليد الابيض ، وجعل يترقب مطالع اسماء يرصد الامطار والثلوج ..

وكان هناك دكان لبيع التبغ، وناد للبليار على زاوية الطريق، فكان يذهب اليه مع طائفة من زملاء المنتدى ، يقفون وراء اللاعبين ويرقبونهم وهم يلعبون، الا أنه كان شاغلا مملا ، وكان سكان النزل لايحضرون اليه ، فعندهم فى نزلهم حجراته المعدة للالعاب ..

وانصرف من تلك المغارة الغائمة بالدخان مهيض القلب واجم الجبين .. لقد حاول أن يواجه الشتاء فلم يستطع ، وكان يرتعد فرقا لما يلقاه ..

ثم بلغ المسكن ، فذهب الى الباب الخلفى كدأبه كل يوم ، وكان حذاؤه مبتلا موحلا . وان البسط فى المنزل لنظيفة من الطراز الحديث . وانه ليجد الباب الخارجى مفتوحا فيذكر أن اليوم هو يوم **كنارى** تحت السلم . ويخلع حذاءه فى المطبخ ويدخل حجرة الطعام ،ويستمع الى أصوت ، فاذا **نتى** معزوار من صديقاتها ، لعلهن فى دعوة شاى . . ويعود أدراجه الى حجرته ، فيستوقفه ذكر اسمه على لسان **نتى** ويسمعها تقول :

لولا أن والد مينيك معنا لكان لى أولاد .... ولكن كيف ووالد مينيك يقيم معنا ؟ ليس لدينا متسع ، ولانستطيع أن نستأجر مكانا أوسع مع ماهو معروف من ارتفاع ايجار المساكن. ان مسكننا بهذه الحال لايصلح لان يربى فيه طفل .. وقد تفاهمنا على ذلك أنا وجورج .. ماظنكن ، مادام والد مينيك معنا فلانستطيع . لاأعنى اننا نستعمل حجرة الخدم لهذا او لذاك من الشئون اذا رزقنا طفلا ، ولكن يجب أن يكون لدى أحد يساعدنى حينذاك ، وفى هذه الحال يجب أن يكون لدينا حجرة زائدة ...

وظل هنالك فى حجرة الطعام ساكنا لايتحرك . وكان يحس قشعريرة تدب فى أوصاله وكأنما قد تخدر . الا أن ذهنه كان فى نصب واصب : الامر واضح كل الوضوح ، ويكاد صوابه يطير !! وعلى الرغم من هذا النصب الواصب كان يتضح أمامه **شبح الموت** .

فقد كان الموت أول ماخطر له فى تلك اللحظة ، وماأهونه اذن . الا أنه لم يكن يحب أن يموت . عجبا انه لم يكن يحب أن يموت ...

كان يهوى الحياة .. : المتنزه ، الاشجار، المنتدى ، الحديث . وكل ماهنالك .. ان **نتى** فتاة طيبة .. ولكن على **الشيخ** أن يخلى مكانه للشباب ، ان لهم الحق فى أن يولدوا .. ربما كان هذا عذرا آخر .. لقد انقضت أربع سنوات منذ تزوجت . لماذا لايكون ذلك منذ ثلاث سنين .. حق فى الحياة .

تسلل الى المطبخ ، ولبس حذاءه، وخرج فى الظلام ، عصر يوم من أيام نوفمبر القاتمة ، ثم عاد ولما تمض ساعة ، ودخل هذه المرة من الباب الامامى ودق الجرس .. لم يكن معه مفتاح ، ولم يحدث أن كان معه مفتاح على الاطلاق . . كأنه طفل من الاطفال لا يأتمنونه على مفتاح ، وكانت صديقات **نتى** خارجات فى تلك اللحظة فانتشر أريج العطر ونكهة الشاى والطلاء ، فاستنشأها بارتياح .. قلق .. كيف حالك يامستر مينيك ؟ كيف حالك ؟ كيف تقضى هذه الايام ؟

وابتسم بسرور وهو يخلع معطفه الثقيل والقميص الاحمر المكتوب عليه علامة **س** . وقال : كيف أقضيها ؟ أقضيها على نية الانتقال !

قالت **نتى** وقد نظرت اليه مرتاعة : على نية الانتقال ياأبتى ؟

ـ ان الشيوخ يجب أن يفسحوا فى المجال للشباب . هذا قانون الحياة . أجل ياسيدتى .. الاطفال الجدد . الجدد .. !

قالت **نتى** ، وقد احمر وجهها خجلا : ماذا حدث يا أبتى ؟
ـ لقد وقعت على اتفاق للاقامة فى النزل اليوم ، وسأنتقل اليه فى الاسبوع القادم .

والتفتت اليه السيدات وقد تبسمن ، ودنا منها الشيخ **مينيك** ، وربت على ذراعها الغض ، وقرص خدها ، وهزه قليلا ..

قالت **نتى** مبهورة : لا أدرى ماذا تعنى ؟

قال **مينيك** الشيخ : أجل انك تعرفين :

وكان فى طيات تعبيره مسحة من الصرامة وان شيبت لهجته بنغمة المزاح .

لما دخل المنزل ، كان فريق من القوم يجلسون أمام الموقد فى حجرة الاستقبال ، وقد بدت عليهم أمارات الصحة والنشاط . فحيوه بلطف على عادتهم معه حينما كان يقبل عليهم بالمتنزه ... :

ـ استمع يا منيك . ان **مورى** هنا يقول ان الصين يجب أن تضم الى حلف الدول الاربع ، ويقول: .. وسلك الشيخ **مينيك** حلقه وقال :

ـ هاكم الصين بأجمعها ، فخذوها بأراضيها الشاسعة وتجاربها ومنابعها الصافية العذراء .. !

ووقفت أمامه خادم تفاحية الوجنة ترتدى حلة سوداء وميدعة بيضاء وقالت له :

ـ ان مدير النزل ينبئك أن حجرتك على استعداد . أتحب أن تراها الآن ؟

ـ انتظرى دقيقة واحدة يا بنيتى ...

ونحاها جانبا باعتداد الرجل الذى يدفع خمسمائة ريال لاستقلاله وحريته . وهمت الفتاة بالمسير ، فناداها :

ـ استمعى يا فتاتى الصغيرة ! استمعى أيتها الفتاة الصغيرة !

ولما التفتت اليه . قال :

أبلغى مدير المسكن أن يحضر لى وسادتين لفراشى . وسادتين . أتفهمين ؟

ـ أجل يا سيدى ، وسادتين . لقد فهمت ! ... .

ستيفن فنسنت بنيت

١٨٩٨ - ١٩٤٣

من سلالة اسبانية ، ومن أسرة أدباء وشعراء ، وله أخ وأخت شاعران أديبان ، وأجداده الاولون جنود عسكريون .

ولد فى بيت لحم (**بنسلفانيا**) ، وتخرج من جامعة **يال** ، ثم حضر بعض الدروس فى **السربون**، ونشر أول ديوان له : « قصائد فى المناجاة الاحادية » أو المنولوجات ، وهو فى السابعة عشرة ، وكان مثلا من الامثلة النادرة على النجاح « الرسمى » والنجاح الشعبى معا ، فاحرز جائزة بولتايزر ، وأحرز الجائزة القومية للشعر ، وعين وكيلا لمعهد الفنون القومى ، وراجت كتبه بين طبقات القراء على ندرة رواج الملاحم والمقطوعات الغنائية فى العصر الحديث ..

شاعر فى نظمه ، وفى اختيار الموضوعات لقصصه ، وأكثرها من المأثورات الشعبية التى يلتقى فيها الواقع بالخيال وتتقارب فيها آيات البطولة وخوارق الطبيعة ، ومذهبه فيها أن خلق الاساطير غير مقصور على خيال الاقدمين ، فان الاحياء يحفظون من المرويات المأثورة عن ابطال التاريخ القريب تحفا من هذه النوادر التى يزخرفونها بحلية الاعجاب وروائع الخيال ، فلا يقفون بها دون شأو الاقدمين فيما يروونه عن الابطال من أنصاف الاناسى والارباب .

وهو مولع بنوادر التاريخ الامريكى وتراجم أبطاله : طريقته فى سردها ، شعرا أو قصة ، أن يحليها بالطرف الشائقة ، وأن تكون هذه الطرف لبا من لبابها ، ولا تكون كما قال « كالزبيب فى الفطيرة » يحليها ولا يدخل فى خبيزها . وله ملحمة شعرية بعنوان « رفات جون براون » تعد نموذجا لهذه الطريقة ، يروى

فيها قصة الحرب الاهلية ويصور فيها أشخاص **لنكولن ودافيزولى وجاكسون** ، ويبدأها من النزاع على تجارة الرقيق ، ويختمها بحوادث سنة ١٨٦٥ • وقصته النثرية التالية نموذج آخر لهذه الطريقة فى القصة القصيرة التى يرويها عن المأثورات الشعبية ، ويقارب فيها على أسلوب « الشعبيات » بين آيات البطولة وخوارق الطبيعة كما تقدم ، فالبطل فيها خطيب أمريكا الاشهر **دنيال وبستر** ، يغلب كيد الشيطان ببلاغته ، ويسلط بيانه القاهر على عقول المحلفين المختارين من أشرار الجحيم ، فيسحرهم وينسيهم شرورهم ، ويبعد ما بينهم وبين الشيطان ، فيبطلون دعواه ، وينقضون وثائقه وينصرون عليه غريمه الحائن (١) فى يوم القضاء .. وقد وضعت هذه القصة فى القالب التمثيلى ، ثم فى قالب المسرحية الغنائية •

ومن الالفة بين فنه وبين الاذواق الشعبية انه كان ينظم القصائد التمثيلية للاذاعة ، فيستزيده المستمعون ، وكانت كتاباته التاريخية تطبع وتتداول بين الجنود وجمهرة القراء ••• وهو من الشعراء القلائل الذين استطاعوا التوفيق بين أذواق الخاصة وجمهرة القراء ، وساعده على ذلك انه كان كما قال « يكتب عن الماضى ويتحاشى أن يفسده ، بأن يعاش من جديد » .. وانما يكتبه ليصل بينه وبين المستقبل بحلقة من الواقع تلتقى بطرفين مختلفين •

(١) الذى جاء حينه او جاء اجله •

الشيطان ودانيال وبستر

بقلم ستيفن فنسنت بنيت

انها **قصة** يروونها فى أقاليم الحدود حيث تلتقى **مساشويست بفرمونت وهامبشير** الجديدة .

نعم . ان **دنيال وبستر** ميت ، أو هم على الاقل قد دفنوه ، ولكنهم كلما سمعوا الرعد على مقربة من **مرشفيلد** قالوا انكم لتسمعون صوته القاصف فى أجواز الفضاء ، ويقولون انك اذا ذهبت الى قبره وناديت : « دانيال وبستر . دانيال وبستر » أخذت الارض ترتجف ، والاشجار تترنح ، وسمعت بعد قليل صوتا أجش يسأل : أيها الجار . كيف حال الاتحاد ؟ وخير لك اذن أن تجيب قائلا : « ان الاتحاد قائم كما قام .. أساس من الصخر وغشاء من النحاس . واحد متحد غير منقسم .. » والا فانه ليستطيع أن يشق الارض ويخرج منها .. أو هكذا على الاقل كنت أسمع منهم فى صباى .

واعلم أنه كان يوما ما أكبر انسان فى البلاد ، ولم يتول الرياسة مرة ، ولكنه كان أكبر انسان ، وكان فى البلاد ألوف يؤمنون به بعد ايمانهم بالله القدير ، ويروون أقاصيصه ، ويتحدثون بأخبار عنه على نمط تلك الاخبار التى نسمعها عن آباء التوراة وشيوخها الابدال . وانهم ليؤمنون انه اذا قام خطيبا برزت النجوم والازياج من السماء ، وانه خطب مرة « ضد » نهر من الانهار فغاض فى أسفل الارض ، وانه كان اذا خرج يتمشى فى الغاب بصنارته قفز السمك الى جيوبه ، لانه يعلم أنه لامنجى له منه ، وانه اذا دافع عن قضية ، ففى وسعه أن يهز أوتار الابرار ويسيطر على الاصداء فى جوف الرغام ..

هكذا كان **الرجل** ، وكذلك كانت ضيعته فى **مرشفيلد** على قياسه ، تلائمه وتوائمه . فكان الدجاج الذى يربيه كله لحم

أبيض الى الرجلين ،وكانت أنعامهترعى كما يرعى الابنـاء ، وكان الكبش الكبير الذى سماه جالوتذا روق كقوس النصر ، فى قدرته أن يعشر نعـاجه من وراء باب حديد .

على أن **دنيال** لم يكن من أولئك السادة الكسالى أصحاب الضياع، بل كان يعرف كل شىء عن الارض وينهض ليتفقد شغل الحقل على ضوء الشموع ! رجل له فم كفم الـكلب الضـليع ، وأنف أشم كالطود، وعينان كجذوة النار . ذلك هو **دنيال وبستر** فى ريعانه، ولم تدون أكبر قضـايـاه التى تولاها على صفحات الـكتب ، لانه كان يساجل فيها الشـيطان دقة بدقة .. وهذه هى كما سمعناها مرات بعد مرات :

***

كان هنـالك رجـل يسمى جابيزسـتون يقيم فى « **كروس كورنرز** » بهمبشير الجـديدة . ولم يكن رجلا رديئا - على فكرة - ولكنه كان سيىء الطالع ، يزرع القمح فيبتلى بآفتـه ، ويزرع البطاطس فيبتلى بآفتها ، وأرضه من أجود الارض ولكنها لا تسعده أو تغنيـه ، وله زوجـة كريمة وأطفال ، ولكنه كلما رزق طفـلا قل رزقه ، واذا أثمرت الحجـارة فى حقل جاره فالصـخور فى حقله تتقد ، واذا كان له حصـان متوعك باعه بحصان مختلج وأدى عليه فرقا للبائع . وتلك شنشنة معهودة فى بعض عبـاد الله .. بَيْدَ أن **جابيز ستون** ضجر يوما من هذا النصيب الموكوس كله ، وحدث ذلك اليوم أنه كان يحرث أرضه فاصـطدم المحراث بحجـر وأقسـم ماكان ذلك الحجـر فى الارض بالامس ، وأنه لينظر الى المحراث اذا بالحصان يسعل ذلك السعال الذى ينم على المرض ، ويستدعى اليه البيطار ، وعنـده فى البيت طفلان مصابان بالحصبة، وزوجة تشكو ، وعلى أصبعه هودمل .. لقد كان هذا كالحصـاة التى تقصم الظهر عنـد **جابيز** . فقال وهو قانط يدير بصره فيما حوله : لقـد عانيت مايكفى المرء أن يلقاه ليبيع الشيطان **روحه** . وانى لبائعها ان شاء بفلسين !

ثم تنبه فعجب لنفسـه كيف عن له خاطر كهذا ، ولكنه - وهو من صميم **همبشير** - لا قبل له بالرجوع فى كلام ، وحان المساء فلم ير على غاية مد البصر علامة على أنه قد سـمع وهو ينـاجى نفسه تلك المناجاة . فشعر بالفرح لانه كان رجلا صاحب دين وتقوى . الا أن الخبر يسمع عاجلا أو آجلا كما قيل فى الـكتاب . فلما كان

الغد على موعد العشاء شوهد **زائر** غريب ، رقيق الكلام ، فى الملابس السود ، يسوق مركبة ذات عجلتين ، ويسأل عن **جابيزستون** ٠

وزعم **جابيز** لاهله أنه محام أتى اليه فى أمر وصية ، بيد أنه قد عرف من هو ، ولم يعجبه مرآه ولا ابتسامته بين أسنانه ، وكانت أسنانا بيضا كثيرة ، يقال انها كانت مصفوفة تملأ كل فكيه ، ولكنى لا أراهن على صدق ماقالوا ٠

ولم يعجبه الرجل **الغريب** كذلك بعد أن رأى الكلب ينظر اليه فيعوى ويهرب الى الدار ، وذنبه بين رجليه ٠ غير أنه قال كلمته فلم يسعه أن ينقضها ، وذهبا معا خلف المخزن فعقدا الصفقة بينهما ، وكان على **جابيز** أن يجرح يده ليكتب توقيعه **بدمه** ، فأعاره الزائر الغريب دبوسا من الفضة ، ثم اندمل الجرح نقيا ، ولكنه خلف فى موضعه ندبة بيضاء ٠

وعلى **غير العادة** جرت الامور رخاء بعد هذا مع **جابيزستون** ، فسمنت أبقاره ، ونشطت خيله ، وحسده الجيران على وفرة غلاته ، وسلمت مؤونته وحدها مما يصيب مؤن الآخرين ، وسرعان ماأصبح من أغنى ذوى اليسار فى الاقليم ، فاقترحوا عليه أن يرشح نفسه للنيابة عنهم ففعل ، وتشاور الناس فى انتخابه عنهم شيخا للولاية ، وشاعت السعادة فى بيته ، فكان أهله جميعا أسعد من القطط الصغار فى دار اللبان ٠ الا **جابيز ستون** نفسه ، فلم يكن بالسعيد ٠

ولقد رضى عن حاله خلال السنوات القلائل الاولى ٠٠ فان توفيق الحظ شيء يذهل المرء عن كل ماعداه !

نعم ان الندبة الصغيرة كانت تنكأه قليلا بين حين وحين ، وكان الزائر **الغريب** فى المركبة ذات العجلتين يعاوده فى موعده لا يتأخر عنه طرفة عين ٠ الا أنه فى السنة السادسة حضر الزائر الغريب فذهب السلام من ضمير **جابيزستون** الى غير رجعة مع محضره المريب ٠٠

أقبل الزائر **الغريب** من جانب الضيعة السفلى يضرب حذاءه بقضيب فى يده ، وكان حذاء أسود جميلا ، لكنه لم يكن يروق **جابيزستون** وبخاصة موضع الابهام ٠٠ وبعد أن قضى سحابة النهار جعل يقول للسيد **ستون** :

ـ حسن ٠٠ حسن ٠٠ ياسيدستون ٠ انك لمجدود ، وان هذه الضيعة التى أراها لك لهى ثروةقيمة ٠

قال **ستون** : على كل حال أنها تعجب بعض الناس ولا تعجب أناسا آخرين ٠٠٠ وان **ستون** كما لايخفى لهمبشيرى صميم !

ـ كلا ٠٠ كلا ٠٠ لاحاجة بك الى بخس عملك ٠

كذلك كان جواب الزائر **الغريب** وهو يكشف بابتسامته عن أسنانه ، ثم استطرد قائلا :

على أننا نعلم ما حصل ، فانه قد حصل كله وفقا لما تعاقدنا عليه ، فاذاحان الموعد السنةالمقبلة لم يكن لديك ما تندم عليه

قال **ستون** : أتتكلم أيهاالسيد عن ذلك الاتفاق ؟

والتفت حوله كمن يستغيث بالارض والسماء ٠

ثم قال : انى أوشك أن أجد فيه موضعا أو موضعين مما يريب !

وصاح الزائر **الغريب** صيحة ليست بالمستحبة على كل حال : مما يريب ؟

قال ستون : أجل ٠ فاننا فى هذه الولايات المتحدة ، وأنا رجل متدين ٠

ثم تنحنح وقال مجترئا : أجل يا سيدى ٠ اننى لاوشك أن أرتاب كثيرا فى اعتماد هذا الرهن أمام القضاء ٠٠٠

فأجابه الزائر **الغريب** : هناك قضاء وقضاء ٠٠٠

وسمع لاسنانه هدير وهو يقول : على أننا قد نلقى نظرة على الاوراق !

ثم أخرج من محفظة جيبه الحافلة بالورق وثيقة قرأ عليها اسم **«شروين سليتر، ستيفنزستون»** وتلا منها مفتتحها : « أنا جابيز ستون ٠ أتعهد لمدة سبع سنوات» ثم استطرد قائلا : انها مطابقة للاصول القانونية تماما فيما أحسب !

بيد أن **جابيز ستون** لم يكن يصغى اليه ، وكان يلمح شيئا بارزا من المحفظة السوداء : شيئا يلوح كشكل الفراش وليس به ،

ويهمس حين أنغم ستون فيه النظر همسا كالصفير الا انه انسانى فى نغمته : **جارى ستون** جارى ستون . أغثنى بالله . أنجدنى !

وان **جابيز** ليهم ان يتحرك اذا بالزائر **الغريب** ينفض من جيبه منديلا كبيرا، ويلف به ذلك المخلوق، ويقبل على المنديل يربطه من أطرافه ...

ـ آسف لهذه المقاطعة . لقد كنت أقول ...

ولكن **جابيز ستون** كان يرتجف من فرعه الى قدمه كالجواد المجفل ، ثم تمالك نفسه وقال : ذاك هو ستبفنز البخيل وأنت تقبضه فى منديلك ... !

فاضطرب الزائر **الغريب** قليلا وجاراه قائلا : نعم هو ستيفنز ، وقد كان على أن أودعه صندوق المجموعات ...

قال ذلك متهانفا ، ثم استمر يقول :

ـ ولكن المجموعة فيها ودائع من صنف آخر ، ولا أحب أن أزحمها . لابأس . لابأس . هذه عواض قد تحصل من حين الى حين ...

ـ لا أدرى ماذا تعنى بهذه العوارض ، ولكن هذا هو صوت ستيفنز البخيل ، وليس هو بميت ، ولقد كان فى خفة الفأر ورشاقته منذ قليل .

ـ أحى هو ؟ اذن فاسمع ..

وسمع فى تلك اللحظة ناقوس يدق ، وأصغى اليه **جابيز** ستون وجبينه يتفصد بالعرق ، لانه علم أن دقات تنعى **ستيفنز** البخيل .

قال الزائر متنهدا : هذه الحسابات القديمة لابد لها من تسوية ، وانى لابغض ختامها ، ولكن الشغل شغل ، ولا حيلة فيه !

وكان المنديل فى يده لايزال ، وغشيت نفس **جابيز** وهو ينظر الى المنديل يضطرب ويصطرع، وسأله بصوت مبحوح : أتراهم كلهم بهذه الضآلة ؟

– ضآلة . آه اننى أدرك ماتعنى .. كلا . بل هم يختلفون
وحدج الزائر **الغريب** بعينيه وتكشفت أسنانه وقال :

– لاتقلق يامستر **ستون**، فانك أنت طراز ممتاز ، ولن آمن عليك خارج الصندوق ، وخذ مثلا انسانا! **كدنيال وبستر** .. اننا نبنى له بداهة صندوقا خاصا ، ولانحتوى مع هذا جناحيه .. انه ولا شك لغنيمة نفيسة . وليتنا نفضى اليه فى طريقنا .. أما أنت يا مستر جابيز ، فكما كنت أقول ...

وقبل أن يتم جملته صاح به جابيز ...

– ابعد هذا المنديل ..

وأخذ يلح ويتوسل ، فكان أقصى ما وصل اليه تأجيل ثلاث سنوات مع بعض القيود والشروط ...

***

وأنت أيها القارىء لا تستطيع أن تعلم كيف تمر السنوات الاربع سراعا الا اذا وقعت فى ورطة كتلك الورطة ، وأبرمت اتفاقا كذلك الاتفاق ، ففى الاشهر الاخيرة من هذه السنوات كان **جابيز ستون** قد اشتهر بين ارجاء الولايات كلها ورشحه الكثيرون لمسند الحاكم عليها ، وما كان ذلك الا كالرماد والتراب بين فكيه ، لانه كان يفكر كلما طلع عليه الصباح يوما قائلا لنفسه : هذا يوم قد مضى واقتربنا الى الموعد ، وكان يقول لنفسه كلما آواه الفراش ليلة : هذه ليلة تنقضى ! وتحضره رؤية المنديل الاسود وروح ستيفنز البخيل تضطرب فيه .حتى برم بهذه الهواجس آخر الامر وعيل بها صبره ، فامتطى حصانه فى الأيام الاخيرة من السنة الاخيرة وركضه الى جانب **دانيال** وبستر ، لان دانيال قد ولد فى **همبشير** الجديدة على مدى اميال قليلة من « **كروس كورنرز** » وعرف عنه انه كبير العطف على جيرته الاقدمين .

ووصل الى **مرشفيلد** فى الصباح الباكر ، ولكن **دنيال** كان قد نهض من فراشه ، وراح يناقش عمال الزراعة ويصارع الكبش «جليات» ويروض جوادا جديدا، ويستعد بخطاب للرد على **چون كلهون** .. فلما سمع أن قادما من همبشير الجديدة يريد أن يلقاه أخلى نفسه من كل شىء على عادته فى هذه الاحوال ، ودعا **جابيز**

الى مائدة افطار لايقوم بها خمسة من الرجال الاشداء ، واستعاد تاريخ حياة كل رجل وامرأة فى ((**كروس كوركرز**)) ثم سأل : ماذا يستطيع أن يعمل لخدمته ؟

قال **جابيز ستون** : انها قضية رهن ..

ـ حسن .. اننى منذ عهد بعيد لم أدافع فى قضية رهن ، ولست الآن على العموم أشتغل بالقضايا فى غير المحكمة العليا ، غير أننى أساعدك فى قضيتك بما أستطيع .

قال **جابيز ستون** : اذن يعمر قلبى الرجاء لاول مرة بعد عشر سنين ، وقص عليه قصته باسهاب وتفصيل ..

وجعل **دنيال** يمشى جيئة وذهوبا وهو يستمع اليه ، وقد عقد يديه وراء ظهره ، وطفق مرة بعد مرة يطيل النظر الى الارض كأنما يثقب أديمها بمثقب . فلما فرغ جابيز من قصته أشرق وجه **دنيال** بابتسامة كالصبح ومال اليه قائلا : لقد أسلمت مقادك حقا **للشيطان** أيها الجار . ولكننى أقبل قضيتك ..

فلم يكد **جابيز** يصدق أذنيه ، وصاح مبتهجا : تقبلها ؟

قال **دانيال وبستر** : نعم . ان عندى نحو خمس وسبعين مسألة أتولاها ، وعندى مسألة التفاهم على مساومة **ميسورى** ، ولكننى سأقبل قضيتك ، فان لم يكن رجلان من **همبشير الجديدة** كفؤا للشيطان فخير لنا أن نترك البلاد للهنود الحمر وننصرف منها ..

ثم صافح **ستون** وهز يده سائلا : أأنت على عجل ؟

قال **ستون** : الواقع اننى عملت حساب الوقت .

قال **دانيال** : وستعود أسرع مما أتيت . وأمر أتباعه بشد حصانه المسمى بالدستور ، وحصانه المسمى بالبرج ، الى المركبة ، وكلاهما رمادى وقائمة من قوائمه الاربع بيضاء .. أما السرعة فتلك سرعة البرق المدهون .

ولست أريد ان أصف كيف عم السرور والابتهاج كل فرد من أفراد أسرة **ستون** حين رأوا انهم مستضيفون **دانيال وبستر** العظيم فى دارهم ، وكان الهواء قد أطار قبعة **ستون** فى الطريق ، فلم يكترث لذلك ، واذن لاهله جميعا بعد العشاء أن يذهبوا ليناموا لانه سيعمل مع **السيد وبستر** فى شغل خاص ، فدعتهما السيدة **ستون** الى الجلوس فى ردهة الاستقبال ، ولكن السيد

وبستر قال انه يفضل الجلوس فى المطبخ لانه يعرف ردهات الاستقبال . وكذلك جلسا فى المطبخ منتظرين وصول الزائر **الغريب**، وبينهما ابريق على المائدة، وفى الموقدنار لامعة ،وكان موعد مجيئه عندما تؤذن الساعة بمنتصف الليل ...

ومامن أحد يتمنى صحبة هى أمتع من الجلوس الى **دانيال وبستر** وابريق . الا أنستون كان يزدادغما كلما نبضت الساعة نبضة من نبضاتها ، وكانت عيناه تحومان يمنة ويسرة ، ولاتشتهى نفسه قطرة يذوقهامن ذلك الابريق الذى عنى بملئه وتحضيره ،فلما دقت الساعة النصف بعد الحادية عشرة مد يده يعتصم بذراع مستر **وبستر** وجعل يناديه : سيد وبستر . سيد وبستر ! . وجعل صوته يرتعش ويتكلف الجرأة اليائسة، ثم قال : بحق **الاله** ... شد حصانيك وانج من هذا المكان بأسرع ماتستطيع ..

قال السيد **وبستر** : انك قد أتيت بى ايها الجار من مكان بعيد كى تقول لى انك لاتستريح الى صحبتى .. !!

قال ذلك ساكن الجأش مقبلا على الابريق !

وعاد **جابيز** يقول بصوت كأنه الانين : يالى من تعس !

... لقد أقحمتك فى حبائل الشيطان ،وها أناذا أعرف حماقتى وجهلى . فليذهب بى الشيطان ان شاء حيث يشاء ، فانى أهل لما يصنع بى ، وفى وسعى أن أحتمله ... أما أنت أيها السيد فانك ملاذهم بشير الجديدة، وحارس الاتحاد ، ولايصح أن يصل اليك .. كلا . كلا . لايصح أن يمد يده اليك !

ونظر **دنيال وبستر** الى الرجل الوجل ، قد احتواه شعاع النار، واستولت عليه الرجفة ووضع يده على كتفه وهو يقول له :

— انى لشاكر لك أيها الجار لطف شعورك . ولكن ألا ترى ان هنا ابريقا لم أفرغ منه ؟ . اننى ماتركت عملا قط بدأته دون أن أفرغ منه أيها الصديق !

فى تلك اللحظة سمعت دقة عنيفة على الباب ، فقال **دنيال وبستر** ببرود : آه . ادخل ..

فدخل الزائر **الغريب** . ولاح فى شعاع النار طويلا بملابسه السود ، ولاح تحت ابطه صندوق أسود تتخلله خروق ، فلما وقعت

عين **جابيز** على الصندوق بدرت منه صيحة خافتة وقبع فى ركن من الحجرة ...

قال **الزائر** بادب جم: أحسبنى أرى السيد **وبستر** !

ولكنه مع أدبه هذا كانت عيناه تلتمعان كالثعلب فى الغاب !

قال **وبستر** : نعم .. وكيل **جابيز ستون**. فهل لى أن أسألك عن اسمك ؟

قال : لقد عرفت بأسماء كثيرة. ولعل اسم «**خربوش**» يلائمنى هذا المساء ، فهو الاسم الذى أدعى به فى هذا الاقليم ..

ثم جلس الى المائدة وصب لنفسه قدحا من الشراب . . وقد كان الشراب باردا فى **الابريق** ولكنه تدفق منه الى القدح كالدخان ..!

واستأنف الزائر **الغريب** قائلا وهو يبتسم ويكشف عن أنيابه :

ـ والآن أرجو ـ وأنت مواطن تحترم القانون ـ أن تمكننى من حقى ....

وبهذا ابتدأت **المساجلة** ، ولم تزل تحتدم وتعنف كلمة بعد كلمة ....

لقد تعلل **جابيز ستون** ببعض الرجاء فى أول الامر ، ثم لم يلبث أن رأى **دنيال** يتراجع فى نقطة بعد نقطة حتى انزوى الى ركنه ، ولم ترتفع عيناه لحظة عن الصندوق الاسود، اذ لم يكن ثمة أيسر شك فى مضمون الوثيقة وصحة التوقيع، وهو أخطر ما فى الموضوع .. !

وطفق **وبستر** يتلوى وينقبض ويقرع المائدة بيده ولا يزيد على ذلك ، وعرض على الزائر **الغريب** أن يصطلحا على المساومة ، فلم يقبل عرضا من عروضه ، وكان من حججه أن البضاعة زادت فى الثمن ، وان شيوخ الولايات يساوون ثمنا أكبر من الثمن المتفق عليه ، فتشبث الزائر **الغريب** بالنص الحرفى ولم يتزحزح عنه قيد شعرة ....

لقد كان **دنيال وبستر** فقيها ضليعا ، ولكننا نعلم من هو فقيه الفقهاء ، كما وصفته الكتب ،فبدا ـ لاول مرة ـ أن **دنيال وبستر** لقى **نده** فى الميدان !

وتثاءب **الزائر** أخيرا وهو يقول :

ـ ان جهودك الحارة لمصلحة موكلك تشرفك ياسيد **وبستر** ،

ولـكنك اذا كنت قد استنفدت الحجج التى عنـدك ولم تبق فى جعبتك حجة تضيفها ، فاسمح لى أن أقول اننى مستعجل !

فاضطرب **جابيز ستون**، واكفهر وجه **دنيال وبستر** كأنه الغمامة المرعدة ، وصاح بالزائر **الغريب** :

ـ مستعجل أو غير مستعجل . انك لن تظفر بالرجل . ان السيد ستون رعية أمريكية ، وما من أحد من هذه الرعية يساق كرها الى طاعة أمير أجنبى ، وقد حاربنا انجلترا فى هذا السبيل سنة اثنتى عشرة ، وسنحارب جهنم كلها مرة أخرى فى هذا السبيل :

وصاح الزائر **الغريب** :

ـ أجنبى ومن قال أننى أجنبى ؟

قال **وبستر** : حسن اذن فاننى ماسمعت قط أن الشيطان .. انك تنتمى الى الوطنية الامريكية !

فأجابه الزائر **الغريب** بابتسامة من ابتساماته المخيفة ، وهو يقول :

ـ ومن أحق منى بالانتماء اليها ؟ فقد كنت معكم حين حدث أول عدوان على الهنود ، وكنت معكم حين اجتلب أول زنجى من امريقية .. و ... وبعد فهل خلت منى كتبكم وحكاياتكم وعقائدكم من أول الهجرة الى اليوم ؟ أليست سيرتى مقروءة فى كل بيعة من بيع انجلترا الجديدة ؟ نعم ان الشماليين ينسبوننى الى الجنوب ، والجنوبيين ينسبوننى الى الشمال ، ولكننى لست بهذا ولا ذاك ، وانما أنا أمريكى مخلص مثلك ياسيد **وبستر** . ولست أحب أن أفخر عليك ، فانما أقرر الواقع حين أقول أننى أعرق منك فى هذه البلاد ..!

وانتفخت العروق فى جبهة **دنيال وبستر** وهو يتحدى الزائر **الغريب** قائلا :

ـ اذن نحتكم الى الدستور ، ومن حق موكلى أن يحتكم اليه ...

قال الزائر **الغريب** :

ـ ان القضية قلما تستحق أن تعرض على محكمة من المحاكم الاولية . والحق أننا قد تأخرنا ، وهذه الساعة ...

قال **دنيال وبستر** فى أنفة وغضب :

ــ لتكن ماتكون . انها محكمة أمريكية على أية حال ، ومحلفون أمريكيون . لتكن محكمة الموتى . فانني واثق من النتيجة ..

ــ لقد قلتها أنت !

كذلك كان جواب الزائر **الغريب** ، وهو يومىء بأصبعه نحو الباب ، فاذا بالريح تعزف خارج الباب ، ويسمع معها وقع أقدام ، ثم أقبلت من الباب أشباح مميزة بأشكالها تحت جنح الليل ، ولكنها تخطو فيسمع لمسيرها وقع غير وقع أقدام الاحياء .. !

وصرخ **جابيز ستون** : يالله ! من هؤلاء القادمون فى مثل هذه الساعة ؟!

فأدركه الزائر **الغريب** متهكما هؤلاء هم **المحلفون** الذين طلبهم السيد **دنيال وبستر** .

ثم رشف من قدحه الملتهب بضع رشفات ، وعاد يقول : معذرة لهم أن قدم منهم واحد أو اثنان . لقد كان خليقا بهم أن يقدموا منذ حين ..

وفى تلك اللحظة تلهبت النار زرقاء اللهب ، وانفتح الباب وولج منه اثنا عشر شخصا واحدا فى اثر واحد ..

لئن كان **ستون** قد أسقمه الذعر من قبل ، لقد عمى من الذعر حين بصر بهؤلاء . فقد كان منهم **والتر بتلر « الموالى »** للدولة الانجليزية الذى أثار الخوف وأضرم الحريق فى وادى موهاك أيام الثورة ، وكان منهم **سيمون جرتى** الخائن الذى كان يشهد مصارع البيض فى النار ، ويهلل مع الهنود لمرآهم وهم يحترقون ، وانك لترى عينيه الخضراوين كأنه القط المستوحش ، وعلى قميصه نقيع الدم ، ولكنه ليس بالدم من غزلان الصيد . وكان منهم الملك **فيليب**(١) متجبرا متكبرا كما كان بقيد الحياة ، وعلى رأسه أثر الجرح الذى أصماه وأرداه ، وكان منهم **ديل** الحاكم الفظ الذى حطم عظام الناس على دواليب العذاب ، وكان منهم **مورتون** من **مسرى** مونت الذى أزعج اقليم **بليموث**

---

(١) زعيم تولى قيادة قبائل من الهنود الحمر

بوجهه المحمر – المليح – وبغضائه للصالحين ، وكان منهم **تيتش** القرصان الدموى بلحيته السوداء متجعدة على صدره ، وكان منهم الاب الموقر **جون سميث** بيديه الخانقتين وجلبابه السويسرى يتمشى برشاقته التى تمشى بها الى المشنقة ، ولمايزل فى عنقه أثر الحبل ، وفى احدى يديه منديله المعطر ..

دخلوا واحدا فى أثر واحد الى الحجرة ، ولم تزل على وجوههم قترة الجحيم ، وقدمهم الزائر **الغريب** بأسمائهم وأفعالهم ولم يكذب فيما عزاه اليهم . فقد كان لهم جميعا أدوارهم فى البلاد ..

وسأل الزائر **الغريب** متهكما ، وقد استووا على مقاعدهم :

– أيرضيك هؤلاء المحلفون ياسيد **وبستر** ؟

فتكلل جبين **وبستر** بالعرق ، ولكنه قال بصوت واضح :

– راض كل الرضى .. . وان كنت لا أرى بينهم القائد **أرنولد** ..

قال الزائر الغريب : ان **بنديكت ارنولد** مشغول بعمل آخر ! ..

ثم استطرد قائلا وعيناه تسطعان بالشرر :

– انك تطلب قاضيا فيما أحسب ، وأشار بأصبعه اشارة أخرى ، فأقبل رجل طوال عليه ثياب المطهرين ، وفى عينيه لمعة التعصب العنيد . يتمشى الى كرسى القضاء ويستوى عليه ..

قال الزائر **الغريب** : أن القاضى **هاثورن** محلف مدرب ، تولى رياسة **المحكمة** التى فصلت فى قضايا السحرة بمدينة **سالم** ، وقد ندم غيره بعد ذلك ، ولكنه معاذ الله أن يندم كمن ندم ..

قال **القاضى** الصارم : أيندم على تلك الفرائض المبجلة ؟ .. حاشا لله . بل الشنق لهم أجمعين . نعم أجمعين .. وغمغم بينه وبين نفسه بنغمة قارسة سرت مسرى الثلج المميت فى مفاصل **جابيز ستون** ..

ثم بدأت المقاضاة ، ولم يكن فى طوالعها ماينشر المدعى عليه بالخير ، فلم يحفل **جابيز** نفسه بشهادة تزكى دعواه ، وأرسل

بصره مرة الى **سيمون جيرتي**،فصرخ مجفلا ، وأخذوه الى زاوية الركن ، حيث كان يجلس ، فأجلسوه فى شبه اغماء ..

ولم تتعطل المقاضاة مع هذا،فانتظمت على نظـام غيرها من القضايا . وكثيرا ماوقف**وبستر**فى تجاربه الماضـيـة بين أيدى محلفين قساة ، وقضاة غشمة ، ولكنها فى هذه المرة كانت أصعب تجاربه ، ولم يجهلها ..

واستووا هنالك على مقاعدهم،تلتمع أعينهم ، ويسمع أمامهم من حين الى حين صـوت الزائر **الغريب** الناعم اللين ، يجاب كل اعتراض له بالقول ، ولا يجاب الاعتراض من جانب **وبستر** بغير الرفض والاعراض .. وماذا ينتظر من خيرة يختارها السيد **خربوش** ؟

ثم جاء دور **دنيال** أخيرا ، وقد حميت قريحته كالحديد فى الاتون ، فلما تحفز للكلام أزمع النية على أن يسلخ ذلك الزائر **الغريب** سلخا ، ويعوذ بكل حيلة من حيل القانون لتجريحه وتجريح المحلفين على السواء ، ولم يبال أن يتهم باحتقار المحكمة ، أو بما يصيبه من جراء حملتـه ، ولم يبال كذلك مايصيب **جابيز ستون** وانما جن جنونه ولم يفـكر فى شىء غير ما ينوى أن يقول ، ومن عجب أنه كان كلما فكر فيــه شق عليه أن يستجمعه فى ذهنه على وتيرة متلاحقة .. ثم حان وقت النهوض للـكلام فنهض على أهبتـه للابراق والارعاد وصب اللعنات وادحاض الشبهات ..!

وقبل البدء بالكلام جعل يقلب نظره بين وجوه المحلفين ووجه القاضى ، كدأبة فى هذه المواقف ، ولاحظ البريق فى أعينهم ، فاذا به ضعف ما كان ، واذا بهـم جميعا متكئون الى الامام ، كأنهم كلاب الصيد قبـل عثورها على الثعلب ، وقد تكاثف أمامه ضباب الشر فى الحجرة وهو ينتقل بينهم ببصره ويتأملهم واحدا بعـد واحد . فوضح له ماهو مقبل عليه ، ومسح بيديه على جبينه كما يصنع الرجل قد نجا وشيكا من السقوط الى هاوية فى الظلام .

لقد جاءوا ، فى الحق ، من أجله **هو ، لا** من أجل **جابيز ستون**، وعرف ذلك من بريق أعينهم ومن منظر الزائر **الغريب** ، اذ يخفى فمه بيده هنيهة بعد هنيهة .فلو أنه حاربهم بأسلحتهم لوقع فى قبضتهم ، وكان على يقين من ذلك ، وان لم يكن فى وسعه أن يقول لك كيف سرى اليه ذلك اليقين ..!

لقد كان غضبه وخوفه هما البريق الذى يسطع فى تلك الاعين ، وكان عليه أن يجلوهما أو تضيع القضية ، فتمهل قليلا وعيناه السوداوان تتقدان كجذوة الفحم الحمراء ، **ثم أخذ فى الكلام** ..

بدأ على مهل ، وان كانت كل كلمة من كلماته مسموعة واضحة ، وكثيرا ماكان يقال عنه أنه يستنزل معازف الصالحين والملائكة حين يشاء . ولا يكلفه ذلك الا أن يفتح شفتيه .. غير أنه لم يستهل مقاله بالثلب والادانة ، وقصره على بيان الامور التى تصبح بها الامة هى الامة والانسان هو الانسان .. وكان استهلاله بتلك البسائط السهلة التى يعرفها كل أحد : نضرة الصباح اذ أنت فتى فى مقتبل العمر ، ولذة الطعام اذ أنت جائع تشتهيه ، واليوم الطالع الذى هو خلق جديد اذ أنت طفل صغير ، .. واستولى عليهم ولوى بهم فى يديه ، وكانت تلك أشياء حسنة مستحبة لكل أحد ، ولكنهم بغير الحرية مرضى مهازيل . فلما عرض فى كلامه لاولئك الذين استعبدوا ، وللأخزان التى تجلبها العبودية ، كان لصوته رنين كدق الاجراس ..

وراح يترنم بأمريكا ، وبمن صنعوا أمريكا . ولم يكن حديث جعجعة من غير طحن ، بل كان حديث الواقع كما تراه ، وكان يسلم وقوع الخطأ حيث وقع ، ولكنه يبين للسامع كيف نما من الخطأ والصواب ، ومن جوع الجائعين وعذاب المضطهدين ، خلق جديد : خلق قد اشترك فيه كل عامل غير مستثنى منهم خونة ولا منكرون ..

ثم استطرد من كلامه الى **جابيزستون** فوصفه بصفاته ، ومثله لهم على مثاله : رجل من سواد الناس طارده نكد الطالع ، فتمنى لو يبدل طالعا أسعد وأجدى ، ولهذا التمنى يراد اليوم أن يحل به العذاب الواصب أبد الآبدين ودهر الداهرين . وان **جابيزستون** مع هذا لرجل طيب لا يخلو من جانب خير وصلاح ، ولعله كذلك لايخلو من شدة واسفاف ، ولكنه بعد هذا كله انسان ..

وانه لمن المحزن أن يكون الانسان انسانا ، ولكنه كذلك فخر وكبرياء ، وقد أراكم جانب فخره وكبريائه حتى لا خفاء .

فانه لفى الجحيم نفسه لن يكون الانسان انسانا الا أدركتم ماهو عليه ..

ولم يكن **دنيال** يتشفع لاحد خاصة ، وأن رن صوته فى أسماعهم رنين الارغن . انما كان يروى قصة الانسان فى مساعيه وعثراته من أوائل خطاه فى رحلته الابدية ، ومامن شيطان يستشف سريرته فى ذلك الجهاد ، فماتتاح هذه القسمة بمساعيها وعثراتها الا لانسان .

وكادت النار فى الموقد أن تخمد ، وكاد نسيم الفجر أن يهب قبل طلوع الصباح ، ولاحت بواكير النور فى الحجرة حين فرغ **دنيال وبستر** من الكلام ..

لقد عاد بكلماته قبل الختام الى أرض **همبشير الجديدة** ، والى بقعة الارض التى يأوى اليها كل فرد منها ، ولا يهون عليه أن يفرط فيها ، ورسم من كل أولئك صورة مموقة ، فاستعاد لكل سامع من أولئك المحلفين ذكريات طال العهد بنسيانها ، اذ كان من أسرار صوته أن يسلك سبيله الى القلب ، وفى ذلك كل مزاياه وكل قواه ..

كان صوته فى مسمع هذا كالغابة وخفاياها ، وكان صوته فى مسمع ذاك كالبحر وأغواره ، وكان أحدهم يسمع منه صرخة من أعماق سمته الغابرة ، وكان غيره يبصر منه منظرا مستحبا لم يبصره منذ حين . الا أنهم جميعا يحسون منه مايحسون .!

ولم يدر **دنيال وبستر** فى ختام كلامه أكان قد أفلح أم لم يفلح فى انقاذ **جابيزستون** ، ولكنه كان يدرى أنه صنع المعجزة وأطفأ ذلك البريق ، بريق البغضاء فى أعين **القاضى والمحلفين** ، فأصبحوا تلك الساعة أناسى مرة أخرى ، وعلم هو انهم عادوا كما خلقهم الله أناسى من أبناء آدم وحوء ..!

قال **وبستر** : ان الدفاع يستريح ..

وظل قائما هنالك كالطود الاشم : أذناه تتجاوبان بأصداء كلامه ولا تسمعان شيئا آخر غير تلك الاصداء ، الى أن سمع القاضى **هاثورن** يقول :

المحلفون ينفردون للتشاور فى القرار .

ووقف والتر **بتلر** فى مكانه ، وعلى وجهه سرور كاب تخالطه الكبرياء ، وقال :

أن المحلفين قد انتهوا الى قرار ..

ووجه نظرته الى الزائر **الغريب** فى قرارة عينه ، ثم قال :

القرار لمصلحة المدعى عليه **جابيز ستون** » .. !!

واختفت الابتسامة من وجه الزائر **الغريب** ؛ ولم يتلعثم **والتر بتلر** أو يتراجع ، بل مضى يقول :

ـ « .. على أنه قرار لعله لا يطابق البينات كل المطابقة ، ولكن بلاغة **دنيال وبستر** جديرة بالتحية والاكبار ، حتى من زمرة المنبوذين المنظرين (١) .

وارتفع فى تلك اللحظة صياح الديك يشق سماء الصباح ، وانقشع **المحلفون والقاضى** من الحجرة كما ينقشع الدخان ، فلا اثر ولا خبر . والتفت الزائر **الغريب** الى **دنيال وبستر** يتبسم له عن خبث وخداع ، ويقول :

ان الماجور **بتلر** قد وصف بالشجاعة من قديم ، وما حسبته قط بهذه الشجاعة التى شهدتها الآن ، وعلى كل ياسيد **وبستر** تقبل منى تهنئة الشريف للشريف ...

قال **وبستر** : قبل كل شىء ناولنى من فضلك هذه الوثيقة ومد يده فأخذها ومزقها ، وأحسها حامية فى يده لفرط دهشته ... ثم قال :

ـ والآن فانى أقبض عليك انت ، وامتدت يده كأنها الشرك القابض على الوحش ، فقبضت على ذراع الزائر **الغريب** ، ..

ولم يكن يخفى عليه أن الشيطان تنزف قوته اذا انهزم فى نضال على حسب الاصول ، ورأى تلك الساعة أن « السيد **خربوش** » يعرف ذلك أيضا ولا يخفى عليه عليه ..

وأخذ الزائر **الغريب** يتلوى ويتملص ولا نجاة !.. وطفق يقول ويحاول الابتسام ، وقد شحب لونه واصفر وجهه :

ـ مهلا مهلا ياسيد **وبستر** . ان هذا الامر مض ... مضحك

---

(١) الذين يشبهون ابليس فى انه من المنظرين ـ بفتح الظاء .

.. وانى لاعدك بسداد أجر الدفاع عن طيبة خاطر ، ان كان **هذا** ماتعنيه ..

قال **وبستر** : نعــــم ، وانك لفاعل ..

ثم هزه هزا عنيفا حتى اصطكت أسنانه ، وأمره أن يجلس الى المائدة فيكتب على نفســه عهدا لايعودن الى مضايقة **جابيز ستون** ولا احد من أهله وتابعيه، ولا أحد على الاطلاق من همبشير **الجديدة** الى يوم الدين .

قال : اننا اذا احتجنا الى هاوية الجحيم فى هذا الاقليم ، فنحن صانعوها بأيدينا ، ولا حاجة بنا الى معونة الغرباء ..

وصاح الزائر **الغريب** متأوها : آخ . انهم مادخلوا المصيدة قط ســمانا . ولــكننى ... موافق !

ثم قعد على كرسيه وكتب الوثيقة ، ويد وبستر آخذة بطوقه لاتفلته ..

قال الزائر **الغريب** : والآن . أيمكننى أن أذهب ؟ ..

قال ذلك فى ذل ومسكنة ، وبعد أن فرغ **وبستر** من مراجعة الوثيقة والتحقق من مطابقتهــا للاصول ..

وأجابه وبستر بعد أن هــزه هزة أخرى :

ـ اذهب ! واعلم اننى لاأزال مفكرا فيما ينبغى أن أعمله معك ، فانك قد سددت حساب القضية ولم تسدد بعد حسابك معى ، وأحسب اننى سأعود بك الى **مرشفيلد** ، فعندى هناك كبش يناطح الحديد ، وسأطلقك فى حقله وأرى ماهو صانع بك ..

عندئذ تقدم الزائر **الغريب** متوسلا متضرعا ، وبلغ من مسكنته فى توسله وتضرعه أنه ألان قلب **وبســتر** ، وهو بطبيعته رحيم كريم ، فاذن له بالانصراف ، وبدأ على الزائر **الغريب** أنه جد شاكر مغتبط بالنجاة ، فأراد أن يعرب عن شكره واغتباطه ، وقال **لوبستر** انه سيخبره الســاعة بطوالعه فى المستقبل ، وقبــل **وبستر** منــه ذلك ، وان لم يكن ممن يصدقون هــذه الطوالع ، الا أن الزائر **الغريب** يخالفه بداهة فى هذه الخصلة .. !

وتناول الزائر يد **وبســتر** يتفحص خطوطها وعلاماتهــا ، فأنبأه بأمور ذات بال ولكنها كانت جميعا من أنباء المــاضى .. فقال له **وبستر** :

ـ ذلك كله صحيح . فحدثنا عن المستقبل ان استطعت .
فتهانف الزائر الغريب تهانف الرضى وهز رأسه قائلا : ان المستقبل ياسيد **وبستر** على غيرماتقدر . انه مظلم . وان لك لمطمعا كبيرا ياسيد **وبستر** .

قال **وبستر** بعزم وثبات :نعم لى هذا المطمع الكبير . . وكان معلوما عند الناس جميعاأنه يرشح نفسه للرئاسة ..

قال الزائر **الغريب** : انها لتبدو فىمتناول يديك ، غير انك لا تنالها . وسينالها من هم دونكوتعبرك أنت الى غيرك .

قال دنيال : وان يكن فسوف أبقى كما أنا **دنيال وبستر** .. وبعد .. ؟

قال **الزائر** وهو يهز رأسه :

ـ لديك ولدان قويان تهيىءلهما طريقا يشقانه الى المجد ، ولكنهما يقتلان فى الحرب ولا يدركان الامل فىالعظمة المنشودة..

قال **وبستر** : يقتلان أو لايقتلان . انهما ـ على كل ـ ولداى .. وبعد .. ؟

قال **الزائر** : انكألقيت بالخطب الطنانة ، وسوف تلقى غيرها.

فلم يزد **وبستر** على أن قال **مستزيدا** : ايه .. !

فمضى الزائر يقول : بيد أنالخطاب الاخير الذى سوف تلقيه سيقلب عليك كثيرا من أنصارك، وسينبزونك بالنعوت ، ويزعمون ـ حتى فى انجلترا الجديدة ـ أنك انقلبت على عقبيك وبعت وطنك ، وتعلو أصواتهم عليك الى أن يدركك الاجل المحتوم .

قال **وبستر** : ان كان ماأقولخطاب صدق ، فلاعبرة بما يقوله الناس . ثمحدج الغريب بنظره فتقابلت النظرتان ، وسأل **وبستر** بعد ذلك :

ـ أتراني وقد جاهدت فى سبيل الوحدة أعيش حتى أراها وثيقة قوية أمام دعاة الفرقة والشقاق .. ؟

فأجابه الزائر **الغريب** :

ـ لن ترى ذلك فى حياتك ، ولكنها قضية مكسوبة ، وستفلح بعد موتك ، ويتصدى الالوف للسير بها علىنهجك ، ويتمثلون فى جهادهم بكلماتك ..

قال **وبستر** :

– ولم اذن أيها المسخ الشائه تختال وتحتال فيما تهذر به من طوالع الحال ؟

وانفجر مقهقها وهو يفوه بهذه الكلمات . وعاد يقول :

– أغرب من هنا قبل أن أدمغك بسمة لا تمحى . فانني بحق الولايات الثلاث عشرة لاذهبن الى الهاوية نفسها ، لانقذ وحدة الامة . ثم رفع قدمه ليضرب بها **الزائر** ضربة تقتل الحصان المتين ، لولا أن الزائر الغريب هرول هاربا وصندوق التحصيل تحت ابطه ، فلم يصبه الا بطرف الحذاء .

ولمح **جابيز ستون** يتحفز للنهوض مفيقا من اغمائه الطويل فقال :

دعنا نرى ماذا بقى فى **الابريق** .. فان الكلام طول الليل يجفف الحلوق ، وأرجو أن ننعم بفطيرة لذيذة فى طعام الصباح أيها الجار .

ومنذ ذلك اليوم يمر الشيطان **بمرشفيلد** ، فيزور عنها متجنبا ، ولم يشاهد بعدها يوما فى ولاية **همبشير الجديدة** ...
ولست أتكلم عن **مساشوست** أو **فرمون** .. !



المعاصرون العالميون

كتاب القصة الصغيرة العالميون كثيرون بين الامريكيين ، ولكن أشهرهم بين أبناء القرن العشرين ثلاثة ، كلهم ولدوا فيه أو قبله بنحو سنتين ، وكلهم يتناول بالقصة الصغيرة مسائل كبرى تعم بنى الانسان ، ولاتخص البيئة الامريكية عامة أو البيئة الامريكية فى أقليم من أقاليمها ٠

هؤلاء الثلاثة هم **فولكنر** المولود سنة ١٨٩٧ **وهمنجواى** المولود سنة ١٨٩٨ **وشتينبك** المولود سنة ١٩٠٢ ، فهم جميعا كما تقدم من ناشئة القرن العشرين ٠

***

ولد **وليام فرنسيس فولكنر** فى **أكسفورد** بولاية **مسيسبى** من ولايات الجنوب ونشأ فى أسرة زراعية خملت بعد نباهة وثراء ، فلم ينتظم فى التعليم ، وتغير اتجاهه بين الصناعات غير مرة في تعليمه الاول ، فلما نشبت الحرب العالمية الاولى تطوع فى فرقة الطيران الكندية ، ثم قاتل فى الميدان الفرنسى مع فرق الطيران الانجليزية ، ثم عاد الى وطنه بعد الحرب ، فحضر بعض الدروس فى الجامعة نحو سنتين ، وعمل كاتبا بمصلحة البريد من سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٢٤ ، نظم فى خلالهما الشعر ، وأصدر ديوانه الاول واتجه الى كتابة القصة ، فكانت قصصه الاولى سيرة محلية متتابعة تتمثل فيها أحوال الاسر المتداعية من زراع الجنوب ٠٠٠

وليس من الحق أن تنسب شهرة **فولكنر** الى سبب واحد ، أو الى أسباب عدة محلية من الاسباب التى تعنى أبناء الاقاليم الجنوبية دون سواهم ، فالواقع أن موضوعات **فولكنر** هى موضوعات القرن العشرين جميعا ، وان كانت بيئتها محصورة فى أقليم واحد ٠ فقد شغل القرن العشرون فى العالم بمشكلة العصبية العنصرية

وتفاوت الاقوام بحسب الاصول البشرية ، وشغل كذلك بمسألة الجنس ودراسة عوارضه من الوجهة النفسية ، وشغل بمسألة الجريمة وطبيعة الانسان أمام نوازع الفطرة ودواعى المجتمع ، وشغل بكيان الاسرة ومتاعب الثروة فى بيئات الزراعة والصناعة ، ومايلازم كل بيئة من ضرورات الاقتصاد والاجتماع ٠ وهذه الشواغل جميعا تعرض **لفولكنر** فى قصصه الصغيرة وملاحمه الكبيرة بغير قصد الى الدعاية أو لشرح المذاهب والآراء من طريق الحوار والتعليق ٠ فمزية **فولكنر** الكبرى أن مشكلة الحياة عنده « **انسانية** » ملازمة لطبع الانسان وكيانه ، فردا متشابها أو متقاربا فى كل مجتمع وكل حقبة ٠ وقد منحته لجنة نوبل جائزتها عن سنة ١٩٤٩ وقالت عن سبب اختصاصه بها انها تمنحها اياه «لقوته واستقلاله الفنى ٠٠٠» وقال هو فى خطابه الذى ألقاه عند تسليمه الجائزة ان « **العاطفة الانسانية** » هى مدار كل عمل باق من أعمال الفنون ٠

نشأ **فولكنر** شاعرا كمعظم أدباء الجنوب فى نشأتهم ، ثم اصطدم خياله بغاشية من اليأس، وراعته رذائل العيش وجرائمه، فصورها كما هى غير ملطفة بمس الرجاء أو مغالطة الفكر والشعور٠ الا أنه قد ثاب الى شىء من الثقة بالانسان ، كما يؤخذ من خطابه فى لجنة نوبل ،ومن مضامين كلامه فى« الصلاة على روح راهبته » ٠٠٠ وخلاصة ما ثاب اليه أن الانسان جدير أن يتغلب ، وليس قصاراه أن يصبر ويبقى ، وأنه يبلغ سلام الروح من طريق الألم والمحنة ، وجملة قوله « أننى أرفض أن أتقبل نهاية الانسان ٠٠ »

قال الكاتب الفرنسى **مارسل ايمه Aymé** فى فصل كتبه عما يراه القراء الفرنسيون فى **فولكنر** : فى هذا البلد ، حين يصف كاتب متدين مثل **مورياك** صورة الآلام الانسانية القانطة، ترى أن الابطال حل بهم البلاء لانهم لم تحضرهم بركة الله ،وأن الالوان أمامك قاتمة حالكة فى واقع الحياة ٠ ان الله على العموم غائب من تلك المشاهد فى رواياته ٠ أما فى قصص **فولكنر** فالأمر على خلاف ذلك ، كلما تجسمت القسوة والشناعة وسفك الدم فى تصوير أبطاله ، كان الشعور بوجود الله أمس وأدنى ٠٠ »

***

أما زميل **فولكنر** فى الشهرة العالمية ـ **أرنست ميلر همنجواى** ـ فقد ولد بولاية **الينواز** وتعلم بمدارسها ، وانتظم فى سلك التعليم الى الدراسة الجامعية ،واشترك فى الحرب العالمية الاولى

مع فرقة الاسعاف ، ومارس الصحافة وكتابة القصة الكبيرة والصغيرة ، وتطوع لتأييد الجمهورية فى حرب أسبانيا الاهلية ، ونال من التقدير ما لم ينله كاتب قط فى مثل سنه ، فكتب النقاد والمعجبون عنه المصنفات المطولة ، يعلقون بها على سيرته وأسلوبه وسمات فنه وموضوعات قصصه ٠٠ والراجح فى رأينا أن **همنجواى** يعجب قراءه ونقاده بقدوة شخصه فوق اعجابهم بجودة فنه ، وانه اتخذ فى حياته مثالا يقتدى به كل امرىء عالج أن يحل مشكلة الحياة بالفكر فلم يجد لها حلا حاسما يركن اليه بكل عقله وضميره ٠ وقد يقال عنه انه حل مشكلة الحياة بالرياضة الدائمة ٠٠ وهى عندى تشمل حركة النفس وحركة الجسد ومذاهب العرف والاخلاق ٠ فكن « **رياضيا** » فى سلوكك ولا عليك بعدها أن تهتدى بفكرك الى الحل الذى يبطل فيه الخلاف ، وخالف ان شئت من شئت ، ولكن كما يختلف الرياضيان ، فلا يتطلب أحدهما من نفسه أن يكون على الحق كله ، ولا يتهم خصمه انه يستأثر بالخطأ كله ٠٠ وليس معنى ذلك أن **همنجواى** لا يفكر ولا يستخدم فكره ، وانما معناه أنه يعتمد على الفكر فيما يمكن عمله ، وفيما يترجمه بفعله ، حركة أو عاطفة أو لعب اتراض به النفس على نشاطها ، ولا يجدى فى عرفه أن تتطلب من الفكر غاية وراء هذه الغاية ٠ وحياته كلها تطبيق لهذا المذهب ان صح فيه أنه مذهب يضاف الى المذاهب الفكرية ، فهو يخرج للصيد ويصارع الثيران ، ويطارد السباع فى أدغال أفريقية ، ويجوب البحار والسهوب ليتمرس بمصارعة العناصر ومصارعة الحيوان ، ويجعل عمله كله رياضة ، كما يجعل رياضته عملا حيثما استطاع ٠ وهذه خطة جرى عليها منذ شبابه ، ومكنته من الجرى عليها قوة الحيوية فى بنيته ، ثم كادت تصبح عنده « دينا » بعد أن تمرس بمشكلات الحياة ٠

ومما لاشك فيه أن أسلوبه الكتابى من أسباب الاقبال على مطالعته واستحسان فنه كيفما كان الموضوع ٠

ويأتى ثالث هذين نمطا مخالفا لكل منهما فى أدبه ووجهته وسيرة حياته ، فليست آفات النفس ورذائل المجتمع هم « **شتينبك** » وهجيراه فى قصصه **كفولكنر** ، ولا هو ممن يغرقون شكوكهم وقضاياهم العقلية فى دوامة من الحركة الرياضية

كهمنجواى ، ولكنه يكتب أحيانا ليصلح كما صنع بروايتيه «عناقيد الغضب والمعركة المريبة ، وكلتاهما كان لها أثر عاجل فى انصاف العمال المهاجرين **بكليفورنيا** ، ويكتب أحيانا ليثير الثائرة على طغيان الفتح والاستبداد كما صنع بروايته « القمر ينزل » التى حيا بها الامة النرويجية فى مقاومتها للسيطرة النازية .. وأبطاله كلهم أرضيون واقعيون تتساوى عنايته بهم على اختلاف الطبقات . وهو مع مساهمته فى تأييد بعض المذاهب ومقاومة بعضها لايذهب الى حد الاستغراق والحصر ، سواء كان من المناصرين أو المنكرين . وقد زار روسيا واصطحب معه مصورا خاصا لالتقاط المناظر والشخوص ، ثم كتب رحلته فلم تعجب أنصار المذاهب ذات اليمين ولا ذات اليسار ، وكتب فى ختامها يقول أن اليسارى يحسبها حملة على روسيا ، واليمينى ، يحسبها تشيعا لها وتعصبا على ماعداها ، ولابد أن يقال فيها شىء كهذا لانها سطحية . أما خلاصة القول فى الروسيين فهم ناس كسائر الناس ، بينهم أشرار ولاريب ، ولكن الطيبين من جمهرة الشعب أكثر من الاشرار .

وربما كان من أسباب القبول الذى يناله بين القراء أنه يروى الحسن كما يروى القبيح ، ويصور خشونة الحياة وفظاظتها كما يصور طيبها ورفاهتها ، ويحتفل ببلاغة التعبير أحيانا ، ويجنح به الى مسحة من الرمزية أحيانا أخرى . وقد يكون الاعجاب به وبزميليه علامة على وجهة واحدة فى تفكير قرائه واحاسيسهم ، فان الاعجاب بهم جميعا دليل على افلاس الدعوة الى مذهب واحد من المذاهب التى تحاول حل مشاكل المجتمع وتفسير ألغاز الحياة . **وشتينبك** على الخصوص يثبت الالغاز كما هى ويزينها بالجانب الفكاهى والجانب الساذج على الفطرة فى شخوص رواياته وابطال رحلاته ، ومنهم من يتكرر فى سلسلة من القصص الصغيرة ، كالصبى الفلاح **جودى** بألاعيبه وثرثرته وفضوله ، فيمثل للقارىء صورة من صور الناشئة الريفية يكاد يلتقى بها فى كل مكان .

ولد **چون ارنست شتينبك** **بكليفورنيا** سنة ١٩٠٢ ، وتعلم بجامعة **ستانفورد** على غير انتظام ، واستطاع بكتابته القصصية والصحفية ان يكون اقليميا وأمريكيا وعالميا فى وقت واحد

لانه نظر الى مسائله من زاوية العطف الانســانى ولم يقيدها بحدود الاقليم والســاعة ، وان كانت أزمات الكساد مدار حملة الاصلاح التى شغلته فى أكثر من رواية كبيرة وأكثر من قصـــة صغيرة .

وقد اشتهر فى العالم غير هؤلاء الثلاثة من الكتــاب الامريكيين طائفة كبيرة من الادباء ، ولـكن هؤلاء الثلاثة فى باب القصة الصغيرة « تشكيلة » كاملة تحيط بكل متجه ملحوظ فى العهد الاخير ، وهم الطرف الآخر الجدير بأن يقابل فى هذا العصر طرف الرواد والاقطاب من أمثال **ارفنج وبوومارك توين ودربزر** من أواسط القرن التاسـع عشر الى اوائل القرن العشرين .

وردة لأميلى

بقلم وليم فولكنر

A Rose For Emily

(١)

لما توفيت السيدة **اميلى** جريرســون خرج لتشييعها عامة أهل المدينة . قام الرجال بهذاالواجب بعامل المحبة والاحترام لذلك الاثر الذى طوته يد المنون. وتبعهم النســـاء غالبا بعامل الفضول لاستطلاع منزلها من الداخل ، ذلك المنزل الذى لم ير فيه أحد منذ عشر سنوات .. اللهم الا خادما عجوزا يجمع فى هذا البيت بين مهنة البستانى وعمل الطباخ .

كان منزلا كبير الاركان مربع البنيان يخيل اليك انه كان فيما مضى متألق الجنبات ، تزينـــه القباب والطنف ذوات الابراج على طراز القرن السابع عشر . وقد أقيم فى شارع كان يعد من أهم شوارع المدينة. الا أنه قد طغت عليه الآن حظائر الســيارات ومحالج القطن ، وعفت على كل مافيه ،حتى تلك العناوين الفخام التى كانت تحل فى ذلك الجوار.. ولم يبق غير منزل السيدة **اميلى** الذى ظل قائما على رغم البلى فى اصرار وعناد بين مركبات القطن ومضخات البترول : قذى بين أقذاء ...وهاهى السيدة **اميلى** قد رحلت من هذه الدار لتلحق بمن سلفوا من أصحـــاب تلك العناوين الفخام ، وهم رقود فى مقابرهم تحت أشجـار الصنوبر الساحرة ، حيث مثوى جنـــود الاتحــاد الامريكى الذين لاقوا حتفهم فى معركة **چيفرسون** ...

كانت العناية بالسيدة **اميلى** تقليدا وواجبا وضربا من الرعاية، وفرضا يتوارثه الناس فى المدينة منذ عهـد **الكولونيل سرتوريس** ذلك الحاكم الذى أصدر أمره ذات يوم عام ١٨٩٤ ألا تخـرج الى

الطريق امرأة من الزنوج بغـــير ميدعة ، وظــل يعفى أميلى من الضرائب ويصرف لها معاشا منذمات أبوها ، وماكان معنى هـذا أن السيدة اميلى تتقبل الصدقة .. كلا . بل كان **الكولونيــل سرتوريس** قد ابتدع قصةليفهم الناس أن والد السـيدة **أميلى** سبق فأقرض المدينةقرضا وانهاتختار هذه الطريقة لسداده ..
ولم يكن لينخدع بهذه القصـــةغير رجل من ذلك الجيل الذى عاش فيـه **الكولونيل سرتوريس**ولم يكن ليصدقها من النساءغير امرأة واحدة ...

فلما انصرم ذلك الجيل وجاءبعده جيـل له أفكاره وآراؤه ، وتغير الحـكام ومشايخ البلاد ،ظهر بعض التذمر من جراء هذا التدبير ، فأنفذ اليها رجال الادارةفى بدء الســنة اعلانا يطالبونها بالضرائب . وحل شهر فبرايرولم يظفروا منهـا بجواب . فأرسلوا اليها خطابا يستدعونهاالى مكتب الحاكم فى الوقت الذى يلائمها . فلما انقضى أسبوع كتب اليها الحاكم نفسه يطلب اليهـا الحضور لمقابلته ، فاذا لم تستطع وتعذر عليها الحضور فانه يرسل اليها مركبته . فجاءه ردها وهومكتوب بحبر باهت على ورقة قديمة ، وفحواه انهـا لم تعـدتستـطيع الحروج ، ثم أعادت الاعلان دون ان ترد على مافيه.

دعوا الى عقد اجتماع لشيوخ البلدة ، فانعقد وتقرر أن يذهب اليها مندوبون منهم، ..فلماطرقوابابها الذى لم يعبره قط احدمنذ انقطعت عن اعطاء دروسـها فى نقش الخزف قبل ثمانى اوعشر سنوات ، أدخلهم الزنجى الهرم الى ردهة مظلمة تفضى الى سلم يؤدى الى مكان أشـد ظلمة .. وكانت تتصـاعد هنالك رائحة الغبار والعفن ، ومن ثم قادهم الى قاعة الاســـتقبال ، وهى مفروشة بأثاث ثقيل مغطى بالجلد. فلمافتح الزنجى شراعة احدى النوافذ ظهر لهم مافى هذا الجلدمن التشقق ، فماكادوا يجلسون عليه حتى تصاعد عليهم التراب، وأخذت ذرات منه تطوف وسط الشـعاع الوحيد الذى بدا من النـافذة . ثم ظهر أمام الموقد صورة على حمالة مذهبة للسيدوالد **أميلى** .

فلما دخلت الســيدة **اميلى** نهضوا واقفين : سـيدة قصيرة ممتلئة فى ثياب الحداد ، تتدلى من عنقهـا سلسلة سميكة من

الذهب ، وتتوكأ على عصـــا من الابنوس متوجة برأس من الذهب ، وكان هيكل جسمها ضئيلا حتى ان ما نعد بدانة فى غيرها يعـــد افراطا فى السمن بالنسبة اليها . وقد بدا جسمها منتفخا كأنما ألقى زمنـــا طويلا فى ماء راكد ، وكان لونها شاحبا ، .. وعيناها الضائعتان فى غضون وجههـــا الممتلىء ، كقطعتـــين صغيرتين من الفحم ركبتا فى كتلة من العجين ، تتنقل بهما من وجه الى وجه ، وهم يشرحون لها رسالتهم التى أوفدوا لتبليغها ...

لم تدعهم الى الجلوس ولكنها وقفت بالباب واصغت فى هدوء الى أن انتهى متحدثهم من حديثه . وقد استطاعوا أن يتسمعوا دقات ســـاعتها وراء سلسلتها الذهبية .

قالت وفى صـــوتها جفاف وبرودة : ليس على ضرائب فى **جيفرســـون** ، بهـــذا أخبرنى **الكولونيل سرتوريس** ، ولعـــل أحدكم يرجع الى سجلات المدينة ، ويقنعكم بما يجده هنالك .

ـ ولكننا فعلنـــا . ونحن السلطة التنفيذية فى المدينـــة ياسيدة **اميلى** .. ألم يصل اليك اعلان بذلك من الحـــاكم موقع عليه بخاتمه ؟

قالت السيدة **اميلى** : أجل لقـــد تسلمت ورقة ممن يعتبر نفسه الحاكم ... ومع ذلك ليس على ضرائب فى جيفرسون !

ـ ولـــكن ليس فى ســـجلاتنا ما يدل على ذلك كمـــا ترين . ويجب ان نذهب الى ...

ـ ليس على ضرائب فى **جيفرسون** ، ويمكنكم أن تسألوا فى هذا كولونيل سرتوريس !

ـ ولكن ياسيدتى **اميلى** ، ان **كولونيل سرتوريس** قضى نحبه منذ عشر سنوات !

ـ ليس على ضرائب فى **جيفرســـون** على كل حال ! ثم ظهر الزنجى فأومأت اليـــه أن تقدم هؤلاء السادة الى الباب

(٢)

وهكذا تغلبت عليهم بخيلهم ورجلهم كما تغلبت على آبائهم منذ ثلاثين سنة فى امر الرائحة، بعد موت أبيهـا بعامين وبعد انهجرها حبيبها بأيام قليلة .. وكنا نعتقد جميعا انه سيتزوجها

لقد كانت بعد موت ابيها لاتغادر منزلها الا فى القليل النادر، وقل ان رآها احد بعد ان رحل عنهـا عشيقها . فـكان بعض السيدات يجـازفن ويعربن عن رغبتهن فى زيارتهـا ، فلم يكن يسمح لهن بالمقابلة . وقد خلا هـذا المنزل من كل علامة من علامات الحياة ، الا ذلك الزنجي الذى كان شابا صغيرا فى ذلك الوقت ، يدخل ويخرج وفى يده سلة السوق .

كانت السيدات فى دهشة حينما انتشرت هـذه الرائحة الكريهة من بيتها ، وكثيرا ماقلن : ان اى رجل يستطيع ان يقوم بتنظيف المطبخ ، وهـكذا كانت تلك الرائحة حلقة اتصـال بين الدنيا الصاخبة اللاغبة وبين الاعزاء من آل **ﭽيرارسون** .

وشكت سيدة من الجيران الى القـاضى **ستيفنسون** حاكم المدينة ـ شيخ فى الثمانين ـ فقال لها : « وماذا تريدين ان افعل يا سيدتى ؟ »

قالت السيدة : تأمرها ان تزيل هـذه الرائحة . أليس ثمة قانون ؟

قال القاضى : لا ضرورة لذلك فيما أرى، ولعله ثعبان أو جرذ قتله الزنجي وتركه فى الفناء . وسأخاطبه فى ذلك .

وفى اليوم التالى تلقى شكويين أخريين احـداهما من رجل جاء يسترحم وهو متردد ، وقال : « حقا اننا يجب ان نعمل شيئا فى هذه الرائحة يا سيدى القـاضى »

فأجابه اننى آخر انسـان فى العـالم يقـدم على ازعاج السيدة **أميلى** ، الا أننا نستطيع أن نعمل شيئا ..

واجتمعت فى تلك الليلة هيئة ـ شيوخ المدينة ـ وهم ثلاثة من ذوى اللحى البيضاء ، ورجل اقل سنا ممن ينتمون الى الجيل الجديد .

قال : من السهل علينا ان نرسل اليها امرا اداريا بأن تنظف

منزلها ونعين لها وقتا لتنفيذ ذلك ، والا . .

وقال القاضي : « بئس ذلك الرأى يا سيدى .. ايجوز أن نخاطب سيدة ونواجهها بتهمة الرائحة الكريهة ؟ »

وفى الليلة التالية اقتحم اربعة من الرجال عند منتصف الليل حديقة السيدة **اميلى** وانسلوا الى داخل المنزل كاللصوص ، يتشممون الرائحة فى الطرق والممرات ، ومن النوافذ المطلة على مخازن الطعام ، وأحدهم يبذر مادة مطهرة من حقيبة معلقة على كتفه ، وانطلقوا الى باب المخزن فرشوا به مقدارا من الجير وكذلك صنعوا بسائر مبانى المنزل من الخارج . وقد ظهر بصيص من النور من نافذة كانت مظلمة ، وبدت وراءها السيدة **اميلى** ماثلة كالدمية بغير حراك وانسلوا من الحديقة بهدوء الى ظلال شجر الخروب المصطف على طول الطريق ، وقد اختفت الرائحة بعد اسبوع او اثنين .

كان هذا والناس يأسون لحالها فى الحقيقة . ويذكر اهل بلدتنا كيف جنت خالتها السيدة **ديات** . وكانت تعتقد ان آل **جيرارسون** يترفعون كثيرا لما كانوا عليه من سمو المكانة ، وان احدا من الشباب لا يستحق ان ينال يد السيدة **أميلى** وأمثالها . وكنا منذ زمن نراهم فى لوحة مصورة تبدو فيها السيدة **اميلى** رشيقة القد الى جانب أبيها ، وهو شيخ ضامر قد استظهره اليها وحمل فى يده سوطا ، وكأنما الباب من خلفهما اطار لتلك الصورة ، ولكننا جعلنا نقول فى انفسنا : انها حتى مع الجنون الوراثى فى الاسرة ما كانت لتوصد الباب فى وجه كل فرحة لو أتيح لها أن تتمها !

فلما مات ابوها وجدت انه لم يبق لديها غير المنزل ، وارتاح الناس شيئا ما الى هذا المصير ، ولكنهم استطاعوا ان يشعروا نحوها بالشفقة اذ كانت قد تخلفت وحيدة معوزة ، فاصطبغت عندهم بالصبغة الانسانية . . انها الآن تهتم بسحتوت يزيد أو سحتوت ينقص ، شأنها فى ذلك شأن سائر الناس من المكدودين والفقراء .

وفى اليوم التالى تهيأ جميع السيدات للذهاب الى المنزل لتقديم عزائهن ومعونتهن جريا على العرف والعادة . فاستقبلتهن السيدة **اميلى** على الباب بملابسها اليومية ، وليس على وجهها

أثر من امارات الحزن . وقالت لهن ان أباها لم يمت ، وظلت على ذلك ثلاثة ايام لم ينقطع فى خلالها وفود القساوسة والاطباء يحاولون اقناعها بوجوب التصرف فى الجثة . وانهم ليهمون باللجوء الى سلطان القانون واستخدام القوة اذا هى تتراجع ، وتأذن لهم أن يدفنوا أباها على عجل !

ولم نقل آنئذ انها مجنونة ، بل اعتقدنا انها خليقة ان تصنع ذلك اذ كنا نذكر كل اولئك الفتيان الذين طردهم ابوها وعرفنا انها وقد صفرت يداها من كل شىء ستعلق بذلك الخطيب الذى غرر بها كما يفعل سائر الناس .

(٣)

مرضت برهة ، فلما رأيناها بعد ذلك اذا هى قد قصت شعرها وعقصته على زى الفتيات الصغيرات ، متشبهة بسمات الملائكة المرتسمة على نوافذ الكنائس الملونة ، يجللها الحزن والوقار .

وكانت المدينة قد اتمت الاتفاق على رصف الطرق ، وقد بدىء العمل فى الصيف بعد موت ابيها . وجاءت شركة المقاول الذى قام بهذا العمل بالزنوج والبغال والآلات البخارية ، على رأسهم رجل يدعى **هومر بارون** : رجل ضخم الجسم اسمر البشرة غليظ الصوت عيناه سمراوان اخف من سمرة وجهه ، وكان صغار الصبيان يتوافدون زرافات ليروه وهو يسوق الزنوج وينهرهم ، وهم يغنون مع حركة المعاول صاعدة هابطة !

وسرعان ما تعرف الى الناس فى المدينة . وحيثما سمعت الضحكات تجلجل متتابعة فى الحى ، فهى ضحكات **هومر بارون** بين رفاقه . ثم اصبحنا فاذا بنا نراه والسيدة **اميلى** يخرجان فى نزهات الاصائل ايام الاحد تسير بهما مركبة خفيفة ذات دواليب صفراء تجرها الجياد !

عمنا الفرح بادىء الامر لان السيدة **اميلى** قد ظفرت بشىء من التسلية ، وقال سائر الناس : « ان سيدة من آل **جيرارسون** بطبيعة الحال لن تفكر تفكيرا جديا فى رجل شمالى يعمل بقوت

يومه» ، الا أن أناسا ممن هم أكبر سنا كانوا يقولون : « ان الحزن لا يصح ان يجعل سيدة تنسى الكرامة والعرف وتتجاهلهما » ! وينتهى بهم القول الى ان السيدة **أميلى** يجب أن يزورها أقرباؤها، فان لها اقرباء فى ((**الباما**)) قد قاطعهم ابوها من جراء ضيعة السيدة **ديات** ــ تلك المرأة المجنونة ــ فلم يعد ثمة اتصال بين العائلتين حتى انهم لم يحضروا جنازته ...

وما يكاد الرجال المتقدمون فى السن ينظرون اليها ويقولون : « يا للمسكينة **اميلى** ! ! » حتى يتهامسوا ويقولوا : « أتظنونها كذلك ؟ لاشك انها كذلك . وماذا تكون غير ذلك ؟

ولا يفتأون يقولون : « يا للمسكينة **اميلى** ! ! » وهم فيما كانوا فيه ، وحفيف الديباج المخمل المقصب خلف الستائر المغلقة التى تحجب شمس الاصيل يوم الاحد ، والركب يجد، وحوافر الخيل تدوى فى الطريق : يا للمسكينة **اميلى** ! !

ذلك وهى لا ترى الا رافعة الرأس حتى فى حين كنا نرثى لحالها ، كأنما تتقاضى الناس فوق ما تعودت ان تتقاضاه من قبل ــ كرامة تجدر بسلالة آل **جيرارسون** .. كذلك كانت ترى حين اشترت سم الزرنيخ ، وكذلك بعد ان مضى عام وهم يقولون : «يا للمسكينة **اميلى** !!» وفى زيارتها يومئذ اثنان من اولاد عمومتها .

قالت للصيدلى : « اريد سما » ، وكانت اذ ذاك قد جاوزت الثلاثين : هيفاء انحف من المألوف، لها عينان سوداوان متكبرتان فى وجه مشدود البشرة ، كأنما تانك العينان قد ركبتا فيه على مثال العيون التى تلمحها فى وجوه حراس المنارات ...

ــ قالت : أريد سما ...

ــ اجل يا سيدتى **اميلى** . واى نوع تريدين ؟ ألأجل الفئران وما شاكلها ؟ اننى محضره اليك .

ــ اريد احسن ما لديك . ولاأسال عن النوع .

واخذ الصيدلى يعدد لها اسماء شتى .. ان هذه الاصناف تقتل ما تشائين وان كان فيلا . . . ولكن ما هو النوع الذى تريدين ؟

قالت السيدة **أميلى** الزرنيخ ،أليس هذا نوعا جيدا ؟ :

ـ **الزرنيخ** ؟ اجل يا سيدتى ، ولكن ماذا تصنعين به ؟

ـ اريد زرنيخا !

وأخذ الصيدلى ينظر اليها وهى تنظر اليـــه وقد نصت اليه وجهها كالعلم ، فقال :

اذا كان هذا طلبك فان القانون يفرض علينا أن نسألك ماذا تصنعين به ؟

ولم تزد السيدة اميلى على أن نظرت اليــه محملقــة . وأمالت رأسها كأنها تريد أن تتمـكن من مواجهتــه عينا لعيـن ، حتى مال بنظره عنهـا ومضى فى احضـارالزرنيخ ، ثم أرسله اليهــا مع الزنجى الذى يوزع الطلبـات على أصحاب المنازل .

ولمـا فتحت الورقة التى لف فيهـا السم وجـدت مكتوبا على الصندوق تحت عـلامة الجمجمـة والعظام « سم فيران » .

قلنا بعـد يوم انهـا تريد أن تبخع نفسها ، وخيرا ماتفعل .. اننا كنا نقول حينما رأيناها أول مرة مـع **هومر بارون** انهـــا ستتزوجه » ثم قلنا « انها تحاول أن تقنعه لان **هومر** نفســـه قد صرح بأنه لايهوى النساء ، وكان معروفا عنـه أنه ينـادم صغار الشبان فى « نادى الوعل » ، ثم عدنا فقلنا : « يا للمسكينة **أميلى**!» وهى تمـر خلف الســتائر فى المركبة اللامعة عصر يوم الاحد . وكانت السيدة **اميلى** رافعة الرأس **وهومر بارون** يضـع على رأســه قبعة عالية وفى فمــه سيجار ،والعنـــان والســوط فى يديه ، يغطيهما قفاز أصفر .

أخذ النساء يقلن : « هذا عار على المدينة ومثل سيىء لشبابها . أما الرجال فلم يشاءوا أن يتعرضوا للامر . الا أن النســاء قد أرغمن القسيس على أن يستدعيها اليه ،لان أسرة السيدة **أميلى** كانت من أتباع الـكنيسة الرسولية ،فاستدعاها ، ولم يشأ أن يفضى بشىء مما دار بينه وبينها ، ولكنه رفض مفاتحتها مرة أخرى .فلما جاء يوم الاحد التـالى خرجا فى المركبة وطافا فى شوارع المدينة ، فكتبت زوجة القس غـداة ذلك اليوم الى أسرة السيدة **اميلى فى الباما** .

هكذا رأينا اقرباءها يعدن الى المنزل مرة ثانية ،وتريثنا لنعرف ماذا سيكون . فلم يحدث شيء ما بادىء الامر . ثم كنا على يقين بأنهما سيتزوجان لامحالة، وقدعرفنا ان السيدة **اميلى** كانت قد ذهبت الى بائع الجواهر وطلبت بعض ادوات الزينة الفضية من لوازم الرجال ، وعلى كل قطعة منها حرفا هـ . ب . ثم اشترت بعد يومين جهازا كاملا من ملابس الرجال ومنها قميص للنوم ،وقلنا حينئذ: «لابد انه قد تم زواجهما» ، وكنـــا مسرورين بذلك فعـلا . لان ابنتى عمهـا كانتا احرص منها على رعاية العرف والسمعة ، ولم ندهش حينمـا رحل **هومر بارون** من المدينة على اثر فراغه من رصف الشوارع . وخاب ما كنا ننتظره من ثوران زوبعة القيل والقال بالبلدة . الا اننا اعتقدنا انه انما ذهب ليستعد لاستقبال الســـيدة **أميلى** أو ليعطيها فرصة تتخلص فيها من ابنتى عمها (وكان هنـــاك تآمر بينهما على الســيدة **اميلى** التى كنا نناصرها جميعا) ، ثم تأكدنا فيما بعد أنهن غادرن منزلها بعد ان قضين به اسبوعا آخر .

قفل الى المدينة **هومر بارون** كما كنا نتوقع بعد ثلاثة أيام ، وابصره احـد الجيران وراء الزنجى يقــوده من باب المطبخ فى غبش المساء .

ثم كان آخر عهدنا **بهومر بارون** وكذلك بالسيدة **اميلى** فترة من الزمن كان الزنجى يدخــل خلالها ويخرج من المنزل والباب مغلق من آن لآخــر ، ومن آن لآخر كنا نراها تقف لحظـــة فى النافذة كما فعلت عنـــدما كان الرجال يلقون الجير .. ولقـــد ظلت ستة اشهر محتجبة لاتظهر فى المدينة . وكان هذا هو المنتظر كأنما كانت خصلة ابيهـــا التى عطلت حياتها الانثوية وراثة اقوى من ان تموت فى جوانح سليلته ... !

فلما وقع نظرنا على السيدة **اميلى** اول مرة بعـــد ذلك كانت قد سمنت وشاب شعرها ، وازداد الشيب مع السنين حتى صار كما يقولون فى لون الملح والفلفل وثبت على ذلك .

وحتى وهى فى الرابعـــة والسبعين من عمرها عندما وافاها الاجل كان شعرها قويا حديدى اللون اشــبه ما يكون بشعر الرجال الاشداء .. !

ومنذ تلك الآونة لبث الباب الامامى مغلقا الاخلال أيام ستة أو سبعة

لايرى مفتوحا ، الا فترة من الزمن حين بلغت الاربعين ، وقد كانت في تلك الايام تعطى دروسها فى نقش الخزف وتتخذ لها مرسما في حجرة من حجرات الدور الارضى حيث كانت بنات الخاصة من كريمات **جيل** الحاكم وحفيداته يزرنها بانتظام فى المواعيد التى كن يراعينها فى زيارة الكنيسة ايام الآحاد ومعهن قطعة من ذوات ربع الريال لطبق الهدايا .. وظلت الى ذلك الحين معفاة من الضريبة ..

وتولى الجيل الجديد شئون البلدة ، ونما التلميذات وكبرن ، فانقطعن عن الدروس ولم يخلفهن أحد من أطفالهن ليذهب اليها بصناديق الالوان ، وريشات التصوير والرسوم المقصوصة من مجلات السيدات ، وهكذا أغلق بابها على آخر تلميذة من تلميذاتها ، وظل مغلقا وهى لاتسمح لرجال البريد أن يضعوا على بابها لوحاتهم المعدنية وصناديقهم التى يودعونها مايحملون من الخطابات .

وكنا نرقب الزنجى يوما بعد يوم ، وشهرا بعد شهر ، وعاما بعد عام ، وهو يزداد شيبا وانحناء ، ولا يزال يقبل ويدبر بسلة السوق ..

وفى كل شهر من شهور ديسمبر كنا نرسل اليها اعلانا نطالبها فيه بالضرائب فيرد بعد أسبوع بغير جواب . وكنا نراها من آن لآخر مطلة من احدى النوافذ بالدور الارضى ، فقد كان الدور العلوى مغلقا على الدوام ــ وكأنما هى وثن مكب فى محراب . ولا نكاد ندرى هل كانت تنظر الينا أو لا . وهكذا عاشت من جيل الى جيل عزيزة شكسة مستقرة .

ثم ماتت بعد أن دهمها المرض فى منزل يعلوه التراب وتعمره الاشباح ، ولم يكن ليشهد وفاتها غير هذا الزنجى . ونحن لانعلم بمرضها ولا نسأل الزنجى شيئا من أخبارها لانه لايكلم أحدا ، ومن المحتمل انه كان لايكلمها .. وقد غلظ صوته وصدىء من الاهمال وقلة الاستعمال .

ماتت السيدة **اميلى** فى حجرة من الحجرات الارضية على سرير من الخشب الثقيل ، مطروحا عليها ستار ، ورأسها الابيض ملقى فوق وسادة صفراء قد تعفنت من القدم والظلام .

قابل الزنجى أول وفود السيدات على باب المنزل ، وأدخلهن وهن

يتهامسن وينظرن نظرات خاطفة ملؤها الفضــول . وكان يسير قدما داخل المنزل وخارجه ، ثم اختفى ولم يره أحد بعد ذلك .. وحضرت ابنتا عمهـا على الاثر . وأقامتا الجنازة فى اليوم التالى . وحضر أهــل المدينة لينظـروا السـيدة **اميلى** فى مرقدها الاخير تحت باقات الازهار ، وقد أطل على النعش وجه أبيهـا من صورته المـائلة هنالك يتأمله فى عمق وأناة ، والنســاء يولولن فى ذعر وأسى . وبدا الرجال الذين قـد تقدمت بهم السن ، على سدة الباب وفى طرقات الحديقة ، بعضهم يلبس الرداء الرسمى وبعضهم بغيره ، وهم يتحدثون عن السـيدة **اميلى** كما لو كانت معاصرة لهم ، وربما قال بعضهم انهم راقصوها ، وهم يخلطون بين الزمن وسياقه الحسابى كما يفعل الشيوخ عادة ، اذ يخيل اليهم أن هذا الزمن مرج طويل لايعفو أبدا ولا يمسه الشتاء ، وانما يفصل بينه وبينهم مدى السنوات العشر الاخيرات .

ونمـا الى علمنـــا أن بالدور العلوى حجرة لم يرها أحد منـذ أربعين سنة ، وان هــذه الحجرة يجب أن تقتحم . وقــد تريث القوم حتى دفنت السيدة **اميلى** وتولوا فتحها .

كان اقتحام الباب كفيلا بانتشار التــراب فى كل جانب ، وقد بدا كل مافى هذه الحجرة المؤثثة بجهاز العرائس ، وكأنما عليــه غطاء كثيف من أغطية النعوش : هنا وهناك ستائر مهيـأة للزفاف ناصعة اللون ، ومناضد مغطاة ، وأوان بللورية وأدوات الزينة من لوازم الرجال .. تغيرت جميعـا حتى امحت حروف الاسم المرقوم عليها ، وعلاها كلها الغبار ، وران عليها ظل كظل القبور .. وبينها جميعا طوق وقلادة كأنما خلعـا أخيرا ، متروكين على التراب .. ووضعت البدلة على كرسى مطوية معنيا بطيهـا ، وتحتها الحـذاء والجوارب .. أما الرجـل نفســه فراقد على الفراش !

***

وقفنـا هنيهـة ننظر الى ذلك الوجه المكشر عن أسنانه معروقا على جسم كان كأنما يتهيأ للعناق .. ولكن خانه ذلك النوم الطويل الذى يبـقى حــين يذهب الحب ويطغى حتى على ملامح الهـوى ، ويخالس فراش الغـرام ، وقـد تعفنت البقيـة البــاقية من ذلك الحطــام تحت ماتبقى من قميص النوم ، واختلطت بالفراش الذى

يرقد فيه . واستقر على الوسادةالى جواره دثار من ذلك التراب الساكن الصبور .

ثم لمحنـا على الوسـادة رأسا منخوبا ، فأقامه أحدنا ورفعه الى الامام ،وقد غشاه ذلك التراب الهزيل الذى تجمدفى خياشيمه. فوجـدنا خيطا طويلا من الشـعرالابيض الحـديدى اللون ـ شعر **اميلى ..!**

زعيم الشعب

بقلم شتاينبك

عصر يوم السبت ، وقف **بللي بك** راعى المزرعة يلقي بقية الدريس الذى تخلف من السنة الماضية على سور المزرعة فتتلقفها بعض الماشية المتلهفة ، وتنعقد فى الافق الادنى سحائب من الغبار كأنها طلقات المدفع ، تسوقها نحو الشرق رياح شهر مارس .

وكان يسمع حفيف الرياح في أعالى الاشجار ، وقلما كانت نسمة منها تصل الى بطون المزرعة ومنحدراتها . وخرج **جودى** الصغير من الدار وفى يده قطعة غليظة من الخبز والزبد يقضمها . وقع نظره على **بللى** وهو يلقى بمجرافه بقايا العشب المتراكم ، فنزل يخبط بحذائه فى طريق طالما حذروه من تلف الحذاء اذا سار عليه .

وبينا يمر بشجرة السرو انطلق منها سرب من الحمام الابيض ، ثم عاد فهبط عليها مرة ثانية . ووثبت من نافذة الكوخ قطة صغيرة فى مثل ظهر السلحفاة ، وهى تجرى على ساقيها الصلبتين وتلتوى وتنثنى ثم تجرى ، فالتقط **جودى** حجرا وهم أن يقذفها به ، ولكنها أجفلت قبل أن ينطلق الحجر من يده ، فألقاه على شجرة السرو ، فانطلقت منها الحمائم البيض ثم حلقت وعادت الى مكانها كما فعلت أول مرة .

ووقف راعى المزرعة ، وهو رجل كهل ، فغرس مجرافه فى الارض ، ورفع قبعته ثم مسح بيده على شعره وقال : لم يبق من هذا الدريس شىء لم تبلله الانداء . ثم عاد فوضع قبعته على رأسه ومسح يديه الجامدتين احداهما بالاخرى .

قال **جودى** : يبدو أن وراء هذا الدريس كثيرا من الجرذان ..

قال **بللى** : ان لوسى تزحف معها دائما حيث سارت .

- ربما دعوت الكلاب وتصيدت هـذه الجرذان ، بعد أن تزيل كل ماهنا لك ..

قال **بللى** : يقينـا تستطيع ذلك ..

وحمل مجرافا من الدريس المبـلل وذراه فى الهـواء ، ولم تلبث أن وثبت معهـا جرذان ثلاثة . ثم اختفت تحت الدريس بسرعـة .. وتنفس **جودى** فى ثقة وقال : هذه الجرذان السمينة المكتظة كانت مختفية فى مكمنها تحت الدريس ثمـانية أشهر ، تنمو وتتكاثر وهى فى حصن منيع من القطط ومن المصائد ومن السم ومن **جودى** كـذلك ! وقد اكتست لحمـا واكتنزت شحما ، وازدادت عظما وهى فى مأمنها . والآن أزفت ساعتها . فلا نجاة لها بعد اليوم .

وألقى **بللى** نظرة الى التـلال التى تحيط بالمزرعة وقال : قبل أن تقدم على شىء يجب أن تستأذن أباك ..

- أين هو الآن ؟

- لقد ركب بعد تناول الغداء وذهب الى أطـراف المزرعـة ، وسرعان مايعود .

قال **جـودى** ، وقـد وثب الى الارض : لا أظنـه يأبه لشىء من هذا .

قال **بللى** منـذرا وهو يعـاود عمله : يحسن أن تسأله على أى حال ، أنت لاتجهل أطواره .

ان **جودى** ولا شك يعرف تلك الاطوار ، فان والده **كارل تفلن** يصر على استئـذانه فى كل مايجرى فى المزرعة ، عظم أو صغر ، قل أو كثر .

ولم يلبث **جودى** أن هبط على العمود الذى كان يستـند اليـه حتى تربع على الارض ، ورفـع بصره الى قطـع السـحاب التى تسوقها الرياح ، وقال : أترى فى الجو مطرا **يابللى** ؟

- قد يكون .. ان هذه الرياح تنبىء به ، وان لم تـكن من القوة بحيث تعجل بسقوطه .

– أجـل ٠٠ أرجو ألا تمطرحتى أقضى على هـــذه الجرذان اللعينة ٠

وألقى من وراء كتفيـــه نظرة ليرى وقع حديثه ، الا أن **بللى** ظل منهمكا فى عمله ، ولم يجبه ٠

ونكص **جودى** ملتفتـا الى جانب الرابية حيث ينحدر الطريق ، وقد غمرتها أضواء شمس مارس الخافتة ٠ وبدت زاهيـــة من بين أغصان الريحان رءوس العوسـج الفضـيـة ، وقد أينعت زهرات الترمس الزرقاء وبعض شجيرات الخشـــخاش ، وظهر فى عرض الطريق الى جانب الرابيــة كلبه الاسود « **دبل ترى ٠ مت** » يحفر برجليه جحر **سنجاب** فتتناثر الاوحال من بين ساقيــه ، وكأنه لايعرف أن الكلب لايستطيع أبدا أن يتصيد السنجاب فى جحره ٠

وبينما **جودى** يترقب الـكلب الاســود اذا به يراه قد ثبت فى مكانه وانصرف عن الجحـــر وقد ألقى نظرة الى الرابية حيث يمتد الطريق ، فرفع **جودى** بصره كذلك فلمح بعد لحظة خلال السماء الشاحبة « **كارل تفلن** » ممتطيـا جواده ، منحدرا نحو الطريق الذى يؤدى الى المنزل ٠ وكان يحمل فى يده شيئا أبيض ٠

وانتصب **جودى** واقفا على قدميه وصاح : هذا خطاب ٠٠ ودلف مسرعا نحو البيت ، علّ الخطاب يتلى أمامه فيسمع مافيه ٠

وصل الى المنزل قبل أن يصل اليه أبوه ، ثم دخل وسمع كارل وهو يترجل ويربت جواده ليصرفه الى حيث يتلقاه **بللى** ويخلع عنه أدواته ويعيده الى حظيرته!

جـرى **جودى** الى المطبـخ صائحا : ورد الينا خطاب !
فرفعت أمه رأسها من قدر الفول وقالت : مع من ؟

– مع أبى ٠٠ رأيته فى يده ٠

ودخل **كارل** الى المطبخ فسألته أم **جـودى** : ممـن الخطـاب **ياكارل ؟**

قال مقطبـا : من أين علمت بالخطاب ؟

فأومأت برأسها نحو الوالد :لقد أخبـرنى **جـودى** الذى يزج بأنفه فى كل شىء ٠٠

واضطرب **جودى** . اذ التفت أبوه اليه مشمئزا وهو يقول :

انه فضـــولى ثرثارة ٠ انه يهتم بأمر كل انسان الا أمر نفســه ، ويزج بأنفه الكبير فى كل شىء !

ولان صوت السيدة **تفلن** وهى تقول : لابأس انه لايجد مايشغله دائما٠٠ ومن عند من هذا الخطاب؟

قال **كارل** وهو لايزال مقطبا ملتفتا نحو **جودى** : سوف أطيل شغله اذا لم يقلع عن هذه الافاعيل ٠

ثم أبرز خطابا مغلفا ٠

ـ أظنه من عند أبيك

فأخرجت السـيدة **تفلن** دبوسا من رأسها وفتحت الغلاف ٠

وقد أبصر **جودى** عينيها وهى تجول بين السـطور ، وأخـذت تلخص مافيه :

يقول أنه سيبرح الينا يوم السبت ليمكث بيننا بضعة أيام؟ « كيف ذلك ونحن فى يوم السبت ؟ لاشك أن الخطاب قدتأخر !! »

وأقبلت تتفحص خاتم البريد فقالت : لقد أرسل أول أمس، وكان يجب أن يكون هنا أمس . ثم التفتت نحو زوجهـا تستفسر متجهمة ، وقد اكفهـر وجههـا غضبا ، اذ قالت . مابالك مقطبا ؟ انه لايزورنا الا لمـاما !

فأشاح **كارل** محـولا ناظره عن وجههـا المغضب .. فهـو يستطيع أن يشتد معها فى غالب الاحيـان ، الا أنه لايقـدر على مواجهتها حين يتملكها الغضب.

وعادت تصيح به : ما ذا أصابك ؟

قال متلعثما ، وكان فى تعليله شىء من الاعتـذار قد يجـدر بجودى بعض الاحيان : انه كثير الكلام ، كثير الكلام ٠٠

ـ وماذا فى هذا الكلام ؟ انك أنت كذلك كثير الكلام !

ـ أنا ولا شك أكثر من الكلام أحيانا ، ولكن أباك يتحدث عن شىء واحد لايعدوه !

وصاح **جودى** متوفزا : الهنود الحمر واجتياز السهول !

فانتهره **كارل** في عنف وصاح به : أخرج أيهـا الفضولى ٠٠٠ أغرب عن وجهى ؟

فانصرف **جودى** من الباب الخلفى وأمارات الكآبة ترتسم على محياه . وأغلق وراءه المزلاج حريصا على الهدوء ، ووقعت عيناه الخجلتان على حجر يلفت النظر ، فانحنى والتقطه ، وجعل يقلبه وهو يسمع الحديث جليا من نافذة المطبخ المفتوحة ، فاذا بأبيه يقول : ولكن **جودى** لم يعد الحقيقة . ان أباك لا يعرف الا حكاية الهنود واقتحام السهول . سمعت منه قصة الخيول العاديات آلاف المرات ، يعيد فيها ويبدى ولا يغير حرفا مما يحكيه .

قالت السيدة **تفلن** مغيرة لهجتها ترد عليه ، حتى لم يتمالك **جودى** أن رفع بصره عن الحجر الذى كان يتأمله تحت النافذة ، وكانت نبرات صوتها نبرات من يوضح ويلتمس المعاذير ، وان **جودى** ليعرف كيف تتغير ملامحها وهى تحاول الاقناع :

أنظر الى عادات أبى من حيث تنظر **ياكارل** . فقد كان ذاك هو الامر الجلل فى حياته ، وهو أنه كان يقود القافلة ويجتاز بها السهول نحو الشاطىء . ان حياته لتنتهى بانتهائه من هذا العمل ، وانه لعمل عظيم وان لم يطل ..

قالت وهى توالى حديثها : تأمل كأنه خلق ليقوم بهذا العمل . واذا انتهى منه لم يبق أمامه الا التفكير فيه والتحدث عنه . ولو بقى أمامه مكان يتقدم فيه نحو الغرب لتقدم . لقد طالما سمعته يقول ذلك ، الا أنه وجد أمامه البحر المحيط فى النهاية ، وهو يعيش الآن الى جانب المحيط ــ المكان الذى وقف عنده ..

قالت هذا ، وكأنها أسرت **كارل** واستحوذت عليه بصوتها الرقيق!

فقال مصدقا هادئا : انى رأيته .. رأيته يهبط فيلقى بنظرة الى الغرب نحو المحيط ، ثم يذهب الى نادى « حدوة الفرس » فى غيضة المحيط الهادىء ويظل يتحدث عن الهنود وكيف كانوا يسوقون الخيل ..

ثم أخذ صوته يرتفع قليلا ..

وحاولت أن تلفه وتعتقله بلهجتها مرة أخرى فقالت :

ــ ان هذا كل شىء لديه . ولعلك تصطنع معه قليلا من الصبر ، وتظهر بالاصغاء الى حديثه ..

ولكن **كارل** أعرض بوجهه متململا وقال :

على أية حال ان زاد الامر عن الطاقة ذهبت الى حجرتى فى فى المزرعة ، وجلست مع **بللى** هنا لك ..

ثم خرج من المنزل وأغلق وراءه الباب ..

أما **جودى** فقد راح يزاول هوايته ، ويضع الحبوب لصغار الدجاج ولا يطاردها ، ويجمع البيض من الاوكار ، ثم انطلق الى المنزل ووضع فى الصندوق حزمة من الخشب ، بالغ فى تشبيكها حتى ملأه بوسق ذراعين ، وانتهت أمه من المطبخ ، وقلبت النار ، ثم مسحت الموقد بريشة من ريش الدجاج . وأحدق **جودى** بنظره نحوها ليرى هل هناك ما يعوقه، ثم سأل : هل سيحضر اليوم ؟

ـ هذا ما يقوله فى خطابه ..

ـ أليس من اللائق أن أذهب لاستقباله فى عرض الطريق ؟

قالت السيدة **تفلن** وقد وضعت غطاء القدر : يحسن بك ذلك ، فقد يسره أن يجد أحدا فى استقباله ..

ـ اذن سأذهب للقائه ..

وانطلق **جودى** يدعو الكلاب ويصفر لها فى سرور وابتهاج : هلمى الى الربوة .. فرفع الكلبان ذنباهما وجريا الى عرض الطريق، واقتطف **جودى** أزاهير من الريحان الفضى الذى ازدانت به جوانبه ، وربطها فى يده ، فانتشر أريجها فى الفضاء . واندفع الكلبان يقفزان وهما يعبران الطريق وراء أرنب برى، ثم اختفيا عن جودى ، وعادا أدراجهما نحو المنزل بعد أن اقتنصا الارنب !

وأخذ **جودى** يعدو ويجد السير فوق المرتفعات حتى وصل الى المنحنى الذى يؤدى الى الطريق. وكان هواء الاصيل يداعب وجهه ويعبث بشعره ويلعب بطيات قميصه . وهو يلقى نظرة على الآكام والربى ، حتى وصل الى « وادى سالينا » الخصيب ، وبدت لعينيه مدينة **سالينا** تلمع نوافذها تحت أشعة الشمس الشاحبة ، وظهرت تحته شجرة البلوط وقد غطاها سرب من الغربان حتى بدت سوداء بلونها ، وأخذت تنعق بصوت واحد .

تتبع **جودى** بناظريه طريق القوافل الذى ينحدر أسفل المرتفع الذى يسير فيه، حيث كان يبدو من جانب ويختفى من الجانب الآخر . وقد ابصر على هذا الطريق الممتد عربة تسير فى بطء .. يجرها جواد أشهب، ثم اختفت عن عينيه وراء الاكمة. جلس **جـودى** على الارض حيث تعود العربة الى الظهور ، والرياح تتناوح على رءوس الآكام. وقد أخذت قطع السحاب تغذ السير نحو الشرق . وهنا بدت المركبة ظاهرة لعينيه ، ووقفت، ثم نزل من مقعدها رجل يرتدى لباسا أسود، فتمشى قليلا حتى جاء الى رأس

الجواد ، وأدرك **جودى** على بعد أنه يخلع عنه العنان . فقد رآه يطأطىء رأسه الى أسفل .... وسار الجواد قدما والرجل يسير الى جواره بخطى وئيدة. فصاح **جودى** مبتهجا وعدا نحو الطريق متجها اليه . وكان بعض السنجاب يقفز هنا وهناك . وقد نشر سنجاب منها ذنبه وجرى على الحافة ، ثم انبرى كمن ينزلق على الجليد .

كان **جودى** يعدو ويحاول فى كل خطوة يخطوها أن يقفز الى نصف ظله ، وسقط حجر تحت قدمه فزلت به الى أسفل .

فلما وصل الى حنية صغيرة جرى حتى صار بينه وبين جده وعربته مسافة قصيرة . وخفف الولد من جريه وتريث ، ثم سار متئدا .

كان الجواد يتعثر فى مشيته فوق تلك الآكام ، وكان الشيخ يسير الى جواره ، وارتمت خلف شبحهما الكبير ظلال سود. كان على الجد حلة من القماش الاسود الخشن ، وفى رجليه طماق من جلد العنز ، وحول عنقه طوق منشى حوله قلادة سوداء ، وقد حمل قبعته فى يده ، وبدت لحيته مطمومة وحاجباه المبيضان يتدليان فوق عينيه كأنهما شاربان . أما عيناه الزرقاوان فعليهما مسحة المرح الوقور ..وتحف بمرآه جميعا سيمة صخرية يخيل اليك أن تحريكها مستحيل . فأذا سكن جسمه تحول الى صخر لن يتحرك ثانية، واذا خطا فخطواته وئيدة ثابتة كل خطوة منها لاتخالف الاخرى فى اتجاهها ولا تزيد ولا تنقص فى اتساعها .

وما كاد **جودى** يظهر من جانب المنحنى حتى رفع جده قبعته مرحبا قائلا : هذا أنت ياجودى .أقادم انت لاستقبالى؟!

فاقترب **جودى** ثم عاد فأسرع وتقدم نحو الرجل الشيخ ومثل الى جانبه يجر قدميه ، واجابه: أجل ياسيدى ، اننا لم نتسلم خطابك الا اليوم ...

قال جده : كان ينبغى أن يصل بالامس !! كيف حالكم جميعا ؟

– انهم على أحسن حال ياسيدى

وتردد قليلا ثم قال فى خجل :

– هل لك فى صيد الجرذان غدا ؟

فأجابه الجد متهانفا :

— صيد الجرذان ؟! هل انحدر أبناء هذا الجيل الى هذا الحضيض ؟ . انني أعلم أنهم ضعاف ، ولكني لم أكن أحسب أن سيبلغ من ضعفهم أن يتخذوا الجرذان صيدا !!

— كلا ياسيدى ، انها لعبة فحسب . لقد ذهب الدرس ، وأنا أسوق الجرذان الى الكلاب وأنت تراقب أو تضرب العشب قليلا .

قال الجد ، وأدار اليه عينيه الثابتتين المرحتين : انى أراك لاتأكلها ؟ لم يصل الامر بك الى هذا الحد !!

وقال **چودى** وهو يحاول أن يشرح له مايرمى اليه : ان الكلاب تأكلها ياسيدى ، ولاشك أنه ضرب من الصيد غير صيد الهنود !

— كلا ليس الأمر كذلك ، ولكن بعد أن خرج الجنود يتعقبونهم ويتصيدون أبناءهم ويحرقون أجرانهم ، لم يكن ثمة فرق كبير بين هذين الضربين من الصيد !

وتسلقا المرتفعات فأخذا يهبطان الى الوهاد وضوء الشمس يتقلص من فوق أكتافهما ، ويقول الجد : لقد طلت **ياچودى** وأحسبك قد نموت نحو قيراط !

فأجابه **چودى** مزدهيا : بل أكثر من ذلك ، انهم حينما قاسوا قامتى على الباب وجدوا أنى زدت أكثر من ذلك . أحمد الله على كل حال .

وقال الجد بصوته الاجش : قد يكون هذا .. لعل عودك قد أصاب ماء غزيرا فنما وترعرع ، ولكن انتظر حتى تستوفى نموك ثم ننظر ماذا تكون ؟

وألقى **چودى** نظرة عاجلة على وجه الرجل الشيخ يخشى أن يكون قد أساءه على غير قصد . ولكن عينى الرجل النافذتين الزرقاوين لم ينذرا بشيء من العقاب أو يشيرا اليه بالزجر . واقترح **چودى** صيد خنزير .

— كلا لست أدعك تفعله . انما هو كلام تجره معى **ياچودى** ، فما الساعة بموعد صيد .

— أتذكر الخنزير الذى كنا نسميه رايللى ياسيدى ؟

— أجل انني أذكر رايللى جيدا .

— لقد قرض حجرا من العشب فانهار عليه واختنق !

فأجاب الجد : ان الخنازير تفعل ذلك كلما أمكنها .

ــ كان رايللى خنزيرا لطيفا، وكنت امتطى ظهره وهو لا يبالى .

وفتح باب من أبواب المنزل ، وبدت لهما أم **چودى** على عرض الطريق تلوح بمئزرها مرحبة به ، وبدا **تافلن** قادما من الجرن لاستقباله .

كانت الشمس قد اختفت من فوق الروابى ، وطبقات الدخان الازرق الذى ينبعث من المدخنة معلقة فى الافق الارجوانى وقد وقفت السحب التى تسوقها الرياح فوق السماء بغير حراك . .

خرج **بللى** بك من الحجرة وألقى على الارض اناء من الماء والصابون ، وكان من عادته أن ينظف لحيته فى منتصف الاسبوع .

ان **بللى** يهاب الجد ويوقره، وكذلك الجد يقدره ويقول : ان **بللى** من الافراد القلائل الذين لم تفسدهم طراوة الترف فى هذا الجيل . ويدعوه بالولد. وان كان قد بلغ منتصف العمر.

وأسرع **بللى** نحو المنزل . فلما وصل **چودى** مع جده كان الثلاثة فى استقبالهم على باب الفناء . قال **كارل** : مرحبا بالسيد .. لقد كنا فى انتظارك .

وقبلته السيدة **تفلن** على جانب لحيته ، وجلست اليه فى أدب ، فربت براحته الكبيرة على كتفها . وصافحه **بللى** بهدوء وهو يبتسم ابتسامة عريضة من تحت شارب كأنه منسوج من التبن ، ثم قال : سأذهب لأريح الجواد ، وأرفع عنه الركاب .

وكان الجد يرقب حركاته وهو يروح ويغدو ويردد تلك الكلمة التى طالما رددها مئات المرات : هذا ولد طيب ، اننى أعرف أباه « ذيل البغل » كما كانوا يسمونه ، لا أعرف لماذا كانوا يسمونه « ذيل البغل » . ألأنه كان يربط البغال ؟

والتفتت اليه السيدة **تفلن** وقادتهم الى داخل المنزل ، وقالت :

ــ كم تقضى معنا يا والدى ؟ لم تقل فى خطابك ..

فأجاب : لاأدرى على التحقيق. قد أمكث أسبوعين ، ولكنى على أى حال لاأخالنى سأقضيهما..

جلسوا بعد هنيهة الى المائدة يتناولون عشاءهم ، ومن فوقهم مصباح تنعكس أشعته عليهم من صفحة القصدير يرفرف حولها الفراش والبعوض..

وأخذ **الجد** يقطع شظائر اللحم أجزاء صغيرة ويمضغها ببطء ويقول :

– لقد جعت حقا. ان ركوبى الى هنا هيج فى ضراوة الجوع ! وكذلك كنا ونحن نعبر البرارى، كان يدركنا الجوع عاجلا . فلا ننتظر حتى ينضج اللحم لنأكله. وكنت ألتهم قرابة خمسة أرطال من لحم الجاموس كل ليلة .

قال **بللى** : هكذا تفعل الحركة. لقد كان أبى عاملا فى الحكومة، وكنت أساعده وأنا صغير . وكنا نأكل معا فخذا من لحم الغزال .

قال **الجد** : اننى أعرف والدك، انه رجل لطيف ، وأعجب كيف قبل أن يشتغل بربط البغال !

قال **بللى** : نعم كان يربط البغال .

ووضع **الجد** السكين والشوكة أمامه ونظر حول المائدة وقال : أذكر أننا ذات مرة استنفدنا ماعندنا من اللحم .

وانخفض صوته وانبعث فى جرس كأنه أخدود تشقه عباراته لنفسها دون قصد منه .. قال:

– لم يصادفنا جاموس ولا وعل ولا أرنب ، لم يصادفنا حتى ولاذئب . وهنا يعمل الزعيم عمله، وماكان الزعيم يومئذ أحدا غيرى!.. وظلت عيناى ترقبان. أتعرفون لماذا ؟ فى هذه اللحظة كانت القافلة تتضور جوعا ،وأوشك رجالها أن يذبحوا الثيران التى تعتمد عليها ! أتصدقون هذا ؟ . لقد سمعت أن قافلة أكلت لحم ماشيتها نيئا ! بدأوا بالوسط ، ثم انصرفوا الى آخرها فأكلوه ، ثم قضوا على الازواج الاولى فالاخيرة . وعلى زعيم القافلة أن يحول بينهم وبين ذلك...

ودخلت فراشة كبيرة الى الحجرة فجعلت تحوم حول المصباح ، واذا **بللى** ينهض ويحاول أن يصطادها بكفيه ، وبادر كارل فضربها وأمسك بها... واستطرد **الجد** فى حديثه

ولكن **كارل** قاطعه قائلا : خـــذ قليلا من اللحم فانك لم تستوف عشاءك بعد هذا الجوع .. اننانوشك أن نأكل الحلوى .

وأدرك **جودى** أن سحابة من الغضب تعلو وجه أمه . وقال الجد وقد أخذ فى يده الشوكة والسكين : اننى جـــد جوعان وسأتم لكم قصتى فيما بعد .

واذ انتهوا من العشاء جلسوا الى الموقد .. فأخـــذ **جودى** يتفرس فى وجه جده، ويتطلع الى الملامح التى عهدها ، والى رأسه الملتحى، والى عينيه وقد فارقتهما صرامتــه وتوجــه بهما الى نار الموقد واضعا أصـــابعه النحيلة فوق ركبته وهو يقول : لا أدرى هل أخبرتكم بأن هؤلاء اللصوص قد ساقوا أمامهم خمسة وثلاثين جوادا من خيولنا ؟.

قاطعه **كارل** قائلا : أظنـــك رويت لنا ذلك ، أليس هذا قبل أن تذهب الى **تاهواى** ؟

قال الجد وقد التفت التفاتة عاجلة الى صهره : هذا صحيح، أظن أننى أخبرتكم بذلك .

قال **كارل** بقســـوة : عدة مرات ..!

وتحــاشى أن ينظر الى عينى زوجتـــه ، وان كان قد أحس وقعهما ، فقـــال : الا اننى طبعا أحب أن أسمعها مرة أخرى ..

وعاد **الجد** ينظر الى نار الموقد وقد فك أصابعه المتشابكة ، أما **جودى** فقد عاوده فى تلك اللحظة شعور بالمهانة والانكســـار . ألم يصفوه بالفضولى أصيل ذلك اليوم ؟ لقد تسامى به الفضول اذن الى أوج البطولة . فأنشــأ يقترح على جده الحديث ويقول له : حدثنا عن **الهنود** ..

وتسرى الصرامة مرة أخرى الى عينى **جده** فيقول :

ـ ان الاولاد يحبون دائما أن يسمعوا مايقال عن **الهنود** ، انه عمـــل رجال ، الا أن الاولاد يشوقهم خبره . هـــل أخبرتك كيف أشرت بأن تحمل كل مركبة صفحة طويلة من الحديد ؟

وكان الجميع فى سكون شامل عدا **جودى** ، فأجاب : كلا . انك لم تخبرنا .

قال **الجد** : حينما كان الهنود يهاجموننا كنا نقيم المركبـــات حولنـــا كالدائرة ونطلق عليهم النار من بين العجلات ، وخطر لى أنه اذا وضعت فى كل عربة لوحة من الحديد مخرقة تنفذ البنادق من خروقها ، أمكننا أن نحمي بها المركبات فتصون حياة رجالنا . غير أنه ما من أحـــد فى القافلة كان يعمـــل بهــذه

الوصية ،اذ لم تسبقنا قافلة اليهاقبل ذلك . فما بالهم يتكلفون مثل هذه النفقة التى لم تتكلفها القوافل الاخرى ؟ .. على أنهم قد عاشـــوا حتى ندموا على اهمالهم لتلك الوصية .

والقى **جودى** نظـرة الى أمه، فرأى ماينم عنه وجهها، انها لم تكن مصـغية الى شىء ، وأبصر **كارل** يتفحص ابهامه . **وبللى بك** يرقب عنكبوتا يزحف على الحائط. . . .!!

كان صوت **الجد** قد تهيأ للايقاع والالقاء ·· وان **جودى** ليعرف جيدا مواقع كلامه : انه ينقض كلما استعرض مواقف الهجوم، ويشجى كلما ذكر الجراح ، ويكاد ينتحب عند ذكر الموتى ودفنهم فى البرارى والسهول ·

كل ذلك **وجودى** هادىء يرقب حركات **جده** ، وعيناه الزرقاوان منصرفتان عنه، غيرمكترث بالقصة فلما فرغ من حديثه قوبل صمته بالخشوع والتوقير كأنه تخوم القصة التى تحق لها الرعاية والاحترام·

وقام **بللى بك** فتمطى وأصلح من لباسه وقال « لعلى أعود » ثم توجه نحو الجد وقال :

« ان عندى بندقية ومسدسا لعلك رأيتهما ؟ »

وهز **الجد** رأسه وقال : أظن ذلك **يابللى** ، لقد ذكرتنى ببندقية كانت لدى حين كنت أقود القافلة· وجلس **بللى** ساكنا حتى انتهت القصة ، فحيـاهم وانصرف من المنزل · وحاول **كارل** أن يغير مجرى الحديث فقال : كيف حال الطريق من هنـا الى **مونترو** ؟ سمعت انه طريق يابس ··

وأجاب **الجد** ان الطريق ليابس حقا وليس فى أقليم **اللاجونسكا** قطرة واحدة من المـاء ، ولـكن العهد بعيـد من عام ٨٧ ، حيث كانت الارض جميعهـا شعلة من البارود وفى عام ٦١ ماتت الذئاب عن آخرها من شدة الجوع وارتفعت درجة الامطار حتى بلغت ١٥ قيراطا فى هذه السنة · أجل حدث كل هذا آنفا وفى وسـعنا الآن أن نكتفى بالتعليل ··

واستقرت عينا كارل على **جودى** فأشار اليه قائلا : ألا تذهب الى فراشك ؟

ووقف **جودى** ممتثلا وقال :هل لى ان أبيـد الجرذان التى فى الدريس ياسيدى ؟

ــ الجرذان ؟ أجل اقتلها جميعا ولا تبق ولا تذر· · ان بللى يقول ان الدريس قد أزيل ولم يبق منـه شىء ··

وتبادل **جودى** وجـده نظرات خفية راضية ، وقال متوعدا : غدا سأقضى عليها ·

٠٠رقد **جودى** فى فراشه يسبح بخياله فى ذلك العالم العجيب عالم الهنود والعجول ٠ ذلك العالم الذى ذهب واندثر الى غير رجعة ٠ ماكان أشوقه ان يعيش فى ذلك العصر الحافل بالبطولة والابطال كان يعلم أنه لم يخلق من معدن البطولة ، وليس أحد من معدنها يعيش الآن خلا **بلى** بك ، فانه يستطيع أن يضطلع اليوم بما كانوا يفعلون بالامس !

٠٠٠ جيل من الجبابرة ٠ كان يعيش فى تلك الآونة ، كانوا رجالا بواسل أولى شجاعة لاتعرف اليوم ٠ ثم أخذت تطوف بذهن **جودى** صور السهول الشاسعة والمركبات التى تزحف كالديدان وتصور جده وهو يمتطى صهوة جواد أبيض يتقدم القوم ، فتمثلت فى ذهنه تلك الاشباح الكبيرة التى سارت على الارض أمدا ثم اختفت أبدا ٠

وعاد أدراجه الى المزرعة لحظة فوقر فى سمعه ذلك الصوت الثقيل الذى ينبعث من الفضاء الصامت وسمع أحد الكلاب فى حظيرته يحك برغوثا ويضرب بذراعه فى الارض ٠ وعادت الرياح تهب وشجر السرو الاسود يتمايل ويتناوح مع تلك الرياح ، ثم استغرق **جودى** فى النوم ٠

واستيقظ قبل أن يدق جرس الافطار بنصف ساعة ٠ ودخل الى المطبخ فرأى أمه تقلب الموقد فينبعث زفير النيران ٠

قالت : لقد استيقظت مبكرا ، أين تذهب ؟

ــ سأخرج لاستحضار عصا ، سوف نبيد نحن الجرذان اليوم !!

ــ ماذا تعنى ب « نحن » ؟

ــ أنا وجدى ٠

ــ اذن أنت قد طويته معك !

وهكذا دأبك لاتزال تشرك معك أحدا تتقى به اللوم !

قال **جودى** : سأعود عاجلا ، انما جئت لاستحضر عصا ٠ وأعدت بعد أن نتناول طعام الافطار ٠ وأغلق خلفه الباب وخرج فلاقاه جو صباح صاف برود ٠

كانت العصافير تغرد والقطط تنحدر من الاكمة وهى تتلوى كالحيات ٠ وكانت هذه القطط الاربع تصطاد الجرذان فى الظلام ، ممتلئة بلحومها ، ولكنها مع ذاك تموء فى ضراعة شوقا الى جرايتها المعهودة من اللبن !

وجرى الكلبان **دبلترى مت وسماشر** على حافة السور يؤديان واجب التحية بجد ووقار الا انهما لم يكادا يستمعان الى صفير **جودى** حتى شالا برأسيهما وبصبصا بذنبيهما واندفعا اليه يتثاءبان ،

فربت **جودى** على رأسيهما ثم التفت الى حزمة من العصى واختار يد مكنسة قديمة وعودا من الخشب وأخرج رباط حذاء من جيبه وربط العصى بعضها الى بعض ليصنع منها مدقة وأدار سلاحه فى الهواء ثم ضرب الارض ليجرب متانة هذا السلاح . والكلاب تثب وتعدو متوحشة الى جواره

ثم استدار **جودى** وسار الى مكان الدريس ليلقى نظرة الى ميدان المذبحة الا انه سمع بللى يناديه وهو يجلس فى هدوء على درج السلم الخلفى ؟ خير لك أن ترجع، لم يبق الا دقائق على موعد الافطار

فارتد **جودى** من وجهته ومشى ناحية المنزل وأسند مدقه على درج السلم وهو يقول « سوف أخرج بها الجرذان ، لاشك انها قد سمنت وانتفخت ، وكأنى بها لا تدرى ماذا سيحل بها اليوم !

قال **بللى** متفلسفا « كلا ولا أنت تدرى ماذا يحل بك »

فاضطرب **جودى** لهذا الخاطر لعلمه بصدقه ، وغابت عن حياله كل فكرة عن الجرذان وصيدها .. ثم خرجت أمه من الباب الخلفى وطرقت الناقوز ، فانهارت كل أفكاره كومة واحدة .. !

فلما جلسوا على المائدة لم يظهر الجد معهم . وأشار **بللى** الى كرسيه الخالى متسائلا ، « لعله بخير . ما أحسبه مريضا »

قالت السيدة **تفلن** « انه يتوانى طويلا فى ارتداء ملابسه وفتل شاربيه ومسح حذائه .

وأخذ **كارل** يرش السكر على العصيدة التى فى انائه وهو يقول،

ـ ان الرجل الذى يقود القافلة يجب أن يعنى بارتداء ملابسه .

والتفتت اليه السيدة **تفلن** وقالت : هـه دع هذا أرجوك يا **كارل** . والتهديد فى لهجتها أقرب من الرجاء ، مما أثار **كارل** وأغضبه .

ـ حسنا كم مرة ياترى سوف أجبر على سماع قصة الاطباق الحديدية وقصة الخيل الخمسة والثلاثين .. ذلك زمان قد غبر ما باله لاينساه .. انه غبر واندثر ..

وجعل كلما تكلم يشتد به الغضب ويرتفع صوته .. واستطرد قائلا : ما باله يعيدها كرة بعد أخرى ؟ لقد عبر السهول .. نعم عبر السهول ، حسن ، هذا كله قد مضى وانقضى ومامن أحد يعنيه أن يستعيد هذه القصة مرارا وتكرارا

وكان باب المطبخ مقفلا وجلس الاربعة على المائدة جامدين ، ووضع **كارل** ملعقته على المائدة معتمدا ذقنه بأصابعه .

وفى تلك اللحظة فتح باب المطبخ ودخل منه الجد مبتسما وعيناه تغمزان . قال :

ـ « عموا صباحا ! • • ثم جلس ينظر الى صحفة العصيدة التى أمامه • •

ولم يطق **كارل** أن يسكت دون أن يسأل : هل سمعت ما كنت أقول ؟

فأنغض **الجد** رأسه قليلا • •

ـ اننى لا أعرف ماذا جرى لى ، واننى لا أعنى شيئا ، انما كان محض مزاح •

نظر **چودى** الى أمه حجلا ، ورآها تنظر الى **كارل** وهى تكظم أنفاسها • لقد كان **الجد** يعانى أشد العناء ويغالب نفسه مغالبة شديدة وهو يتكلم على هذا النحو اذ كان يحز فى نفسه أن يرجع فى كلمة واحدة • • فأما أن يرجع فيها خجلا فذلك مما لا يطاق !

ونظر **الجد** الى جانبه وقال فى دعة • وددت لو أننى أكف عن هذا ، وما أنا بذى جنة • ولست أبالى ما قلت فلعله حق ولعلى خليق أن أباليه

قال كارل : لا شىء من هذا ، لا شىء مما تظن • لقد قمت من نومى متوعكا ، وآسف لاننى قلت ما قلت •

ـ « لا تأسف **ياكارل** • ان الشيخ الهرم قد يفعل ذلك أحيانا ولعلك على حق • ان أيام تلك الرحلات قد غبرت ، وكان خليقا أن تنسى • •

قام **كارل** وغادر المائدة ثم قال : لقد شبعت وسأذهب الى عملى • • ثم التفت الى **بللى** قائلا : كل كفايتك • • وخرج مهرولا • فالتهم **بللى** بقية الطعام وتبعه على عجل • ولكن **چودى** لم يغادر مقعده •

قال **چودى** : ما عدت تقول لى شيئا من القصص ؟

ـ وكيف لا ؟ اننى سأقول ! • ولكن حين أجد أذنا صاغية •

ـ اننى أحب أن أسمعها •

ـ لاشك انك تحب ولكنك صغير ، وهذه القصص عمل رجال • وان كان الاطفال يحبون الاصغاء اليها •

وقام **چودى** من مقعده وهو يقول : سأنتظرك فى الخارج ياسيدى • • • • لقد أعددت عصا جيدة للجرذان •

ـ اذهب فاقتلها أنت • اننى أفضل أن أجلس فى الشمس •

ـ تستطيع أن تستعمل عصاى اذا شئت •

ـ كلا سوف أجلس هنا لحظة

والتفت **چودى** محزونا ثم اتجه الى مكان الدريس فأخذ يشحذ

همته بالتفكير في الجرذان السمان، ودق الارض بمدقته وانبرت الكلاب تلهث وتلتف حوله ، ولكنه لم يستطع الذهاب، ولما عاد الى المنزل وجد جده جالسا على سدة الباب متضائلا شاحب الوجه . فانصرف **جودى** عما هو بصدده . وجلس على الدرج تحت أقدامه :

- لقد عدت أدراجك ، هل قتلت الجرذان ؟

- لا ياسيدى .. سأقتلها في يوم آخر .

وكان الذباب الذى يدب فى الصباح يغمر الارض والنمل يسير على الدرج ، ورائحة الريحان تنبعث من الرابية ، وخشب البوابة دافئا تحت أشعة النهار .

ولم يكن يعرف **جودى** متى استأنف جده الكلام ولكنه سمعه وهو يقول :

أما والحال حالنا ، فليس لى أن أمكث هنا .

وجعل يتفحص يديه القويتين ثم قال : أحسب تلك الرحلات لم تكن تستحق أن ترحل . وتحركت عيناه الى جانب التل فاستقرتا على صقر جاثم على شلو ميت . وعاد يقول : انما أقص هذه الحكايات . وماهى بالذى أعنيه وانما أعنى أن أرى ماذا يجول فى خواطر الناس حين يسمعونها .

لم يكن المهم شأن الهنود .. كلا . ولاتلك المغامرات . كلا .. ولامخرجي منها الى حيث ترونني فى هذا المكان . انما كان الخطب خطب كتلة من أبناء آدم تجمعت فى شبه حيوان ضخم يزحف هنالك ، وكنت أنا رأس ذلك الحيوان .. كان همنا جميعا أن نضرب ونضرب ، وكان كل منهم يتمنى شيئا لنفسه ، ولكن الكتلة الهائلة ذلك الحيوان الضخم لم يكن من همه الا أن يضرب ويضرب .. وكنت أنا الزعيم ،ولكني لو لم أكن زعيمها ، لكانه انسان آخر ، فلم يكن فى تلك الكتلة الهائلة غنى عن رأس .

« كانت الظلال تحت الخمائل مسودة حالكة فى وضح النهار . فلما رأينا الجبال فى النهاية مرحنا جميعا . ليس الوصول الى هنا هو المهم انما المهم هو التجوال والتغريب . »

« لقد حملنا حياتنا كأننا النمل التى تحمل بويضاتها وكنت أنا الزعيم . كان التغريب فكرة كبيرة كأنها اله . وتجمعت خطواتنا . وكانت تلك الخطا التى خطوناها تتجمع وتتجمع حتى تمهد مسالك القارة . »

« وهنا وصلنا الى البحر وانتهى كل شىء . »

ثم وقف ومسح عينيه حتى احمرت جفونهما : « هذا مايجب ان أقوله بدلا من القصص»

ولما قال چودى : أترانى مستطيعا أن أقود النـاس كما قدتهم ياجدى ؟

ابتسم الرجـل وقال : « لم يبق ثمة مكان تذهب اليه ، ان المحيط أمامك ، وعليك أن تقف عنده . وان هنالك صفا من الرجال الشيوخ الذين فى مثل سـنى يقفون على طـول الشاطىء وهم يكرهون المحيط لانه صدهم عن العبور .. »

– « ألا أعبره فى الزوارق والسفن ؟ »

– « لم يبق أمامك مذهب **ياچودى** ، لقد أخذ كل مكان . كلا ليس هذا أسوأ مافيه . ان فكرة التغريب قد ماتت فى نفـوس الناس ، لم تعد هناك شهوة الى التغريب ، بعد أن انتهى كل شىء . ان أباك على حق ، وشبك أصابعه على ركبته وأخـذ يتفرس فى وجوههم !

واغتم **چودى** غما شديدا وهو يقول : ان أردت يا سـيدى كوبا من شراب الليمون ففى وسعى ان أهيئه لك . وكاد جـده يرفض ولكنه آثر أن يوافقه وقال : والله انه ليحلو أن نتنـاول كوبا من الليمون الآن .. نعم انه ليحلو .

وأسرع **چودى** الى المطبخ حيث كانت أمه تمسح الصحفة الاخيرة من صحاف الافطار ، وسألها : هل لديك ليمونة لاصنع كوب شراب لجدى ؟ وابتسمت أمه محاكيـة وقالت : ليمونة أخرى لنصـنع كوبا لاجلك أنت !

– كلا .. أنا لا أريد يا أماه .

– أنت مريض **ياچودى** ..

ووقفت فجأة وقالت بصـوت وديع :

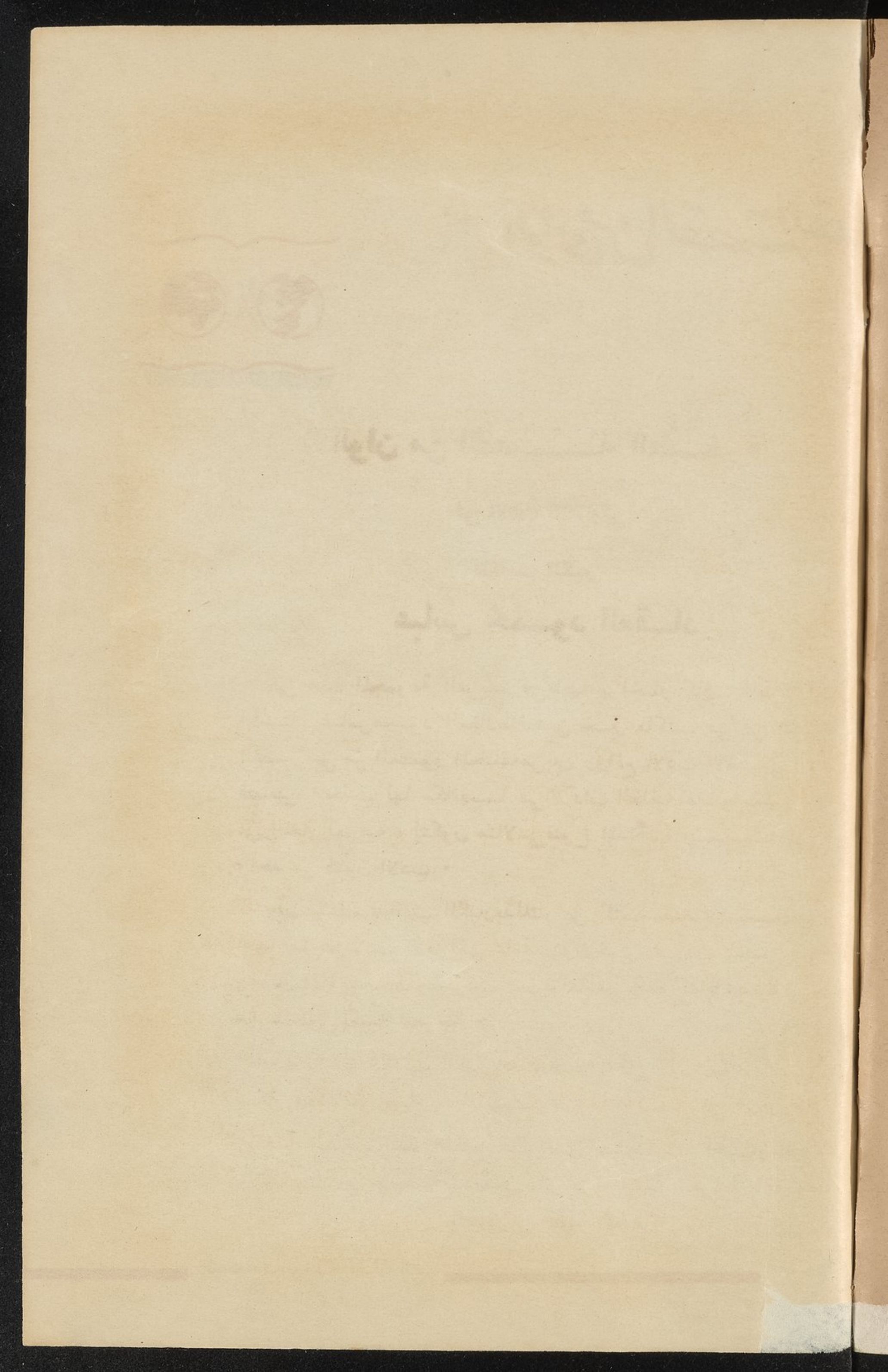
– خـذ ليمونا من الثـلاجة . وسأحضر لك العصارة ههنا .

ملاحظة

تمت هذه المجموعة من « ألوان القصـة الصـغيرة فى الادب الامريكى » ، وقـد توخينـا فى اختيارها أن تشتمل على مثال من كتابة كل أديب معروف من كتاب هذه القصـة ، فلم تخل من آثار أحـدهم الا لضرورة تقضى بهـا حقـوق التـأليف والترجمـة ، وفيما عـدا ذلك نرجو أن تكون المجموعة وافية بالدلالة على القصة الصغيرة فى الادب الامريكى ، من عصر الاستقلال الى العصر الحاضر .

عباس محمود العقاد

فهرس



الوان من القصة القصيرة



ألوان من القصة الصغيرة

فى الادب الامريكى

للكاتب الكبير

عباس محمود العقاد

فى هذه المجموعة الفريدة فى بابها ، اختار كاتب العرب الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد طائفة من خير ماكتب فى فن القصص القصير على مر العصور المختلفة من بين روائع الادب الامريكى . وهى قصص اتخذت لها مكانها فى الآداب العالمية، فنقلها بقلمه القدير الى اللغة العربية ، لتكون مثالا على تنوع المذاهب وتشعبها فى فن واحد من فنون الادب .

ولم يكتف الكاتب الكبير بذلك، بل كتب مقدمتين نفيستين : احداهما عن الادب الامريكى عامة ، والاخرى عن فن القصة فيه .. وهاتان المقدمتان جديرتان بأن يؤلفا على حدة كتابا يضيف ذخرا جديدا الى المكتبة العربية .

ولم يكتف الكاتب الكبير بذلك أيضا ، بل كتب مقدمة قصيرة لكل قصة عن حياة ، كاتبها وظروفه وقيمته فى الادب .

هذا الكتاب الفذ الجامع هو الذى تهديه دار **أخبار اليوم** ، بالاشتراك مع **مؤسسة فرانكلين** ، الى قراء اللغة العربية ، فى هذا العدد من **قصة اليوم** .

طبعت بمطابع دار أخبار اليوم

